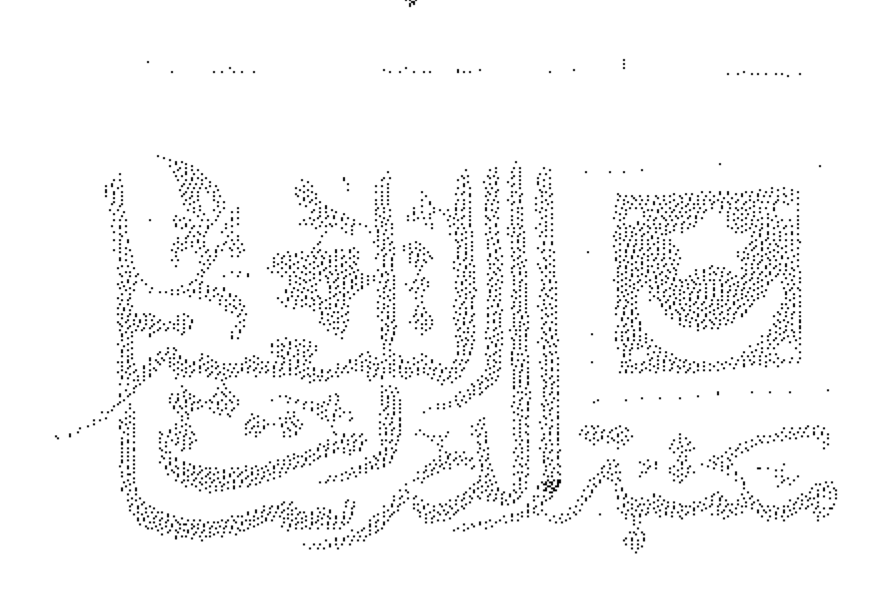


البطل فى الوجدان الشعبى



محمد جبريل



البطل فى الوجدان الشعبى

محمد جبريل

أكتوبر
٢٠٠٠

• مكتبة الدراسات الشعبية (٥٣)٠
• سلسلة شهرية
• تعنى بنشر الدراسات المتعلقة بالفولكلور
ونشر نصوص وسير الأدب الشعبى

• البطل فى الوجدان الشعبى
• لوحة الغلاف :عنتر وعبلة للفنان : رفيق شرف-
رسم زيتى - لبنان
• القاهرة : أكتوبر - ٢٠٠٠
• الطبعة الأولى

• المراسلات :
باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ شارع أمين سامى قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١

هذا الكتاب

أبطالنا الشعبيون

ما الذى تعرفه - عزيزى القارىء - عن ياسين بهيه وأدهم الشرقاوى وحسن نعيمه ومتولى شفيقه والسيد البدوى والظاهر بيبرس وأبى زيد الهلالى وغيرهم؟

إنك طبعا تعرفهم من خلال المواويل والسير الشعبية التى وضعها الشعب المصرى عنهم وكلها حافلة بالإنشاد والتغنى ببطولاتهم.

ولكن الروائى الأستاذ محمد جبريل أعاد النظر فى حياة وتاريخ هؤلاء الأبطال الشعبيين، ليس من زاوية الروائى الذى الذى يقع أسيراً لمثل هذه الشخصيات حيث يجد فى سير حياتها ما يشفى غليله من أحداث ومواقف تحتمل فكره الروائى ووجهات نظره فى الحياة والناس.

إن هذه الدراسة الروائية استطاعت أن تغوص فى واقع الكثير من الشخصيات التى رفعها الشعب المصرى إلى مرتبة الأبطال، ليس من قبيل البقشيشة الشعبية كما سيتضح لنا، وإنما لأن هناك - فى حياة هؤلاء الأبطال كما فى حياة الشعب المصرى- قيم معينة حرص الشعب المصرى على تشخيصها وتجسيدها من خلال هذه الشخصيات .. فكيف كان ذلك؟ إقرأ هذا الكتاب. وشكراً لكم.

خيرى شلبى

إهـــــداء

إلى صديق الباحث الكبير

أحـــمـــد حـــسين الطـمـــاوى

مقدمة

هذا الكتاب ، تشغله الإجابة عن السؤال : لماذا أبرز الوجدان الشعبى المصرى شخصيات ، أسهمت فى تشكيل تاريخه القومى ، والوطنى ، أو وظفت سيرهم للتدليل على جوانب فى التاريخ المصرى ، أو للإسقاط على أحداث محددة فى ذلك التاريخ..

الثابت ـ تاريخياً ـ أن عنترة كان واحداً من الفرسان الذين يعتز بهم العرب فى العصر الجاهلى ، ثم أضاف الوجدان الشعبى إلى سيرة حياته ، فهو ذلك البطل الذى دافع عن حبه ، وعن حقه فى الحرية والمساواة ..

و لم يكن الهلالية ـ على حد تعبير عبد الحميد يونس ـ سوى أهل شغب ، قليلاً ما يهدءون ، يقطعون الطريق على السفر حجاجاً وتجاراً ، ويكرهون النظام أيا كان مصدره ،

والسلب عندهم غنيمة مشروعة تقضى بها خلقيتهم ويقوم عليها مجتمعهم، بحيث صاروا خصوم الدولة النظامية الألداء ..

أما الظاهر بيبرس ، فإن بداية التحقق الفعلى لمكانته البطولية، حين قتل قائده العظيم المظفر قطز ، بعد أن دحر المغول فى موقعة عين جالوت ..

وأما السيد البدوى ، فثمة ظلال على سيرة حياته ، تخالف ما ألف الرواة الشعبيون ترديده عن تلك السيرة . ولعلى أذكّرك بكتابات محمد فهمى عبد اللطيف وسعيد عبد الفتاح عاشور وغيرها ..

وتقول سجلات الشرطة أن ابن عروس وأدهم الشرقاوى وياسين ومتولى وشفيقة وغيرهم من الذين وضعهم الوجدان الشعبى فى مكانة متفوقة ، قد ارتكبوا جرائم يعاقب عليها القانون الجنائى، كالقتل والسطو والخطف والزنا ومقاومة السلطة إلخ ..

فلماذا أسقط الوجدان الشعبى ما يشكل ــ فى حياة هؤلاء ــ نقاط ضعف ــ أو سلبيات . وبتعبير آخر : كيف يصنع الوجدان الشعبى نموذجه البطولى ؟..

هذا الكتاب محاولة للإجابة عن السؤال ..

يبقى التأكيد على أن الكتاب ليس دراسة فى الأدب الشعبى ، لكنه رؤية لبعض أبعاد الحياة المصرية ..

وإذا كان التوفيق قد حالفنى أحياناً ، فلأنى — ربما — أحسنت القراءة ، والتأمل ، واستخلاص النتائج . أما إذا لم يحقق الكتاب ما كنت أرجوه من فائدة ، فلأنى — ربما — حاولت العوم فى بحر لا أحسن ركوب أمواجه .

محمد جبريل

البطل .. لماذا ؟

مصر والنيل مجتمع متلازم ، فمصر هبة النيل ، وأبناؤها صنعوا على ضفتيه أولى حضارات العالم القديم . ولأن النيل يعتمد فى تواصل حياته على الفيضان ـــ وهو ما يعتمد عليه الشعب المصرى بالتالى ـــ فقد كانت السلطة المركزية ، التى تعنى بالضبط والتوزيع ، ضرورة لإدارة الحياة اليومية فى المجتمع المصرى . مصر ـــ دوناً عن بقية العالم ـــ يمثل فيها الحاكم / السلطة ، دور الوسيط بين الإنسان والبيئة ، فهى ـــ على حد تعبير أستاذنا الراحل جمال حمدان ـــ بيئة رى فيضية ، تقوم حياتها على النهر ، الذى تحتاج مياهه إلى ضبط . وهو ما يقوم به الحاكم . إنه يملك مفاتيح النهر ، يهب المياه فى الموعد الذى يحدده، ويمنعها فى الموعد الذى يحدده . وتتحدد العلاقة بين الحاكم / السلطة ، والإنسان / الشعب فى أبوة ، رئاسة قبيلة ، ديكتاتورية ، قهر ، من ناحية ، وخضوع وسلبية وفقدان للمبادرة واستقلال الشخصية وميل إلى المداهنة والملق من ناحية ثانية . السلطة ـــ فى تعريف معاصر ـــ

هى " قدرة طبقة اجتماعية محددة على تحقيق مصالحها الموضوعية، وهى قدرة تتحدد بنمط إنتاجى سائد فى تكوين اجتماعى محدد ، وبممارسات هذه الطبقة ووعيها ، وعلاقاتها بالطبقات الأخـــرى التى تعايشها المرحلة ذاتها " (مجلة فكر ـــ فبراير ١٩٨٥) .

لقد تحولت السلطة ـــ فى أحيان كثيرة ـــ إلى قوة متحكمة، وقاهرة ، وباطشة ، يساعدها على فرض إرادتها تلك الصحـــارى المحيطة بالبلاد . فمحاولة الفرار منها تعنى الفرار إلى الموت ؛ بينما لجأ الشعب ـــ فى مواجهة تعسف السلطة ، وأيضا فى مواجهـــة عمليات الغزو الخارجى من القوى الأجنبية ـــ إلى كثير مـــن الأساليب ، تبدأ بالمقاومة المسلحة ، وتنتهى بالمقاومة الســـلبية . وبالنسبة للمقاومة المسلحة ، فقد تكـــون المبـــادرة للحـــاكم / السلطة، حين يعبر فى مواقفه عن انحياز لصالح الجماهير . وقـــد تكون المبادرة لعالم دين أو صوفى . وقد تكون لقاطع طريـــق أو قاتل ، لكنه يعبر عما تجيش به نفوس الجماهير ، وتتطلع إليـــه . وقد تأتى فى صورة هبات ، أو ثورات مناوئـــة ، للغـــازى ، أو للسلطة . أما المقاومة السلبية فمن مظاهرها : الأغنيـــة والمـــوال والنكتة وحكايات الألغاز وحكايات الحيوان وحكايات الجـــان

والخوارق والمسائل والنوادر والقصص الفكاهى والمثـــل الســـائر والتظاهر باللامبالاة والشائعات ، ومن مظاهرها أيضـــاً الســـيرة الشعبية والحكاية والرواية التاريخية الشعبية . ليس مجرد رواية مـــا حدث ، وإنما رواية ما كان يجب أن يحـــدث ، أو مـــا يتمـــنى الوجدان الشعبى أن يحدث ، من رغبـــة فى تغيـــير الواقـــع ، إلى اصطناع التاريخ الذى يريده . إن كل تلك الأجنـــاس الأدبيـــة والفنية تسجيل شعبى ، شفاهى ، لحياة الجماعة الشعبية ، أضيـــف إليه ، وحذف منه ، وخضع عموماً لرؤية الناس المتجددة والمتغيرة لأحداث تاريخهم . لذلك جاء القول ان الموروث الشعبى نوع من القراءة الشعبية للتاريخ (قاسم عبـــده قاســـم : بـــين التـــاريخ والفولكلور – هيئة قصور الثقافة (٣٠)

الواقعة التاريخية ليست مقدسة فى رواية الوجدان الشـــعبى ، لأن قداسة الواقعة تقتصر على ما يشغل الوجدان الشعبى هو إثـــراء الصورة التى يبتدعها خياله ، بصرف النظـــــر عـــن الأحـــداث والشخصيات ..

ولعلنا نجد فرقاً بين السيرة الشعبية والحكاية الشعبية ، فى أن الحكاية لا تستغرق فى العادة أكثر من جلسة واحدة . أما الســـيرة

الشعبية ، فهى طويلة متشعبة الأحداث ، ومن ثم فهى تلقـــى فى جلسات متعددة (إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية ــ محمد حافظ دياب هيئة قصور الثقافـــة ــ جـــ ١ ــ ص ٥٩) . المعـــنى الاصطلاحى للسيرة هو " تاريخ حياة " Biographia ، وبديـهى أنها تعنى حياة تستحق التسجيل والرواية منذ الميلاد إلى الممات .

والحكاية الشعبية ــ أو الحدوتة ــ ينبغـــى أن تصـــل إلى النهاية التى يريدها المتلقى ، لا يشغله مسار الأحـــداث ، ولا تطوراتها ، ولا الحبكة ، أو ماذا تريد الحكاية ــ أو الحدوتة ــ أن تقول . المهم أن تعود الأمور إلى ما كانت عليـــه فى بداياتهـــا ، والنهاية السعيدة مطلوبة فى الحكاية الشعبية بعكس مـــا تقدمـــه السيرة / الموال ، كما فى ياسين وبهية ، وأدهـــم الشـــرقاوى ، وشفيقة ومتولى . لقد ماتوا فى الواقع القريب ، فتقبـــل التصـــور موتهم فى الحكاية المروية ، وإن بدوا كأبطال الأساطير ، والنهايـــة التى ألفناها لكل الحواديت التى استمعنا إليها من جداتنا هـــى أن بطلى الحدوتة تزوجا فى النهاية ، وأنجبا صبية وبناتاً ، وعندما بدّل الحاوى فى قصة عز الدين المدنى " خرافات " من النهايـــة الـــتى اختارها لحياة الإمام على بن أبى طالب ، فإن الملتفين حوله ثـــاروا

عليه ، بحيث اضطر إلى تكذيب روايته ، وتأكيد الرواية التى يعرفونها جيداً (عز الدين المدنى : خرافات ــ الطبعة الأولى)

وإذا كانت السيرة الشعبية تتناول ــ فى الأغلب ــ بطلاً تاريخياً حقيقياً ، وأحداثاً تاريخية حقيقية ، فإن الوجدان الشعبى قد أضاف إلى الأبطال الحقيقيين ، والأحداث التاريخية الحقيقية ، بما أعاد تشكيل البطل ، والحدث ، على الصورة التى يريدها ، أو يتمناها . وكما يقول أستاذنا أحمد أبو زيد ، فإنه " كثيراً ما يمتزج القص التاريخى بالحكى الخيالى فى الأعمال الأدبية الشعبية ، ويرتبطان معاً فى وحدة عضوية يصعب التمييز فيها بشكل قاطع بين مختلف المكونات الواقعية والخيالية ، أو حتى الأسطورية " (عالم الفكر ــ يونيو ١٩٨٦) . بل إن بعض الشخصيات التى قدمتها السير والحكايات الشعبية ، يشك فى وجودها ، مثل المهلهل ، وسيف بن ذى يزن ، وذات الهمة ، وحمزة البهلوان . كما حرصت السير الشعبية على تأكيد دور المرأة بما يصعب إغفاله ، فثمة أسماء المقدم دليلة وشجر الدر وفاطمة أم على الزيبق وخضرة الشريفة وسعدى وعالية والسفيرة عزيزة وذات الهمة وشيحا والجازية إلخ . وعموماً ، فإن " التناقض التاريخى أمر شائع

فى الآداب الشعبية ، ذلك أن الذى يعنى المبدع الشعبى هو التجربة التاريخية والمغزى المستفاد منها ، ومن ثم كان دائماً تلاشى أو غياب الزمان والمكان بمعناهما التاريخى والجغرافى ، وكان أيضاً الجمع بين المتناقضات " (محمد رجب النجار : حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى ـ عالم المعرفة ـ ص ٤٥) .

السيرة الشعبية ـ شأنها شأن الموروث الشعبى ـ يضاف إليها بتوالى الأعوام ، وتجرى تعديلات ، حذف وإضافة . يساعد على ذلك أن السيرة الشعبية شاعر أو محدث من جانب ، ومتلقون من جانب آخر ، وعلى الشاعر أو المحدث أن يستجيب إلى رغبات المتلقين فى الإطناب أو الإيجاز " أو حتى على الحذف والتبديل فى نص القصة " (الظاهر بيبرس - ٣٤) . وكما يقول ا . ل . رانيلا فإن عملية صنع البطل لا بد أن تبدأ من الشعب . الشعب هو الذى يقبل أو لا يقبل ، وهو الذى يذيع أو لا يذيع حكايات عن أبطال بارزين معروفين لديه (الماضى المشترك بين العرب والغرب ١٢٩) . وفى " أثناء عملية صناعة البطل تتسع حقائق حياته التاريخية التى تمثل القاعدة التى يبنى عليها نموذجه عبر سنوات كثيرة ، لكى تتشاكل مع النماذج المقولية البطولية المألوفة

والمعدة من قبل . وهذه النماذج مألوفة لدى الشعب من خـــلال موروثه الشعبى " (المصدر السابق) . فهو " البطـــل العظيـــم ، والمحارب من أجل خير الناس " (المصدر السابق ١٢٨) . وربمـــا أضافت السيرة شخصيات غير حقيقية ، وأحداثا لم تقع بـالفعل ، لتحقيق الدلالة التى يستهدفها الوجدان الشعبى من صياغة السـيرة. أضافتها فى توالى العصور ، وعبر نوعيات مختلفة من الحكام . ثمـة من يشترط على كاتب الرواية التاريخية ألا يتصـــرف فى تغيـــير الحوادث ، أو الأزمنة التاريخية ، لكنه لا يرفض ذلك فى السـيرة الشعبية، فقد يكون لها أساس تـــاريخى ، لكنــها تتصــرف فى الحوادث التاريخية تصرفا واسعا ، يخضع لظروف رواية السـيرة أو الحكاية أو الوقائع التاريخية (مجلة جامعة الإمام محمد بن ســـعود الإسلامية العدد الأول ـــ ص ٢٩٦) . وبتعبير آخر ، فإن السيرة الشعبية ، الحكاية ، الوقائع التاريخية تمثل ـــ فى تقدير البعـــض ـــ " الكتابة الشعبية للتاريخ العربى " (علـــى فــهمى - المصـرى والسلطة ـــ فكر ـــ فبراير ١٩٨٥) . وقد قسم كلوت بــك فى كتابه " لمحة عامة إلى مصر " رواة السير إلى فرق تختص كل فرقـة برواية إحدى السير . فثمة رواة للسيرة الهلالية ، ورواة لســـيرة

الظاهر ، ورواة للسيرة العنترية . وعندما كانت الغلبـــة للســـير الشعبية ، قبل أن تظهر الحكايات الشعبية والمواويل : بهية وياسين وحسن ونعيمة وشفيقة ومتولى وأدهم وسعد اليتيم الخ . وقبل أن تظهر كذلك وسائل الإعلام من إذاعة وتليفزيـــون ، وانتشـــار للصحيفة، كان فى القاهرة وحدها خمسون شاعراً ــ والــ " كان " لأن ذلك اختفى الآن ! ــ تقتصر روايـــاقم علـــى الســـيرة الهلالية، ويسمون " الشعراء " أو " الهلالية " ــ أذكرك بالمسكين شاعر قهوة زقاق المدق ! ــ وكان بعض الرواة يلقـــى ســـيرة الظاهر بيبرس ، ويسمون " المحدثين " أو " الظاهرية " ، ويـــروى البعض سيرة عنترة ، ويسمون " العنترية " أو " العناترة " . والحق أن رواية السيرة ليست مجرد مهنة ، ليست مجرد ارتزاق ، لكـــن السيرة تختار ناسها، من يروونها ، فهم ــ كمـــا يثقـــون ــ " مضروبين بالسيرة " ، وهو ما يشير إليه صديقى عبـــد الرحمـــن الأبنودى (نقلاً عن " إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية).

فى روايتى " زهرة الصباح " كانت السير الشعبية بعداً مهماً فى السياق الروائى : سيرة عنترة ، والظاهر بيبرس ، والهلاليـــة ، ومار جرجس ، وغيرهم ممن أنشد الرواة سيرهم ، وتناقلها الناس،

وظلت جزءاً من التكوين الثقافى الجمعى المصـــرى ، إلى بدايـــة انتشار الوسائل الإعلامية الحديثة ، مثل الراديو والتليفزيون إلخ ..

وقد أخضع انتقال السيرة من منطقة إلى أخرى ، لتحويـــر يناسب ثقافة كل منطقة ، وهمومها الاجتماعيـــة والسياســية ، وتطلعاتها ، وإن ظلت السيرة محتفظة ـــ أو هذا هو المفـــروض ـــ بسماتها الأساسية . ومع الترديد المستمر " يكون النص عرضـــة للتغيير الذى يتدخل فيه بشكل أو بآخر ، المبدعون الذين يعـــدّون بمثابة أجهزة استقبال حساسة لمتغـــيرات العصـــر واحتياجـــات الجمهور النفسية والاجتماعية ، وما تتطلبه هذه المتغيرات وتلـــك الاحتياجات من تشكيلات جديدة ، ووسائل فنية جديـــدة " (المقومات الجمالية للتعبير الشعبى ـــ ٦٨) . وربما اكتفـــى راوى السيرة بإحداث تغييرات فى الحركات والإيماءات ونبرة الصـــوت ، وطبقة الصوت وإيقاعه ، ودرجة النغم ، لكنه يرضخ لتوقعـــات المتلقين ، فيضيف إلى النص الذى حفظه مـــن رواة ســـابقين ، ويحذف ، بما يحافظ على العلاقة بينه وبين المتلقين ، فهو يخـــالف بذلك وجهة النظر الأكاديمية التى ترى ضرورة أن ينظر الراوى إلى المواد التى يمتلكها على أنها تراث جدير بـــالاحترام ، ولا يجـــوز

التغيير فيه " (أحمد مرسى ـــ مقدمة فى الفولكلور ـــ دار الثقافة للطباعة والنشر ـــ القاهرة ١٩٨١ ـــ ص ١٤٥) . لنا أن نتصور الرواة الشعبيين ـــ فى توالى الأعوام ـــ يضيفون ويحذفون، ويخضعون فى رواياتهم عموماً لما يصر عليه الجمهور المتلقى من تبديل وتحوير بما يخدم المعنى الذى يريده ، والهدف الذى يريد الوصول إليه . قام بذلك رواة كثيرون ، وتلاهم بالتبديل والتحوير رواة آخرون كثيرون ، واختلط بتوالى الأعوام ، وبتوالى الحذف والإضافة والتحوير والتبديل ، ما هو واقع بما هو خيال ، واختلطت الحقيقة بالوهم ، والمتاح بالمثال ، وإطلاق التصور بالواقعة التاريخية ، وما بين ذلك كله تغيرت ـــ بالطبع ـــ شخصيات وأحداث ، وإن ظلت السيرة محتفظة بتسميتها ..

ولعلى أضيف إلى القول بأن الامتداد التاريخى للبطولات الإسلامية يؤكد مدى انشغال الذاكرة الشعبية بالنموذج البطولى، إلى درجة أنها لم تكف عن إنتاجه منذ عصر الرسول (ص) حتى العصر المملوكى (نبيلة ابراهيم ـــ مقدمة البطولات العربية والذاكرة التاريخية)أضيف بأن ذلك ما استمر إلى العصر الحديث..

البطل الجمعى رمز كبير (المصدر السابق ١٠٤) . البطل الشعبى القومى نسيج من الوجدان الجمعى (المصدر السابق ١٥٠).

لقد كانت سيرة الرسول (ص) هى البداية لكل السير التى تحمل بطولات إطارها العقيدة الإسلامية . بل لقد تواصلت سير العصر الجاهلى إلى ما بعد ظهور الإسلام بفترة طويلة . فقد امتدت سيرة الأميرة ذات الهمة إلى الحروب العربية الرومية . ومع أن سيف بن ذى يزن ملك يمانى جاهلى ، فإن الوجدان الشعبى جعله مدافعاً عن الإسلام ، ناشراً له . بدأ بالإرهاص للنبى ، والتنبؤ بميلاده ، والقبيلة التى ينتمى إليها ، والمنطقة التى يظهر فيها، ثم حارب دفاعاً عن الدين الجديد عقب ظهوره . أما عنترة بن شداد ، فهو ينتمى — بالتاريخ — إلى الجاهلية ، لكن الوجدان الشعبى أطال فى عمره ، وجعله مسلماً يطهّر الأرض من شرك الجاهليين ، ومن أفعالهم الشريرة ، حتى يمهد لظهور النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ان عنترة أشهر إسلامه بعد ظهور النبى ، وحارب إلى جانب الرسول ضد يهود خيبر ، وظل حياً فى حياة أبنائه وأحفاده ، يشاركهم الحروب والفتوحات لصالح دولة الإسلام . حتى الصين وصل إليها ، ولم يرحل عن دنيا البشر إلاّ

أيام الحروب الصليبية . منحه القيصر جارية إسمها " مريم " ، ثم مات على ملّة الإسلام .

***

وإذا كانت شخصية الرسول وبطولاته ، هي النموذج الأعلى للبطولات المثالية التي حاولت البطولات القومية بعد ذلك أن تحتذى بها (المصدر السابق ص١٧) فإن الحسين يحتل في الوجدان المصرى بعامة ، والوجدان الشعبي بصفة خاصة ، مكانة تفوق مكانة الحسن ، شقيقه الأكبر . إن مأساة استشهاد الحسين تستدعى إلى الذاكرة الشعبية ــ وإن لم تلحظ هي ذلك ــ أسطورة أوزوريس ، الذى قتله عمه ست . وكان أوزوريس هو الراعى الحكيم الذى حرر الناس من الهمجية ــ بعد جلوسه على العرش ــ وعلمهم الزراعة ، وسن لهم القوانين ، وحثهم على الإيمان الديني واحترام الآلهة . وقد نسب المصريون القدامى أوزوريس إلى الآلهة ، وجعلوه رئيساً لمحكمة العالم السفلى التي تقضى بالجزاء الحسن لمن أحسنوا في دنياهم ، والجزاء القاسى لمن أخطأوا ..

السيرة الشعبية ــ على نحو ما ــ حلم شعبي بالتاريخ . أو بمعنى أدق ، حلم شعبي لصياغة ما حدث في الواقع بالفعل ، في

ضوء ما كان يجب أن يحدث . ومن هنا ـــ فيما أرى ـــ يـــأتى الحذف والإضافة ، والأحداث غير الحقيقية ، والمختلقة . وعلـــى سبيل المثال ، فإن سيرة حمزة البهلوان لا تعكس أحداثاً حقيقيـة ، بقدر ما تعبر عن تطلع إلى السيادة وتحقيق النصر ، فقد فتح حمـزة قلاع الفرس واحدة تلو الأخرى ، وحاصر مدنهم ، وأسر ملكـهم كسرى أنو شروان ، ثم عفا عنه .. ذلك كله غير صحيح تاريخياً، لكنه صحيح فى رواية الفنان الشعبى (أبو الحسن على بن الأثـــير الجوزى : سيرة حمزة البهلوان المجلد الرابع ـــ ج ٩ ص ٣٠٨).

ويشير محمد رجب النجار إلى العداء التقليدى القديم ، بـين القوى السياسية والعسكرية والدينية من ناحية ، والإبداع الشـعبى من ناحية أخرى (من أبحاث الملتقى العربى للفنون الشـــعبية ـــ ١٩٩٤ ـــ الجزء الثالث) . ولأن جمـــهور الســـيرة الشـــعبية ، والحكاية الشعبية ، والوقائع التاريخية ، وأصحاب المصلحة فيـــها ـــ والقول لمحمود ذهنى ـــ هم عامة الشعب ، " فإن الراوى عادة ما يحاول الوفاء بالحاجات النفسية والوجدانية لهـــم ، ويقـــدم فى روايته المادة التى تشبع هذه الحاجات ، وترضى الجمهور ، فيصور بطلاً من أبناء الشعب يحمل كل الصفات التى يحـــب العامـــة أن تكون فى زعمائهم . كما يحوّر الشخصيات التاريخيـــة الحقيقيـــة

بالشكل الذى يوافق الرؤى والآراء الشعبية فى تلك الشـــخصيات على نحو ما هو واضح فى سيرة الظاهر بيبرس على سبيل المثال " (من أبحاث الملتقى العربى للفنون الشـــعبية ـــ ١٩٩٤ ـــ الجـــزء الثالث) . ولا يخلو من دلالة أن السيرة البيبرسية بدأت بعـــد أن سقطت مصر فى قبضة الحكم العثمانى ، وانتقلت عاصمة الإسلام إلى القسطنطينية . فالظاهر بيبرس هنا يمثل " الحلم " فى الوجـــدان الشعبى ، يمثل التطلع إلى قهر المغتصب ، واسترداد الذات . بل إنه إذا لم يجد الوجدان الشعبى أبطالاً تاريخيين من رجـــال الحكـــم والحرب والفكر وعلماء الدين والمتصوفة ، فإنـــه يخلـــق هـــؤلاء الأبطال ، ويتركهم إرثاً للأجيال التاليـــة تضيـــف إلى ســـيرهم وحكاياهم .. والمثل الأقرب هو سعد زغلـــول . زعيـــم ثـــورة ١٩١٩ ، الذى فاجأته الثورة وهو فى منفاه . لم يكن أعد لهـــا ، ولا خطرت له تطوراها ، وكان غاية ما يسعى إلى تحقيقـــه هـــو الحصول على وعد الاستقلال بالوسائل السلمية . كان القبـــض على سعد زغلول ، ونفيه إلى مالطة ، بمثابة إزاحة الستار عـــن " البطل " الذى لم يكن أعد نفسه لأداء ذلك الدور . كان الـــدور من اختيار الشعب الذى أضفى على سعد زغلول كل مقومـــات الزعامة . وزاد عليها خوارق وأعاجيب أشبه بما ينســـبه مريـــدو

الصوفية إلى أوليائهم . البطل هنا صنعه الشعب ، هو الذى اختاره ، ووضعه فى موضع البطولة ، وعمّق من بطولته بحكايات ينتمى أقلها إلى الحقيقة ، وينتمى أكثرها إلى الخرافة . لقد تحول سعد زغلول إلى شخصية أسطورية تنتسب إلى عوالم أبعد ما تكون عن الواقع التاريخى المصرى فى أبعاده الحقيقية لدى كل من الإنسان والزمان ذاته (عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية من ١٩١٤ حتى ١٩٢٧) . وأستعير القول إن " الوجدان الشعبى يرى فى إبداعه تاريخاً شعبياً ، ينتخب أبطاله من بين أعلام التاريخ . وليس من الضرورى أن يكونوا من أبطال الحرب . حسبه أن يشتهر هذا البطل أو ذاك فى بيئة أو طبقة أو عصر ، شريطة أن يرى فيه المثال أو النموذج الذى يطمح إليه " (حكايات الشطار والعيارين ص ٣٢١) .

عنتـــرة

إن كنت عبداً فروحي حـــرة خُلقت

أو أسود اللـــون فالهندى لى حسب .

وفى اللقـــا عنتـــر العبســـى تعرفنى

وصارمى من دم الأبطال مختضـــب

وفى الوغى أهزم الأبطـــال قاطبـــة

وأترك الدم فى الهيجـــــاء ينكسب

لست أدرى مدى صحة الرواية التى تقول إنه قد حدثت ربية فى قصر العزيز بالله [الفاطمى] فتناقلتها الأفواه ، ورددتها الأندية ، فطلب العزيز إلى شيخ القصاص آنذاك يوسف بن اسماعيل ، أن يلهى الناس عنها بما هو أروع منها . فوضع قصة عنترة ، ونشرها تباعا فى اثنين وسبعين جزءا ، سمرت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين إلى اليوم (ابن النديم : الفهرست ـــ طبعة فلوجل ـــ ص ٣٠٤)

عنترة ـــ فى معاجم اللغة ـــ تسمية تطلق على الذباب الأزرق ، وهى ـــ فى رأى آخرـــ الصخرة السوداء المنحدرة من عل بقوة وسرعة ، وهى ـــ فى رأى ثالث ـــ الشجاعة وتحدى المخاطر . والعنترية ـــ فى لغة الجماعة الشعبية ـــ هى التصرفات الفردية التى تنطوى على الجرأة والإقدام ، و " عنتر " تقال لمن يعلن تحديه للمخاطر دون تدبر ، ويقال ـــ من قبيل الاستخفاف ـــ " عامل لى عنتر " ..

تجد سيرة عنترة بدايتها فى أسر رجال قبيلة عبس عدداً من محاربى بنى جديلة ونسائها . وحين شرعوا فى تقسيم السبايا والغنائم ، اختار شداد المرأة السوداء زبيبة هى وولديها جرير وشيبوب . وأنجبت زبيبة من شداد ابنا أسود البشرة ، وإن كان يشبه فى ملامحه أباه شداد . وعمل عنترة — فى صباه — راعياً للماشية ، ثم لفت الأنظار إليه بفتوته وشجاعته ، حتى إنه قتل ذئباً كان يطارد الشياه ، ولم يكن عنترة قد جاوز التاسعة ، ثم قتل بعد ذلك أسداً ، واشتهر بأنه يرمى الرمح دون أن يخطئ الهدف ..

عنترة — فى كتابات المؤرخين — أخذ السواد من أمه ، وأخذ حب الفروسية من أبيه ، فهو ابن " زبيبة " أمة شداد بن قراد ، سيد بنى عبس . لكن النظرة إليه اقتصرت على أنه عبد ، وأهملت نسبه إلى أبيه . كان المجتمع بدوياً وقبلياً فى آن . وكانت العصبية القبلية تقوم على الانتساب إلى أب وأم حرّين — لا يشوب نسبهما ظلال — من ذات القبيلة .. تلك كانت مأساة عنترة ..

أما كيف رأى عنترة حبيبته عبلة للمرة الأولى ، فتقول الرواية إنه كان من واجبات عنترة أن يقدم لبن الجمال — بعد تبريده فى الهواء — إلى نساء أبيه ، ونساء القبيلة بعامة ، فى الصباح ، وفى المساء . وذات صباح ، دخل عنترة خباء عمه ، فرأى أم عبلة تمشّط لها شعرها الناعم الطويل ، فوقعت فى نفسه موقع الإعجاب ، وهو ما عبر عنه فى قوله [لاحظ أن الشعر يمثل مصدراً مهماً فى سيرة حياته] :

وجناء تسحب شعرها من طوله ... وتغيب فيه وهو ليل أسحم
فكأنها فيه نهار طالع ... وكأنه قد بان ليل مظلم
وكأنه بدر بدا فى تمه ... وبنوره الوهّاج تخفى الأنجم
ظادت محاسنها على من حولها ... فسعى لخدمتها الجميع ويمموا
وتمتعوا بجمالها وكمالها ... وتلذّذوا فى حسنها وتنعموا
لا تعذلونى فى هواها إننى ... مضنى وقلبى فى هواها متيم
إنى سأكتم حبها فى مهجتى ... حتى أرى لى السعد يوما يخدم

(السيرة ١ ص٨٩)

وكانت أولى المعارك التى خاضها عنترة دفاعاً عن عبلة ، وعن حبه لها — كما تروى السيرة — حين " خلا الحى من الفرسان ، وتخلفت البنات والنسوان والعبيد والغلمان ، صنعت

سميّة زوجة الأمير شداد وليمة للنساء على غدير ذات الأرصاد ، وذبحت فيها الأغنام وزرجت الطعام ووقت المدام ، وغنت بها الجوارى والمولدات ، وحملت الإماء والعبيد الآلات ، ورقصت البنات العربيات ، وكان عنترة من جملة الغلمان ، وهو بهذا القصد فرحان ، لأن عبلة كانت من جملة البنات والنسوان ، وقد خرجت وهى تزهو بينهن كأنها الغزال العطشان ، وعليها الحليّ والحلل المختلفات الألوان " .. " وقد أخذت النسوان فى شرب المدام واللهو والطرب حتى كاد البر بهم يلعب ، وإذا هم بخيل طلعت عليهم من بين الجبال فتبينوهم ، وإذا هم مائة فارس من قحطان قد أدركتهم على الغدير وقصدت النسوان ، فساقوا الجميع بالذل والهوان " (السيرة م١ص١٠٠)

اندفع عنترة — بالحب — يدافع عن حبيبته ، ويستنقذها من الأسر ، وطرح الفارس الذى أسر عبلة أرضاً ، واستولى على سلاحه وحصانه ، ثم مال نحو بقية المهاجمين ، فاستطاع — بيد واحدة — أن يقتل بعضهم ، ويدفع الباقين إلى الفرار . كانت تلك أولى المعارك التى خاضها عنترة . وحين سمع الملك زهير بما فعله عنترة ، أثنى عليه ، وخلع عليه رداء الشرف ، وتعددت — فيما بعد — المعارك التى كان عنترة طرفاً فيها . وتقديراً لبطولته ،

أجلسه الملك بجواره ، وأمر أباه شداد ألا يستخدم ابنه بعد ذلك في حراسة الجمال ، بل ويتيح له موضعاً ـ يستحقه ـ بين فرسان القبيلة ..

لم يعد عنترة يخوض المعارك لمجرد أداء واجب ينبغي عليه أداؤه ، وإنما كانت عبلة في عينه وتصرفاته . كان يريد أن يرتفع فوق ظروفه القاسية ، فيصبح جديراً بحب عبلة ، وجديراً بأن يقترن بها ..

كان الوصول إلى عبلة ـ ابنة عمه ـ هدفاً مستحيلاً ، لكن عنترة جعل المستحيل ممكناً بما أضافه إلى نفسه : الشعر والفروسية والجسارة في القتال ، فكانت المفاتيح الذهبية لباب المستحيل ، العبودية ..

الشاعر يقدم نفسه إلى محبوبته بالقول :

سلي ياعبْل قومَكِ عن فِعَالي ... ومن حَضَر الوَقيعة والطِّرادَا

وَرَدْت الحربَ والأبطالُ حولي ... تَهزُّ أكفُّها السُّمْرَ الصِّعَادَا

وخُضْتُ بمُهجتي بحر المنايا ... ونارُ الحرب تَتَّقِدُ اتِّقادَا

وعُدْتُ مَخَضَّباً بدمِ الأعَادي ... وكرْبِ الرَّكْضِ قد خضَب الجوادا

كانت قبيلة بنى عبس من أشهر قبائل العرب . وكـــانت تسكن منطقة نجد بين جبلى أَبان الأبيـــض وأَبـــان الأســـود ، ويجاورها من الشمال والغرب بنو أسد ، ومن الشرق بنو تميـــم ، ومن الجنوب بنو عامر . وقد فرضت المكانة التى احتلتها عبـــس بين بقية القبائل ، فرضت تلك المكانة عليها أن تخوض سلاســـل من الحروب ، تأكيداً للمكانة المتميزة من ناحية ، والاستيلاء على مصادر الرزق من ناحية ثانية ..

كان النسب القبلى ، العائلى ، الأسرى ، هو مبعث فخار الشاعر الجاهلى . وكان عنترة شاعراً متفوقاً ، وإن لم يكن بوسعه أن يفخر بانتسابه " الإنسانى " ، فاختار السيف نسباً . وهو مـــا انتزع به حقه فى النسب الإنسانى حين اعترف أبوه ببنوته ..

اللافت أن عنترة لم يخرج على قبيلته ، تمرداً على وضعـــه فيها ، لكنه أحب ، وناضل ، دفاعاً عن حبه ، وعـــن حقـــه فى الحرية والمساواة ، بالشعر والسيف والتصرفات التى تخلـــو مـــن الرعونة والشطط . أراد أن يقدم ـــ من كلماته وأفعاله ـــ ما يهبه الحق فى الفوز بالفتاة التى أحبها ، وفى الحصول على المكانة الـــتى يرى أنه الأجدر بها . وحين سئل عنترة : هل أنت أشجع النـــاس

؟.. قال فى صراحة وبساطة : لا . سئل : فلماذا شاع هذا الأمر بين الناس ؟. قال : رجل فى هول الموقف يدرك طبيعة الموقف . كنت أقدم إذ رأيت الإقدام عزماً ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً ، ولا أدخل موضعاً لا أرى منه مخرجاً . وكنت أعتمد الضعيف الجبان ، فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع ، فأثنى عليه ، فأقتله ..

إنه هنا بشر ، يعانى مشكلات البشر ، وفى داخله نقاط الضعف والقوة مثل كل البشر ، وإن أحاط ذلك كله بشخصية تجيد التفرقة بين الصواب والخطأ ، وما ينبغى وما لا ينبغى فعله ، والوقت الأنسب للفعل مقابلاً للوقت المناسب للزوم الصمت ..

رفض عنترة أن يكون عبداً ، ورفض أن يمارس أعمال العبيد ، مثل الرعي والحلب والصّر والخدمة ، وأقبل على تعلم فنون الفروسية ، وكان تعلمه بعيداً عن أعين سادة القبيلة حتى لا يؤاخذوه على ما يفعل ، باعتبار أن الفروسية محرّمة على العبيد ..

حقق عنترة ذاته إذن بأكثر من وسيلة : بالحب ، وبالشعر، وبالفروسية . ففى حبه ــ وهو العبد ــ لعبلة ابنة عمه الحرة ، محاولة لتجاوز وضعه الطبقى ، وتأكيد ــ من ناحية ثانية ــ على

مبدأ المساواة الذى أتى به الإسلام. وقد أحسن عنترة تقديم نفسه فى معلقته الشهيرة ، فهو لا ينازل إلاّ خصماً يكافئه قوة وشجاعة وكرم محتد ، وهو يعف عند توزيع المغانم والأسلاب ، والعلاقة بينه وبين جواده أقوى من أية علاقة أخرى. كان مهره " الأبجر " كأنه الليث القشعم يشبه لون الظلام ، أو كأنه قطعة من الغمام . همّته همّة يقظان ، وخفّته خفّة غزلان ، وصهيله جرس ، وقوائمه كأنها حرس ، وعيناه ياقوتتان، ويداه جناحان (السيرة م ا ص ١٣٦) . أما سيفه ، فطوله ذراعان وعرضه شبران ، وصنع من معدن ثقيل ، وكان مثل الصاعقة . وحين التقى عنترة بطرفة بن العبد ، قال له:" يا أبا الفوارس . ما أنت إلاّ قد كملت بالشجاعة ، لكن بلغنى أنك رجل معلول النسب ، ولولا ذلك كنا قبلناك وسمعنا ما قلته من شعرك ، وفى فصاحتنا أدخلناك " والشاعر يحصل فى قبيلته على مكانة متفوقة . أما الفروسية فهى وسيلته لخوض حروب قبيلته ، والانتصار لها . بل إن مجرد تعلم الفروسية لا يعنى شيئاً ما لم يتبعه براعة فى القتال، وقدرة على خوض المعارك دفاعاً عن القبيلة التى طلب ــ باعتباره حراً ــ أن ينتسب إليها ..

لقد أمدّه السيف بجسارة فى إلقاء الشعر ، وأمده الشعر بجسارة فى مصارحة عبلة بحبه . وقد مزج بين الحرب والحب فى قوله :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وبلغ غضب عمه مالك — والد عبلة — على عنترة حد التحريض على قتله . وخافت الأم زبيبة على ابنها ، فاستبدلت بتحريضها له مناشدة أن يرجع إلى عمله القديم فى رعى القطعان والجمال ، فلا يعرض حياته للخطر ، ولكن عنترة أصر على أن يواصل طريقه ، وطالب أمه بأن تظل على اعتزازها بابنها . وقد أعلن شداد رغبته — أكثر من مرة — فى رفع شأن غيره ، لكن أخاه " مالك " كان يرفض ذلك . وكان يهدد بأنه سيهجر القبيلة إذا ما رفع شداد ابنه عنترة فوق مستوى العبيد . وظل مالك يرفض قران عنترة وعبلة ، وظلت مؤامراته ضد عنترة بالتالى ، لا ينجو عنترة من واحدة ، حتى يدفع إلى أخرى . وفى الوقت الذى كان عنترة يرعى الأغنام والجمال — أعاده إلى ذلك أبوه شداد ! — فإن أمه أحضرت له رسالة من عبلة تقول فيها

للأم : " طمئنى قلب ابن عمى عنترة ، واخبريه أنه حتى لو وصل الأمر بأن يجعل أبي قبرى مكاناً لراحتى ، فلن أرغب إلاّ فيه ، ولن أختار غيره " . وحين خاضت قبيلة بنى عبس حرباً مع قبيلة طَيِّئ باعثها الثأر ـــ وشارك عنترة فى الدفاع عن نساء قبيلته وأطفالها ، لكنه لم يشارك فى الهجوم ، لأن سادة القبيلة ألفوا أن يمنحوه نصيب العبد فى غنائم الحرب التى تخوضها . وظل عنترة على موقفه كمدافع . وعندما دعاه أبوه شداد أن ينتقل من الدفاع إلى الهجوم ، فقال عنترة : يا سيدى .. أنا عبد .. والعبد لا يُحْسن الكَرَّ ، وإنما هو يحسن الحلبْ والصرَّ..

وعلى الرغم من المناشدات التى أسرف فيها شداد لكى يبدل عنترة موقفه ، فإن عنترة رفض أن يشارك فى الهجوم ما لم يعترف أبوه ببنوته له ..

ولم يعد أمام شداد إلاّ أن يصيح :

ـــ يا ولدى كرّ وأنت حر ..

وصاح عنترة :

ـــ ماذا تقول ؟..

قال شداد :

ـــ أنت ولدى .. والعبد من يقول بغير ذلك .. كُرّ وأنت حر ..
واندفع عنترة إلى القتال وهو يهتف :

أنا الهجين عـــنـــتـــــــرة كل امـــــــــرئ يحمى حُرَهْ
أســـوده وأحـــمـــــره والشعـــرات المُشْعـــــــــره
الوردات مِشْفره

والحق أن عنترة لم يحقق شرفه / حريته ، بمجرد إعلان أبيه نسبه إليه ، وإنما حقق هذا الشرف / الحرية بفروسيته ، وبراعتـــه فى القتال ، وجسارته ، وشعره . قدم الدليل على أن الفرد المخلّط يمكنه أن يحقق مكانة من يحمل دماً عربياً نقياً (الماضى المشـــترك بين العرب والغرب١٣٠) .

مع ذلك ، فإن عنترة لم يبلغ هدفه فى النهاية . ثمة روايـــة أن أبا عبلة – عمه مالك – قد زوجها بغيره ، ورواية أن " مالك " – على الرغم من أنه كان قد أقسم أن يزوج ابنته من عنـــترة إذا ما أنقذها من الطائى الذى كان قد أسرها ، فإنه لم يحافظ علـــى قسمه ، وتظاهر بالرغبة فى أن يزوج ابنته بالفعل من عنترة ، لكنه دبر ـــ فى الوقت نفسه ـــ خطة يواجه فيها عنترة الموت . اشترط

على عنترة أن يكون مهر عبلة ألفاً من النوق العصافير التى يمتلكها المنذر بن ماء السماء ، ملك العرب ، وهو من أتباع كسرى أنو شروان ملك الفرس وكان مالك على ثقة من أن عنترة لن يعود سالماً ، بينما وجد عنترة فى طلب مالك فرصة لمغامرة جديدة ، مثيرة ، وكاد عنترة يدفع عنترة حياته ثمناً لتنفيذ هذا المطلب التعجيزى ، وإن ذهبت رواية أخرى إلى أنه بعد أن أفلح عنترة فى قطع حبال ألف من النوق العصافير ، فاجأه رجال المنذر ، تكالبوا عليه فأسقطوه من على " الأبجر " ، ورأى شيبوب أخاه يسقط ، فظن أنه قتل ، وعاد إلى مضارب عبس ليخبرها الرأى . حُمل عنترة فى وثاقه إلى الملك المنذر الذى سأله من أين جاء . قال عنترة إنه ينتمى إلى قبيلة بنى عبس النبيلة . سأله الملك : هل أنت أحد محاربيها أو أحد عبيدها ؟ قال عنترة: إعلم أيها الملك أننى أنا الليث الهمام والبطل الضرغام ، الضارب بالحسام ، الصابر تحت القتام . أنا طبيب عبس إذا مرضت ، وحاميها إذا زلت ، وحافظ حريمها إذا ولت ، وشجاعها إذا ابتدرت (السيرة م ص ٢٣١) ، وروى للملك مغامرته التى قادته إلى الأسر . وأبدى الملك دهشته من أن يعرض رجل نفسه للخطر من أجل فتاة . فقال

عنترة : " نعم يا مولاى ، فإن الهوى يحمل الإنسان على ركوب الأخطار والأهوال ، ومن أجله تضرب أعناق الرجال ، ولا يقدر العشاق إلاّ من ذاق مرارة هجر الوصال ، وما يوقع فى البلاد فى سائر المواضع إلاّ النظر لما تحت البراقع (السيرة ١ ص ٢٤١) .
وظفر عنترة بالنوق الألف . منحه إيّاها الملك المنذر بعد أن خاض تحت رئاسته معركة ضد جيش الفرس " من أجل عينى عبلة أقتلل عباد النار اللئام ، أولاد الحرام " (السيرة ١ ص ٢٥٣) . ثم خاض عنترة حرباً جديدة ــ ضمن قوات كسرى أنو شروان هذه المرة ــ ضد البدرموط فارس الديلم الشهير ، وتمكن من قتله ، ثم نازل رستم المصارع المشهور فى بلاط كسرى ، فانتصر عليه " ضرب به الأرض ، فرضّ عظامه أقوى رض ، فلم يدع له طولاً يعرف من عرض ، فمات لوقته وساعته " (السيرة ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١) . وعاد عنترة ــ أخيراً ــ إلى بلده ، يصحب مائة ألف دينار كسروية ذهب باسم الملك العادل ، ومثلها كسروية ذهب باسم قيصر ، ومثلها من الفضة ، وألف ثوب من الديباج ، ومن سائر الأصناف ، وألف ثوب منسوجة بالذهب الوهاج ، ومن سائر الحلى والحلل . كذلك عشر سرادقات كبار ، وما يحتاج

إليها من بسط وفرش وغير ذلك بصناديقها وبغالها ، ومائة عبد وخمسين مملوكاً بملبوسها ولامتها وسيوفها ورماحها وجميع آلة حربها وكفاحها " (السيرة م ١ ص ٢٩٤)

وإذا كانت بعض الروايات تشير إلى أن حب عبلة ظل مقيماً فى قلب عنترة وظل خيالها وذكرياتها فى خياله ، لم تبرحه حتى ودع الحياة .. وأن ذلك الحب المستحيل هو الذى أملى على الرواة سيرة عنترة ، أو عنتر وعبلة فى الموروث الشعبى ، بتوالى الروايات ، وتعددها . يلخص مأساة فروسيته وحبه فى قوله لصديقه الأمير مالك " يا مولاى ما حملنى على هذا إلا الهوى " (السيرة م١ص١٣٠)، فثمة رواية أن الملك قيس ــ اعترافاً بخدمات عنترة ــ أصر على زواج عنترة من حبيبته ، ووافق مالك " فى حرية تامة " [!] . لقد خاض عنترة عشرات المعارك ضد أعداء بنى عبس ، وقتل المئات من الفرسان ، لا لمجرد الدفاع عن عبس ــ تلك التى أساءت معاملته ــ وإنما ليفوز بقلب عبلة، فيقبله أبوها ــ مثلما قبلته ــ زوجاً لها . وأقيم حفل لم تشهد له القبائل مثيلاً له من قبل . وزاد الملك قيس ، فأمر بمنع العادة الغريبة المتوارثة التى كانت تتم فى حفلات الزفاف ، حتى لا

يتعرض عنترة لأذى أحد أعدائه فى جو المشاجرة الصاخبة ، ذلك لأنه " كان مذهب العرب فى ذلك الزمان عند زواجهم أنهم يلبسون العروسة الحلى والحلل والقلائد وما يقدرون عليه من المتاع والذهب والفضة ، ثم يعملون لها أقتاباً على الجمال بعضها فوق بعض ، حتى تبقى كالدكة العالية ، ويُقعدون العروسة على تلك الدكة ، فإذا جلست العروسة واستقر بها الجلوس ، فعند ذلك يلبس الرجال صدور الزرد النضيد ، ويتساوى الأحرار والعبيد ، وتضرب المولدات بالدفوف ، وتشهر الفرسان الرماح والسيوف ، ثم يقلن للعريس : تعال هناك عروسك . وعندئذ يندفع العريس ليحملها ، بينما يصطف شباب القبيلة عن اليمين وعن الشمال ، وبأيديهم الحجارة والهراوات ، ويأخذون فى ضربه ، ويحولون دون وصوله إلى عروسه قدر المستطاع . فإذا كسر له ضلع ، أو أصيب فى هذا الحفل ، فإن هذا يكون من حظه . أما إذا قتل فإن هذا يكون مصيره . وأما إذا نجح فى الوصول إلى عروسه فى سلام ، فإن الناس يتركونه ولا يحاول أحد الاقتراب منه " (السيرة م٣ص٢٣١) .

وقد امتد زواج عنترة وعبلة عشر سنوات قبل أن يقضى بسهم غادر ، رماه به بعض أعدائه . نفذ السهم فى جنبه الأيمن ، ثم تغلغل فى أحشائه ، و لم تصدر عن عنترة صرخة ولا أنّة ، فلا يليق بالبطل أن يظهر التألم . كانت دماؤه تختلط بدموع عبلة التى حاولت ــ عبثاً ــ أن توقف نزيف الدم . وقالت عبلة لشعوره باليأس : لماذا تفقد الأمل ؟.. أنت تتضجر من نبلة ، وأنت لا تهمك أسنة الرماح التى غطت جسدك بالجروح . وقال عنترة لزوجه وهو ممدد فى فراشه : " والله يا ابنة العم لقد وافانى الردى، وما بقى لى حياة بعد هذا أبداً. لقد كان سهم الخائن مسموماً " (السيرة م ٨ ص ١٧٢) . وتروى السيرة على لسان عنترة ، قوله لعبلة وهو يعانى حشرجات الموت : " واعلمى يا حبيبة القلب إنهم بعدى ما يبقون، كذلك بنو عبس لا يقدرون أن يحموك ، ولا يرعون لك جانب ، ولا يردون لك طالب ، ولا بد لك من قريب يحميك ومن الأعداء يقيك ، فهذه موتتى التى كتبت على . فيا ترى كيف تكون موتتك ؟.. ولكن يا ابنة العم اقصدى أحد الرجلين ، إما ابن الطفيل ، وإما ابن المهلهل الأمير زيد الخيل ، فإن أحدهما يحميك ، ويرد عنك الأعداء ويقيك ،

فاطلبيه لنفسك " .. وأضاف عنترة قوله : " يا ابنة العم أسـرعى واركبى حصانى والبسى درعى اليمانى ، واعتقلى برمحى وسنانى ، ويكون سوطى فى يدك ، واقصدى نحو بنى عبـس وعدنـان ، ويكون فى صحبتك الأمير مالك أبوك وعمرو أخوك . وإذا سرت فى البر والوديان ، فلا تعلمى أحداً من العربان . وإذا كنت علـى مثل هذا المعنى ، فلا يشك أحد فيك ويظنونك أنا ، فتهابك جميع العربان ، وتخاف منك سائر الشجعان " (السـيرة م٨ ص١٧٦) . وامتثلت عبلة لطلب زوجها ، فارتدت سلاحه الثقيل ، وعلّقت سيفه ، وحملت رمحه ، وامتطت صهوة جواده الأبجر ، بينما وضع العبيد عنترة ــ الذى كان يعانى لحظات الموت ــ فى محفة عبلة .

وظن ثلاثمائة فارس ينتمون لإحدى القبائل إنهم يستطيعون مهاجمة القافلة ، لكنهم أصاخوا السمع للهمسة المحذرة : إنه عنترة عبلة . انظروا هذا سلاحه ، وهذا فرسه الأبجر ، ومحفة عبلة الفـاخرة . دعونا نعود إلى خيامنا ، فلا نعرض أنفسنا لغضب هذا المحـارب الذى لا يقهر . ودحض شيخ من القبيلة هذه الملاحظة التحذيريـة بقوله : " إن هذا الجواد جواد عنتر ، والسلاح سلاح عنـتر ، إلا أن الرّاكب ، وحق من علا فاقتدر ، ماهو عنتر ، لأن القامـة والله

ما هى قامته ، ولا هذه الهمة همته ، فإن صدق حذرى و لم يخنّى زجرى ، فإن عنتر قد مات ، وما هذه إلاّ عبلة بنت مالك ، وابن عمها قد حلت به المهالك ، فسيروا قدامهم حتى نتحقق أمرهم " (السيرة م٨ص١٨١) . واستطاع الفرسان أن يتبينوا بياض وجه عبلة عندما رفعت مقدمة الخوذة لتجفف العرق المنبثق فى جبهتها . وسمع عنترة صوت أقدام الخيول المقتربة وصهيلها ، فأطلق صيحة الحرب التى كانت الصحراء تعرفه بها ، فقال أعداء عبس : " أسرعوا بنا نطلب الهرب والنجاة ، لأنها حيلة هذا الشيطان الذى ما يقاومه فى الدنيا إنسان ، ولا يطيق لقاء أحد من الشجعان ، وقد أخفى نفسه حتى ينظر من يتعرض لأهله ، فيسير إليهم ليخرب ديارهم ويمحق آثارهم " . ولاذ معظم الفرسان بالفرار ، فى حين ظل العدد الأقل يتابع القافلة من بعد . وبدل عنترة موضعه ، فوضع عبلة فى المحفة ، وامتطى صهوة جواده ، وتدرع بأسلحته . وواصلت القافلة سيرها إلى مدخل ممر ضيق ، وأتاح عنترة لمحفة عبلة كى تسبقه ، وظل وحده واقفاً عند مدخل الممر، وهو يعانى آلام الجرح والتسمم ، وحين اقترب منه أعداؤه ، أوقف جواده ، وغرس رمحه فى الأرض ، واستند عليه كما

يفعل المحارب الذى يهب جواده فرصة التنفس ، ثم وقف ســاكناً عند مدخل الوادى ..

* * *

تذهب بعض الاجتهادات إلى أن الأصمعى هــو كــاتب المادة التاريخية لقصة عنترة ، ثم استقى مؤلف السيرة تلك المــادة التاريخية ، وصاغها فى قالب روائى ، يجمع بين الأحداث التتاريخية والخيال . وبصرف النظر عما إذا كان مؤلف الســيرة العنتريــة شخصاً واحداً أم مجموعة أشــخاص ، فلاشــك أن " الحكايــة التاريخية " قد داخلها تبديل وتحوير وحذف وإضافة ، وتداخلت فى السيرة ــ من خلال اجتهادات الراوى وسعة خياله ــ امتــداد حياة البعض إلى مئات السنين ، وأرض العفــاريت ، وكــهف الساحرات ، وتأثيرات الفأل والطيرة والحسد والقدرة على قتــل الأسود ، والنسوة المسترجلات ، والتنبؤ بوســاطة النجــوم أو الرمال أو الأحلام إلخ .. وهو ما أنشده رواة السيرة العنترية علــى مر العصور ..

لقد دعت سيرة عنترة ــ فى عصر عربى قديم ــ إلى قيــم عرفها الغرب فى عصور قريبة ، مثل الحرية والعدالة والمســاواة ، والتى تشكل الأبعاد المهمة فى السيرة العنترية . إن الواجب يجــب

أن يقابله حق ، والعكس صحيح . وكان على عنترة أن يحصل على حقه فى الحرية ليقوم بواجبه فى الدفاع عن حرية قومه . وإذا كان القرآن الكريم قد أكد فى آياته أن البشر متساوون ، فإن سيرة عنترة تؤكد تساوى البشر بصرف النظر عن لون البشرة والأصل العرقى والمرتبة الاجتماعية ، فالإنسان هو إنسان . سيرة عنترة تنتصر لذوبان الفوارق الطبقية والجنسية ، فكلنا أولاد تسعة، وكلنا أولاد آدم ، وآدم من تراب ، فعنترة إبن الأمة الحبشية يحب ، ويتزوج ، عبلة بنت مالك أحد سادة بنى عبس . وهو الأمر الذى أصبح ـــ فى عصرنا الحالى ـــ محوراً للكثير من الإبداعات العربية ، سواء فى الرواية أو القصة القصيرة أو المسرحية أو الفيلم . إنه تطلع الطبقات الأدنى ، البسطاء من المواطنين ، لانتزاع حق الحياة الكريمة من أيدى الطبقات الأعلى . لقد أحبّه البسطاء ، لا لمجرد أنه كان فارساً وقوياً ومقاتلاً ، وإنما لأنه انتزع حقه فى المساواة مع بنى قومه . فرض عليهم حقوقه فى الحرية والمساواة والعدل ، حين طالبوه بأن يؤدى واجبه دفاعاً عنهم ..

ثمة حديث منسوب إلى الرسول (ص) يقول : " ما وصف لى أعرابى قط ، فأحببت أن أراه إلاّ عنترة " . هو حديث

معضل فى بعض التقديرات ، لكن الدلالة هى التى تهمنا . فـــإذا كان الحديث صحيحاً ، فمعنى ذلك أن شخصية عنترة وجـــدت من إعجاب الرسول ما يجعلها تعلن ذلك . فإذا كـــان الحديـــث منحولاً ، فإن واضعه بلغ به الإعجاب بعنترة حد نسبة حديـــث للرسول يحمل المعنى ، حتى لو كان الحديث مخترعاً . عنترة ليـــس شخصية عادية فى تاريخ العرب ، فأراد واضع الحديث أن ينســب الإعجاب به إلى شخصية غير عادية فى تاريخ العرب والإســلام ، هو رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

المؤكد أن حب عنترة لعبلة كان حافزاً مـــهما فى ســعيه لتغيير واقعه ، لثورته على وضعه الأدنى ، وعلى معاملته بلونـــه ، وليس بحظه من الفروسية والشجاعة .. فهل كان يتغير الحال لـــو لم يحب عنترة ابنة عمه ؟ هل كان يظل راضياً بالحيـــاة فى أســر العبودية ؟. الجواب الأرجح ــ لا أقول المحدد ــ هـــو النفـــى ، ذلك لأن عنترة أجاد ركوب الخيل ، والفروسية ، وفنون القتال . وهو ما كان يغيب عن حياة العبيد الذين اكتفوا بالخدمة والرعـــى وحراسة مضارب السادة ونسائهم وجيادهم . إن إدراك عنـــترة لوضعه فى قبيلته ، وتمرده عليه بالتالى ، يسبق وعيه بحب عبلـــة .

وكان لأمه زبيبة فضل تحريك الدافع . لقد ربته أمه على أنه من نسل سادة عبس وحام . أبوه عمرو بن شداد من سادة عبس ، وأمه حامية من بيت سيادة فى الحبشة :

منهم أبى شداد أكرم والد والأم من حام فهم أخوالى
يقدمه فتى من آل عبس أبوه وأمه من آل حام .

والحق أن للمرأة بطولة فى حياة عنترة ، لا تقل عن بطولة عنترة نفسها . كانت زبيبة هى الدافع والمحرض حتى يغادر ابنها ظروفه القاسية . لم تكن مجرد أمة مثل المئات من اللائى صحا وعيهن على حياة الجوارى ، لكنها كانت ذات أصل وحسب ، وحرصت أن تكون هى البدء والختام فى رحلة العبودية ، فلا بد أن يجاوز ابنها تلك العبودية . وكما يقول الباحث أحمد شرف الدين ، فقد كانت زبيبة هى مدرسة عنترة الأولى ، تعلم وتخرج فيها ، واعترف بدورها فى حياته (أحمد شرف الدين : عبقرية عنترة ٧٣)

***

وبالطبع ، فإن إعادة كتابة السيرة العنترية ليس هدف هذه الكلمات . ما يشغلنا هو المواقف التى قد تجيب عن السؤال : ما

بواعث اختيار الوجدان الشعبى لشخصية عنترة ، ثم إضافاته إليها، وتعميقها ، لتصبح هذه الشخصية الأسطورية ـ أو الملحمية ـ التي ينشد الرواة حكاياتها منذ مئات السنين ؟..

كان عنترة مجرد عبد ، يعانى أسر اللون واللامكانة ومهانة العبودية ، لكنه قاوم ذلك كله ، وتحداه ، ليس بمجرد الرفض أو التمرد ، أو حتى الثورة ، وإنما بالخصائص الشخصية المتفوقة ، مثل الفروسية ، وتحدى الذات ، ومواجهة أخطر الصعاب والعقبات. وكان عليه أن يقهر فى نفسه كل مشاعر العبودية والخنوع ، ويقهر فى مجتمعه نوازع التفرقة والتعالى والعصبية ، وإن بدت مغامرته الأهم إثبات جدارته بالانتساب إلى أبيه ، ليتاح له من ثم أن يقترن بعبلة ..

حددت الجماعة قيمة عنترة فى أنه " لا يحسن الكر والفر، وإنما يحسن الحلاب والصر " ، فأراد أن تعترف الجماعة بحقه فى الحرية والمساواة والعدل . فلما أصرت الجماعة على رفضها ، لزم عنترة قيمته ، وأصر على الانسحاب ، ورفض أن يرفع رأسه ضد الأعداء ، حتى تعترف الجماعة بما يثق أنه حق له . قررت القبيلة أنه عبد من جملة العبيد ، لا قدر له ولا قيمة عندها ، فهو يريد

إذن أن يعيش أو يساق مع الغنيمة . كل من ملكه من السادات خدمه خدمة العبد للسيد ، فى جميع ما يطلب منه أو يريد " لو لم يكونوا عشيرتى وقومى لما أبقيت منهم أحداً " . ويقول لأبيه : " يا مولاى افعل بى ما تريد ، واحكم علىّ حكم الموالى على العبيد، والعبد ماله غير مولاه ، إن أبعده أو أدناه . وأنا أشهد على نفسى أنى من اليوم فصاعداً قد امتثلت لأمرك ، ولا أقصر على خدمتك ، ولا أفارق رعى الجمال ، ولا أراكب جواداً ، ولا أجرد حساماً ، ولا أنطق الشعر أبداً ولو شربت كاسات الردى مع الأنذال " (السيرة جـ ٢ ــ مجلد ١ ــ ص ١٨٧).

وبعد أن أسفرت الهزيمة عن ملامحها ، اضطرت القبيلة إلى الضغط على شداد كى يعترف بابنه عنترة ، لكن الرجل أصر على إنكار البنوة " فمن فعل هذا قبلى من الفرسان ؟ أتريد أن تحط من قدرى بين السادات ، وتجعلنى بين القبائل حديثاً إلى الممات ؟ " . ثم أعلن شداد ــ مضطراً ــ " قاتل معنا اليوم وأنا ألحقك بنسبى ، فقد أقررت بأنك ولدى " . اختلف الأمر عندما هتف شداد فى عنترة : ويلك عنترة بن شداد . أصبح للابن الذى اعترف أبوه بأبوته له ما يدافع عنه ، فهو منتم إلى أبيه ، وإلى

قبيلته . وهنا تبين قضية عنترة عن أهم أبعادها ، وهو الانتمـــاء ، انتماء الفرد للجماعة ، فهو إذا لم ينل حقوقه كلها متساوياً مـــع الآخرين ، فإنه لن يشعر بانتمائه إلى الجماعـــة . أن أنتمـــى إلى جماعة ، فلا بد أن أشعر بالانتماء إليها ، بالمواطنة . علىّ واجبات الآخرين ، ولى حقوقهم أيضاً . وتلك ـــ فى تصورى ـــ مشـكلة ملايين البسطاء من أبناء الشعب المصرى فى امتـــداد عصـــوره . الطبقات الأدنى والأجيرة والمهمشة . السلطات الفوقية تفـــرض عليها الواجبات ، الواجبات فحسب ، بينما تنال الطبقة الحاكمـة ـــ أو المسيطرة ـــ كل الحقوق ..

***

كان عنترة هو فارس بنى عبس ، هو الذى حارب دفاعـــاً عن حياتها ، لكنه ظل محروماً مـــن حـــق المســـاواة اقتصاديـــاً واجتماعياً، بل وعاطفياً ، فلم يكن من حقه أن يحب ، لأن الحب ليس من حقوق العبيد . بدت الحرية هدفاً مهما لعنـــترة ، وقـــد أصر على هدفه حتى تحقق . وعندما فقد سادة عنترة حريتهم ، لم يستعيدوها إلاّ بسيف عنترة ، فهم إذن قد أصبحوا أحراراً بسيف عبد القبيلة ، عنترة . لقد خاض عنترة العديد من المغامرات ليظفر

بعبلة زوجاً له . وعبلة هى ابنة شداد ، أحد أهم سادة القبيلـــة ، يتطلع إليها شباب القبيلة وفرسانها ، مقابلاً لتطلع عنترة الـــذى لم يكن إلاّ راعى إبل وغنم ، لا قيمة له ولا كرامة ، فى مجتمع يخضع لمنطق القوة والمكانة الاجتماعية والتفوق . واجه عنترة فرســـان الجزيرة العربية وأبطالها ، وانتصر عليهم ، وأحضر النوق العصافير من الغساسنة ، ونال اعتراف مجتمع شعراء مكة حـــين علقـــت معلقته على أستار الكعبة ، إلى جانب معلقات أهم شعراء العصـــر . وكما يقول محمود ذهنى ، فإن عنترة عبد حقيقى ، وقـــف فى وجه سادته ، ليحقق لنفسه الحرية والمجد بقوته وشجاعته، فى يـده سلاح الحرب ، وفى لسانه سلاح الفضيلة . وكان اختيار الـــراوى الشعبى لسيرة عنترة لبضعة أهداف : أولها أن استخدام شـــخصية تاريخية حقيقية معروفة ، يهب العمل الفنى قناعة ذاتية لدى المتلقى ، وإمكانية للتخفى تحت غلالة التاريخ ، فلا يواجه مصـــير ابـــن المقفع ، فضلاً عن أن استخدام أجزاء من التاريخ الحقيقى لعنترة ، يشكل أساساً قوياً يبنى فوقه مايشاء من أدوار وأحداث ، بحيـــث تصل إلى المتلقى فى سهولة واقتناع (محمـــود ذهـــنى ــــ الفنـــون الشعبية العدد ٥١) . وحتى لا يصبح عنترة بلا نسب من ناحيـــة

الأم ، فقد جعل الراوى الشعبى من أمه " زبيبة " ــ وهى أمة حبشية ــ ابنة للنجاشى ملك الحبشة ، فهو ينتسب من ناحية الأب إلى عبس ، ومن ناحية الأم إلى ملوك الحبشة !

***

لقد حاول المؤلف باستعارة شخصية عنترة ، أن يستنهض المصريين " ضد الحكام الفاطميين الذين احتلوا بلادهم ، واستولوا على مقدراتهم ، ثم اعتبروهم مجرد عبيد بنى عبيد " (رحلة فى عقل وجدان مؤلف سيرة عنترة بن شداد ــ محمود ذهنى ــ الفنون الشعبية العدد ٥١) . كان مؤلف السيرة يريد أن يقول للمواطن المصري ــ فى الزمن الفاطمى ــ " هاك عنترة اقتد به ، ومهما كانت الصعاب ، فبالجهد والعزيمة والإصرار لابد أن تبلغ المرام " (المصدر السابق) .

لذلك فإن سيرة عنترة ــ فى تقدير نبيلة إبراهيم ــ تهدف إلى إبراز البطولة الفردية ، التى تتحقق عندما ينجح البطل الفرد فى استرداد حقه من مجتمع ظالم (نبيلة إبراهيم ــ المقومات الجمالية للتعبير الشعبى ــ هيئة قصور الثقافة ــ ص ٢٦٥) وإن ذهب الرأى إلى أن كل المعارك التى قام بها عنترة بوصفه محارباً ، كان

يقوم بها ، ويؤديها ، بهدف أساسى ، وهو أن يرفع معـــه قـــدره فوق ظروف ميلاده . وبذلك يصبح جديراً بابنة عمه (المـــاضى المشترك بين العرب والغرب ١٣٧)

كانت الجماهير العربية تحتاج إلى بطل من نوع عنـــترة ، فأعادت اكتشافه بطريقتها . ثمة روايات أن نسب عنترة يتصـــل بأجداد من ملوك السودان ، وبسلالة ملكية فى الجزيرة العربيـــة وبيزنطة وروما وبلاد الإفرنج . حتى الحروب الصليبية وجـــدت انعكاساً لها فى سيرة عنترة . قدم الصليبيون من بلاد الإفرنـج ، فى اتجاه بيزنطة وسوريا ، بينما خرج عنترة من ســـوريا فى اتجـــاه بيزنطة، ومنها إلى بلاد الإفرنج فى حملة معاكسة ، حيث تحقق لـه النصر (الماضى المشترك بين العرب والغرب ١٣٢) . والثابت ــ تاريخياً ــ أن عنترة لم يدرك الإســـلام ، ولم يرفـــض دعـــاوى الجاهلية، وكان يعبد الأصنام مثله مثل أبنــــاء عصـــره ، لكـــن الوجدان الشعبى أطال فى عمره ، وعمق خبرته ، فامتدت ســـيرة عنترة ، ووصلت بطولاته إلى أسبانيا وشمال إفريقية ، ورحـــل إلى الصين ــ تلك البعيدة جداً فى الذهن العربى [اطلبوا العلم ولو فى الصين] ــ ليحارب هناك . لقد جاوزت السيرة العنترية جزيـــرة

العرب ، لتصبح رسالة إنسانية ، تنتصر للحق والعدل ، فهى إرهاص مؤكد بدعوة الإسلام . وبتعبير آخر ، فقد كان عنترة " شاعراً وفارساً فى العصر الجاهلى ، ولكن عندما استمر الشعب العربى يروى قصص بطولته من الإسلام ، تشكلت صورته بشكل جديد ، بحيث أصبح رمزاً للبطولة الإسلامية " (نبيلة إبراهيم : البطولة فى القصص الشعبى ــ دار المعارف ــ ص ٢٤) .

***

تعددت الروايات عن ظروف مقتل عنترة [لم يمت ميتة عادية!] قيل إن ريحاً من صيف هاجت عليه بعد أن تقدمت به السن ، فأصابته ، فقتلته . وقيل إنه وقع أسيراً بعد أن أعجزه ضعف بصره عن القتال ، ورماه رجل وهو جالس بسهم ، فخرق عينيه . وقيل إن وزر بن جابر النبهانى أصابه برمية ، فتحامل بها حتى أتى مضارب عبس ، ومات بين قومه . وقيل إن الكبر كان قد حال بينه وبين معاودة ركوب جواده حين سقط من فوقه فى إحدى المعارك ، وأشفق من أسره على نفسه من بطولة عنترة ، فقتله .. وروايات أخرى كثيرة ..

ولتعدد الروايات الحقيقية فى نهاية حياة عنترة ، بعد أن بلغ التسعين ، وما إذا كان قد قتل بالسيف أم بالسهم المسموم [مات مقتولاً فى الحالين!] أم أن الريح العاصفة هى التى قتلتـــه ، فـــإن الوجدان الشعبى قد أفاد من ذلك فى اختراع نهاية ظل فيها عنـــترة ـــ بعد أن أصيب بالسهم المسموم ـــ ممتطياً صهوة جـــواده، وفى يده رمحه ، حتى يحمى ظهر الفرسان المنسحبين ، ثم لفظ عنــــترة أنفاسه الأخيرة ، وإن ظل على جواده ، واتكأ علـــــى الرمـــح. وداخل أعداؤه ارتياب لطول الوقفة ، فقذفوا الجـــــواد بحجـــر ، فشب بفارسه ، وأسلمه إلى الأرض ، بعد أن ضيع على أعدائــــه فرصة مواصلة القتال حتى تحقق النصـــر . قـــال الـــراوى : " .. وسارت بنو عبس ، وتقدمت بين يديه وهـــــو ينظـــر إلى عبلـــة والدموع تنحدر من عينيه . فلما غابت عنه وهو متكئ على رمحه بيديه ، فشهق شهقة ، ونفخ نفخة فـــارقت روحـــه جســـده ، والجواد واقف تحته لم يتحرك من مكانه ، لأن هذه كانت عادتـــه منذ تربيته ونشأته . وكان عنترة مدة حياته إذا نام ينام على ظـــهر حصانه ... هذا وهؤلاء العربان يظنون أن عنترة على قيد الحياة ، ولم يعلموا أنه شرب شراب الوفاة ، إلاّ أنه واقف يطلب منــــهم

الحرب والقتال ، فقالوا لبعضهم : يـــاويلكم . ارجعـــوا علـــى أعقابكم من قبل أن تعدموا نفوسكم " (سيرة عنترة ــ طبعـــة القاهرة جــ ٨ ــ ص ١٨٢ ــ ١٨٣) .

لقد ظل عنترة يدافع عن قومه ، حتى بعد أن بدأ الســـم يسرى فى جسده بالموت ..

ولعل كوخولاين هو أقرب أبطال الحكايات الغربيـــة إلى عنترة فى طريقة موته . فقد أمر كوخولاين رجاله أن يربطـــوه إلى حجر منتصب ، وظن أعداؤه أنه حى ويحاربهم ، حتى كشـــفت الغربان التى استقرت على جسده ، عن موته (الماضى المشـــترك بين العرب والغرب ٢٣٦)

وحتى الآن ، فإن شخصية عنترة ما تزال حية بيننا . ثمـــة المئات من الرواة المحترفين ــ على تـــوالى القـــرون ــ جعلـــوا صناعتهم رواية سيرة عنترة ، وسمّوا العناترة . واســـم " عنـــتر " يطلق على ذى الطبيعة الجسور ، ونصف الشخص المعتز بقوتـــه بأنه " متعنتر " ، ويختار البعض لابنه إسم " عنتر " ، وأكبر المقابر القديمة فى أسيوط اسمها " إسطبل عنتر " إلخ (قصصنا الشـــعبى — فؤاد حسنين على ــ هيئة قصور الثقافة ص ٨٦) .

سيرة الهلالية

قال الزناتي خليفة :

أنا أحب أبو زيد يا بتى واكرهه

كما الحره ما تحبش الدنس فى عزالها

أنا أحب أبو زيد يابتى واكرهه

كما الفاجر متكره عوالى رجالها

أنا أحب أبو زيد يا بتى واكرهه

كما الناقة متحبش فراق عيالها

أحب أبو زيد يكون اخويا ولا ابن عمى ولاّ من أعز قرايبى

كنت أقسم الدنيا وأعارك قبالها

تعد سيرة الزير سالم ، وبطلها أبو ليلى عدى بن ربيعة التغلبى ، والملقب بالمهلهل ، جذراً للسيرة الهلالية ، فأبطالها هم جيل الأجداد فى الجمع الهلالى ، وأحداثها تنتهى بميلاد هلال بن عامر ، جد بنى هلال . وهى ما يصح أن يوصف بالملحمة ، لأنها تروى جميعاً بالشعر . أما السير الأخرى فهى نثرية ، وإن تضمنت شعراً ..

اسمه سلامة إشارة إلى سلامة القوم على يديه ، وكنوه بأبى زيد الهلالى اعترافاً بزيادته على الفرسان فى الحرب ، ونسبه فى بنى هلال بعد أن تمت المعرفة بينه وبين والده (أبو زيد الهلالى– ٦٩)

***

الهلالية ليسوا قبيلة واحدة ، يجمعها أب واحد ، وإن غلب عليها هلال . كانوا أخلاطاً من القبائل ، بينهم سليم الذين لا تقل شهرتهم عن الهلالية ، وبينهم قيس عيلان الذى " كانوا يتعارفون باسمه ، ويتنادون باسمه ، ويستغيث بعضهم ببعض باسمه أيضاً " (عبد الحميد يونس : الهلالية ١٢) ويشير أستاذنا عبد

الحميد يونس إلى أن الهلالية وجيرانهم من سليم ربما " تكـــاثروا على الأيام فى نجد موطنهم الأول ، وساعدهم على هذا التكـــاثر انشغال الدولة عنهم بالفتح حيناً ، وتوطيد دعـــائم الحكـــم فى الحواضر حيناً آخر ، وتقطع الأســباب بـين الإدارة المركزيـة والأقاليم البعيدة عنها ، مع قصور وسائل الاتصال ، فـــاحتفظوا بأعرابيتهم ، وكانوا أهل شغب ، قليلاً ما يـــهدءون ، يقطعــون الطريق على السفر حجاجاً وتجاراً ، ويكرهون النظام أياً كـــان مصدره ، والسلب عندهم غنيمة مشروعة تقضى بها خلفيتـــهم ، ويقوم عليها مجتمعهم ، ومن ثم كانوا من خصوم الدولة النظاميـة الألداء يرهبونها وترهبهم " (عبد الحميد يونس : الهلالية ٤٨)

والسؤال هو : لماذا غلب اسم هلال على تلـــك القبـــائل المتعددة ، التى لم تكن جميعها من الهلالية . وكمـــا يقـــول ابـــن خلدون ، فقد كان فيهم من غير هلال كثير من فزارة ، وأشـــجع من بطون غطفان ، وجشم بن معاوية بن بكر بن هوزان وســلول بنى مرة بن صعصعة بن معاوية والمعقل من بطون اليمنية وعمـــرة بن أسد بن عامر بن صعصعة وعدوان بن عمر بن قيس بن عيلان

وطرود بطن من فهم بن قيس .. " (ابن خلدون : كتاب العبر ج ٦ ص١٦، ١٧)

الجواب يجده عبد الحميد يونس فى انتقال الرياسة إلى بنى هلال آنذاك . ويقول : " إنهم كلهم متدرجون فى هلال ، وفى الأثبج منهم خصوصاً ، لأن الرياسة كانت عند دخولهم للأثبج وهلال " (المقدمة ج ٦ ص ١٧) . كان القحط هو الباعث على الهجرة الجماعية عند الهلالية . اجتاح بلاد السرو وعبادة جدب ، دفع بنى جابر على النقلة إلى نجد والإقامة مع بنى جبير . ثم " دخلت نجد بدورها فى سنين عجاف أتت على الأخضر واليابس ، فلم تر العشائر بداً من الرحلة الإجبارية إلى الغرب " (الهلالية ١٦٦) . وكان الهلالية — فى تقدير عبد الحميد يونس — " من الممعنين فى البداوة ، المعتزين بالعصبية ، لأنهم كانوا يقاومون عوامل الاستقرار والاندماج ، وأنهم لم يتغيروا فى جميع المسارح التى حلوا فيها ، فقد كانوا فى نجد والعراق والشام ، كما كانوا فى مصر وإفريقية وبلاد المغرب . وكانت صلاتهم بالدول النظامية وأصحاب السلطان سلبية ، تقوم على طلب الانتفاع بأية وسيلة كانت ، وهم يمرون بصور الحكم مرورهم بمذاهب

الاجتماع والدين ، لا يؤمنون بشئ منها . ينصـــــرون فريقــاً ثم يخذلونه ، ويعدون فريقاً آخر ثم يبعدونه ، ويتحولون بين القرامطة والشيعة وأهل السنة ، تحولهم بين المصريين والبربر والســـودان ، ويسيرون وراء قادة من الأعاجم والأتراك ، ولكن مما لا ريب فيه أن هجراتهم مذ خرجوا من نجد إلى أن تفرقوا فى بوادى إفريقيـــة وتلالها تؤلف وحدة قائمة برأسها ، على الرغم من حدوثها علــى فترات كثيرة يتقارب بعضها ، ويتباعد بعضها الآخر " (الهلاليـــة ٧٦) ، والسيرة الهلالية عموماً تعكس " الصراع المتجـــدد بـــين البداوة والحضارة ، أو بين الإعرابية والدولة، أو بين الإباحة الـــتى تكاد تستحل كل شئ ، والاستقرار الذى يأخذ بأسباب الأمـــن والنظام " (الهلالية ٥٠) .

وصفهم المؤرخون بأنهم فاضوا على إفريقية فى ٤٤٠هــــ. كالجراد المنتشر . وأنهم " كانوا كالنار تأكل نفسها إذا لم تجد مـا تأكله " (محمد فهمى عبد اللطيف ـــ أبو زيد الهـــلالى ـــ ـــ ص ٢٣) . ويقول محمد فهمي عبد اللطيف أن برقة عندما نزلها بنـــو هلال ، كانت أرضاً عامرة بالخيرات ، ناضرة بالزروع والثمـــار . واستطاع العرب أن يسيطروا على ذلك الإقليم من جميع أطرافـــه

ونواحيه ، وأمعنوا فى التخريب والنهب كعادهم (!) ولجّوا فى الفساد على طبيعتهم (!) . ويقول ابن الأثير إن قبائل هلال وأخواهّا اندفعوا فى قصدهم ، ولم يجزوا المعز بما فعل من الإحسان . بل شنوا الغارات ، وقطعوا الطريق ، وأفسدوا الزروع، وحاصروا المدن ، بل إنهم هزموا جيش المعز عندما تصدى لهم ، فعاود الجيش هجومه عليهم مرة ، وثانية ، لكنهم تعقبوا المعز فى قرارة ملكه ، واندفعوا من ورائه يخرّبون ويعيثون ، حتى انتهوا إلى القيروان ، واقتسموا ما فتحوه من البلاد فيما بينهم سنة ٤٤٦ . واضطر المعز إلى مفاوضتهم على الصلح ، وتخلّى لهم عن القيروان . ويعقب ابن خلدون على ما حدث بقوله : " ودخل العرب القيروان فانتهبوها ، وأقام المعز بالمهدية ، وتترى البوار فى البلاد " (تاريخ ابن خلدون جـ٦ / ص ١٥٩). ومع أن ابن خلدون أثنى على بطولات الهلاليين ، فإنه أدانهم على ما اقترفوا من تصرفات تبلغ حد الجرائم .

وكما يقول ابن خلدون ، فقد استمرت أحوال قبائل هلال وسليم وأتباعها وهم على طبيعتهم فى التنازع والتصارع ، والأيام تعلو بهم وتنزل ، والأحداث تعطيهم وتأخذ منهم ، حتى

انقرض من بطونهم من انقرض ، ويقى منهم أعقاب وفلول ، فقدوا شخصيتهم ، وضاعت سطوتهم ، وانطوت فى بطون الأيلم وتصاريف الأقدار سيرتهم . سنة الله فى سائر خلقه ، وطبيعة الزمن فى معاملة أهله " .

مع ذلك ، فإن غزوة الهلاليين للشمال الإفريقى هى التى أفضت إلى تعريب المنطقة ، وانحسار الجنس البربرى الذى كان مسيطراً بحكمه ولغته وعاداته وتقاليده . بل إن البعض يجد فى دخول العرب الهلالية إلى تلك البلاد امتداداً للروح البدوية التى ترفض الظلم والقهر . وهو ما تبدّى – بعد مئات السنين – فى مقاومة الأمير عبد القادر الجزائرى للاحتلال الفرنسى للجزائر ، ومقاومة عمر المختار للرحالة الإيطالى لليبيا (أبو زيد الهلالى – ١٥) .

***

وكالعادة ، فإن السيرة الهلالية بها أشخاص حقيقيون ، وأشخاص اخترعهم الرواة ، وأشخاص اكتفى التاريخ بذكر أسمائهم . لقد اعتمد الرواة على الأصل التاريخى ، ما جرى فى رحلة بنى هلال إلى مصر ، ثم إلى الشمال الإفريقى ، وما خلضوه

من حروب ، وواجهوه من أحداث . ثم أضافوا الخيال إلى الأصل التاريخى ، فأضافوا ، وحذفوا ، وبدّلوا ، حتى انتهت إلى تلك الرواية التى يتبادلها كل الرواة ، وإن حدثت اختلافات بسيطة — أحياناً — بين الروايات المختلفة . وكما يقول أستاذنا عبد الحميد يونس ، فإن الشعب المصرى لم يحتفل بما قيل مَن خلاف بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وانتخب من هؤلاء عنترة وبنى هلال (مجتمعنا — عبد الحميد يونس — ٣٣) ، و" فعل الخيال الشعبى فعله فى الحقيقة التاريخية ، وطوع الفن القصصى لمقتضيات الوجدان القومى " (عبد الحميد يونس — سيرة بنى هلال — هيئة الكتاب). اعتمدت السيرة " على الواقع التاريخى الذى انتخبته عن وعى ، وعن غير وعى . ثم سمحت للخيال أن يعيد صياغة الوقائع ، وأن يصور الشخوص . بيد أن عمل الخيال كان مقيداً بوجدان الأمة ، متأثراً برغبتها فى إذكاء غريزة النضال والمقاومة وتجسيم الخصائص التى يمتاز بها العرب فى نظر أنفسهم عن بقية الأقوام " (المصدر السابق) .

وقد قسم أستاذنا فؤاد حسنين على قصة بنى هلال — كما أوردها الرواة — إلى ثلاث حلقات : الأولى تروى تاريخ

ظهورهم فى شبه جزيرة العرب إلى استيطانهم بلاد " السرو " ، والثانية تتحدث عن رحلتهم إلى بلاد نجد ، أما الحلقة الثالثة فيطلق عليها " تغريبة بنى هلال ، وتشتمل على حروبهم ووقائعهم فى بلاد العرب " ..

***

لسنا فى مجال تلخيص السيرة الهلالية ، فمساحة الأحداث متسعة ، والشخصيات كثيرة ، وإن تحددت فى شخصيات رئيسة أربعة من الهلالية : أبو زيد ، الجازية ، دياب بن غانم ، الحسن بن سرحان . ما يشغل هذه الدراسة هو : لماذا كان لأبى زيد الهلالى والزناتى خليفة تلك المكانة المتفردة فى السيرة العربية ؟ لماذا كان لهما ــ وللسيرة بعامة بالطبع ــ شعراء ورواة ، هم الأعلى مكانة فى امتداد العصور إلى زمن قريب ؟ . أذكرك ــ للمرة الثانية ــ بالمحنة التى واجهها شاعر الهلالية ، حين استبدل به المعلم كرشة جهاز الراديو فى مقهاه بزقاق المدق .

السيرة تصور أبا زيد الهلالى فى صورة الفارس الشجاع الذى أحاطت به الخوارق والمعجزات منذ الميلاد إلى الوفاة . كانت أمه قد أنجبت بنتاً هى شيحة ، ثم توقفت عن الإنجاب أحد

عشر عاماً . ثم تمنت ـــ كما تقول السيرة ـــ أن يرزقها الله ولـــداً ذكراً ، وخرجوا مرة إلى بستان ، فرأت غرابـــاً أســـود يطـــرد الغربان، ويقهرهم ، ويفتك بهم ، فقالت : إلهـــى ، أســـألك أن ترزقنى ولداً ذكراً ، ولو كان أسود اللون ، لعلّه ينشـــأ يغلـــب الفرسان ويقهرهم مثل هذا الغراب (سيرة بـــنى هـــلال ٢٦) . يصفه محمد رجب النجار بأنه كان يتمتع " بقوة جســـدية غـــير عادية تؤهله للبطولة المادية ، فكان الأمير أبو زيد مـــن الجبـــابرة المعدودين فى الحرب والقتال والطعن والنزال . وكان جـــهورى الصوت ، وصيحته مثل صوت الرعد القاصف ، وأن صرختـــه فى الميدان تهد الجبال الرواسى وتزلزل جيش الأعداء " (محمد رجب النجار : أبو زيد الهلالى ، الرمـــز والقضيـــة ـــ دار القبـــس ـــ الكويت ـــ ١٩٧٩ ـــ ص ٩٧) . وكانت قوته الجسدية الهائلـــة " تتيح له ـــ أحياناً ـــ مواجهة كتيبة أو قبيلة أو جيش ، قوامـــه عشرة آلاف فارس ، بمفرده ، أو فى نفر قليل من أبطاله المخلصين " (المصدر السابق ص ٩٨) .

أبو زيد الهلالى هو البطل فى الرواية المصرية ، المحور الـــذى تدور من حوله أحداث السيرة الهلالية ، لإجادته استخدام السيف

والحيلة ، وهو ما يتفق مع مكون أساسى فى الشخصية المصرية ، بينما يبدو ذياب هو البطل فى الرواية الليبية لاتصافه بالإقدام والشجاعة ، وهو المثل الذى تتطلع إليه الشخصية الليبية . أما الجازية أو " الزازية " فهى الشخصية المحورية فى السيرة كما تروى فى أقطار المغرب العربى . ومبعث ذلك هو التماثل بين الجازية والبطلة البربرية التاريخية " الكاهنة " (إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية ــ ص ١٧٠) ..

واللافت أن أبا زيد كان مفتوناً بحياة الصعاليك وبسطاء الناس والخارجين على القانون . ومن هنا جاء الرأى بأن أبا زيد الهلالى قد استأثر بالحب الأوفى من الناس ، لأنه وجدوا فيه أنفسهم . كانت طفولته قاسية طفولة معظمهم ، وهو مثلهم كابد صعوبات ومشاق ، تغلب عليها بالسيف والحيلة ، فضلاً عن أنه مات غدراً بطعنة من دياب ، فزاد تعاطفهم معه (إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية ــ ٢ ــ ١١٢) . القول بأن " سكة أبو زيد كلها مسالك " دلالة واضحة على ما كان يتمتع به أبو زيد من شخصية تجيد التحديات والأخطار . لقد واجه أبو زيد الكثير

من الأعداء الذين انشغلوا بالقضاء عليه : مشرف العربان ، عقبة، القطيفين ، قابيل ، بصبار ، عطوان ، ماضى ، وغيرهم ..

أفلح أبو زيد فى الاطلاع علـــى الأســرار الداخليــة فى القيروان ، عندما تنكر فى هيئة عبد أسود ، صحب مجموعة مـــن الفتيات الجميلات إلى داخل المدينة . تبين مواطن القوة والضعــف فى المدينة ، ثم عاد إلى قومه بما يفيدهم فى التخطيط لغزو القــيروان [التنكر هو ما فعله أدهم الشرقاوى فى مواله الشهير !] وصارت القيروان ـــ بعد دخول العرب إليـــها ـــ ملكـــاً لهـــم بأموالهـــا وقصورها ..

وقد أخذ عبد النبى المتبولى فى روايتى " زهرة الصبـــــاح " على أبي زيد الهلالى تنكره فى زى طبيب عربى ، ليعالج الزناتى من طعنة دياب له فى عينه ، حيث وضع السم فى عيـــنى الزنـــاتى ، وضمن موته ..

حيلة حقيرة ، تخلو من أخلاق الفرسان ـــ فضــــلاً عـــن الأبطال الشعبيين ـــ تماماً !

أما الزناتى ، فقد كان شخصية موازية لأبى زيد . كـــان فارساً بحق وحقيق ، يحمل كل خصائص الفرسان . حتى عـدوه "

أبي زيد " الذى قدم ليسلبه أرضه وحياته ، اختلطت فى نفسه المشاعر تجاهه ، فهو يحبّه فارساً شجاعاً ، ويكرهه عدواً ، وتمنى أن يكون أخيه أو ابن عمه أو أحد أقاربه :

أنا أحب ابو زيد يابتّى واكرهه

كما الحره متحبش الدنس فى عزالها

أنا أحب ابو زيد يا بتّى واكرهه

كما الفاجر متكره عوالى رجالها

أنا أحب ابو زيد يا بتّى واكرهه

كما الناقه ما تحبش فراق عيالها

أحب ابو زيد يكون اخويا ولاّ ابن عمى ولاّ من أعز قرايبى

كنت أقسم الدنيا وأعارك قبالها..

وكما يقول أحمد شمس الدين الحجاجى فإن " الزناتى ليس مضاداً للبطل من حيث تكوينه الخُلقى والخِلقى ، وإنما هو مضاد للبطل من حيث وقفة كل منهما فى مواجهة الآخر دفاعاً عما يراه كل منهما حقاً . فأبو زيد بطل ، والزناتى خليفة بطل أيضاً، جعلتهما الظروف أعداء ، مع إعجاب كل منهما بالآخر. فهو

ليس مضاداً للبطل فى المعنى العام للبطولة ، وإنما فى وقفته المعادية للبطل " (مولد البطل فى السيرة الشعبية ـــ الحجاجى ـــ ٥٧)

لم يكن الزناتى خليفة ـــ أو خليفة الزناتى كما يسميه أستاذنا عبد الحميد يونس ـــ بشراً عادياً . لم يكن مثل بقية البشر، فقد ولد لأب إنسى وأم جنية ، وبالتالى فقد اختلفت حياته من حيث تعرضها للتلف . وكان إذا تعرض للطعن ، اكتفى بسكب قطرات على الجرح من ماء الحياة فيبرأ حالاً . أما نهايته ، فقد كان على يقين أنها لن تأتى إلاّ إذا شاءت الإرادة الإلهية . لم يكن الزناتى يخاف أحداً من البشر . وكان يجيد أساليب القتال ، وضربته تشطر جسد الفارس وجواده ، وتفلق الصخر تحتهما .

أعجبنى القول : " من الغريب أن يسمّى أبو زيد بطلاً وهو القادم لغزو تونس ، ولا يصبح الزناتى خليفة بطلاً وهو الذى يدافع عن أرضه " (مولد البطل فى السيرة الشعبية ص٥٨).

كان ـــ كما أشرنا ـــ يجيد فنون القتال ، ويتمتع بخصال تعلو به فوق مرتبة البشر . وإذا كان أبو زيد لم يخذل فى أى من المعارك التى خاضها ، وكان واسع الحيلة فى السياسة ، وشديد الدهاء فى

تدبير المكائد والخروج من الأزمات ، فإن الزناتى " ابن جنّيـة " .
إذا طعن بالسيف ، وأريق على جرحه قليل من ماء الحياة ، التـأم الجرح حالاً . وعندما تكررت إخفاقات الهلاليين فى النيل منـه ، طعنه دياب فى عينه ، ووضع له أبو زيد السم فى الجرح ، فسـرى فى كل جسمه [أذكرك بما تتحدث عنه بعض الروايات من غـدر أبي زيد بابن أخته عزيز بن خالد ، وقتله له ، بعد أن سـانده فى رحلته ، وفى حبه . وجده حكيماً ، فخاف على زعامته منه]

والحق أن السيرة وضعت الزناتى خليفة فى إطار البطولـة ، وكان ـ ارتكازاً إلى قوته وفتوته وفروسيته وشهامته ـ سـيد قومه ، أوامره نافذة ، وكلماته لا ترد . وحين اقتحم الهلالية بلاد تونس ، تصدى لهم الزناتي ، ونازل فرسانهم ـ مع جنـده ـ فى صبر ، وقدرة على النزال ، والكر والفر . واستطاع الزنـاتى أن يقهر فرسان الهلالية ، ومنهم أبو زيد نفسه والحسن بن سرحان ، وقتل تسعين من فرسانهم ، وجز رءوسهم عن أبدانهم ، وعلقـها على أسوار تونس تخويفاً لبقية الفرسان . ولأن " الهلاليـة " و " دياب " و " الزناتى " كذلك ، كانوا يعرفون أن "دياب " هـو وحده الذى يستطيع أن يصرع الزناتى ، فقد استعطفوه ليفعل مـا

عجزوا عن فعله . وتتواصل الأيام بين مد وجزر ، دون أن يملك أحد الرجلين بتر خصمه . ثم تتدخل سعدى ابنة الزناتى بكيد النساء ، فترجح كفة دياب . لم يستطع الهلاليون أن يقضوا على الزناتى إلاّ بالخيانة [هذا هو التعبير الصحيح ، فقد شاركت سعدى بنت الزناتى فى المأساة بخيانة أبيها !] . وكما يقول أستاذنا عبد الحميد يونس ، فإنه لم تكن فى سيرة الزناتى " خصلة غير الشجاعة والحزم ، ولولا ما كانت تدبره ابنته بليل ، ما أفلت الجواسيس فى ريادتهم ، ولا وفقت جافل الهلالية فى تغريبتهم ، وليس فى المعسكر الزناتى من الرجال سوى هذا البطل " (عالم الفكر ــ مايو ، يونيو ١٩٨٦) .

لكن الأحداث لا تنتهى بمصرع الزناتى على يد دياب ، فقد جلس على عرش تونس ، وتحوّل إلى طاغية ، يمنع عن الهلالية ما حصلوا عليه بسيوفهم من خيرات ، ويقتل أبناءهم ، حتى لا يحاولوا الثأر منه ، ويردد الناس المثل : " كأنك يابو زيد ما غزيت " . والدلالة واضحة .

***

أما دياب بن غانم ، فعلى الرغم من فروسيته ، وهو ما تبدّى فى منازلته للزناتى خليفة ، وتغلبه عليه بعد أن أخفق فى ذلك كل الفرسان ، ففى المقابل من الصفات الجميلة التى نسبت إلى الحسن بن سرحان ، بدت شخصية دياب ــ المنافس الأخطر لأبى زيد والسلطان حسن ــ كان إنجازه الأهم قتل خليفة الزناتى صاحب تونس ، وأشد خصوم الهلالية بأساً ، لكنه كان شحيحاً مغتصباً ، وصاحب غدر ، ومغروراً ــ ومتهوراً ، وعصبى المزاج، وصار من أقوالهم : أنت زغبى ! ، نسبة إلى زغبة قبيلة دياب (الهلالية ١٩٠) . ويشير أحمد مرسى إلى أن حب الوجدان الشعبى لأبى زيد نابع ــ فى حقيقته ــ من أنه كان عنصر التوازن فى السيرة ، وكان عنصر التجميع والتوحيد ، بينما كان دياب عنصر فرقة وانقسام (عالم الفكر ــ المجلد السابع عشر ــ العدد الأول). وقد أعان أبو زيد ــ بحيلته ــ " دياب " ، ودبّر له خطط الضرب والنزال . وأعيد الإشارة إلى ما فعله أبو زيد عندما طعن دياب الزناتى الطعنة القاتلة ، فقد وضع السم فى جرح الزناتى ليؤكد مصرعه !

***

بصرف النظر عما أخذته السيرة الهلالية من الواقع التاريخى، وما أخذته من الخيال ، فإن عبد الحميد يونس يعتبر السيرة الهلالية وثيقة تاريخية ، لا تقل فى الأهمية عن الروايات المدونة فى أمهات الكتب ، وليس يضيرها تنقلها بالرواية الشفوية. وإذا كان المؤرخون يعتبرون تاريخ هوميروس من الوثائق المهمة التى تروى ماضى اليونان ، فإن السيرة الهلالية لا تقل أهمية فى تسليط الضوء على الشخصيات التى تناولتهم ، سواء كانوا عرباً أم غير عرب ..

لم تكد السيرة الهلالية تنتقل إلى المصريين ، حتى عنوا بها للغاية ، لا لمجرد اتصال وقائعها بتاريخهم ، ولا عن إحساس المشاركة بين المنشئين الأول لها ، بل ولا مجرد الإعجاب بفرسان بنى هلال ، وما ينطوى على ذلك من عبادة البطولة والأبطال ، أو حتى الإعجاب بتفسير العجائب والغرائب التى تعلو عن الطاقة البشرية ، فضلاً عما تحفل به السيرة من المعجزات والخوارق . ذلك كله ــ بالطبع ــ موجود فى السيرة الهلالية ، لكنه لم يكن الباعث الأهم لإقبال المصريين على هذه السيرة ..

لقد تعرف المصريون إلى السيرة الهلالية فى أعقاب العصر الفاطمى ، أيِ أن الحكم لم يعد فى أيدى العرب . وكان الانتماء العربى قد أصبح جزءاً فى نسيج الشخصية المصرية . وكانت أحداث السيرة الهلالية انعكاساً لهذا الانتماء ، أو تعبيراً عنه . وأنشد الشعراء ، وأقبل المصريون على سماع سير عنترة وسيف بن ذى يزن والزير سالم وبنى هلال وغيرها (الهلالية ١٣٨) . ثم أضاف الرواة المصريون إلى السيرة الهلالية ، فمصّروها ، وإن احتفظوا بأسمائهم وكناهم وبعض ملامحهم (الهلالية ١٨٤) . وعلى سبيل المثال ، فإن الشجاعة صفة أهم ، حقيقية ، فى شخصية أبى زيد ، لكن المصريين " بالغوا فيها حتى أخرجوها عن الممكن ، وتجاوزوا بها الطاقة البشرية ، وكادوا يسلكونها مع الخوارق ، فهو يساوى جيشاً بأكمله ، وهو يصرخ فترتعد الفرائص ، وهو يجندل بضربة السيف الواحدة عدداً لا يحصى من جند الأعداء ، وهو يقذف برمحه إلى مدى لا يبلغه البصر " ولما كانت السيرة تقوم بالمد والجزر فى الحوادث ، فمن المنطق المسلير لها ألا تصبح حياة أبى زيد انتصاراً كلها ، وإلاّ فقدت أهم عناصرها القصصية " (الهلالية ١٨٧) . لم تكن أحداث الهلالية

انتصارات مطلقة لأبى زيد ، فقد واجه الهزيمة أحياناً ، ولجأ إلى الحيلة ليجاوزها . وقد أضاف الرواة المصريون إلى شخصية " أبو زيد " حسن الحيلة ، فهو يلجأ إلى الحيلة فى التخلص من المآزق ، ومجاوزة العقبات والشجاعة الخارقة ، لذلك جاء القول " سكة أبو زيد كلها مسالك " . كما نسب المصريون إلى الحسن بن سرحان — الشخصية المهمة فى سيرة بنى هلال — فضل إنشاء جامع السلطان حسن ، ربما لتشابه الاسمين . كما توارث المصريون قولهم عن الشخص الكريم ، المعنى بشخصيته وملبسه " أبو على " . وربما كانت نهاية السيرة الهلالية بقتل أبطالها جميعاً ، فلا غالب ولا مغلوب ، لأن من كانوا ينتصرون لأبى زيد حرصوا على أن تكون تلك هى النهاية فى استماعهم إلى الراوى الشعبى . والعكس — بالطبع — صحيح بالنسبة لمن كانوا ينتصرون للزناتى.

***

ما أهم الدلالات التى تتضمنها السيرة الهلالية ؟..

يقول عبد الحميد يونس : " إذا كانت سيرة بنى هلال قد قامت فى مجتمعها العربى الأول بوظيفة خطيرة ، هى ترسيب

التراث القبلى العام ، وادخار التجاريب ، والاحتفاظ بالمقومــات الجماعية ، فقد قامت فى البيئة المصرية بوظيفة لا تقل عنها خطراً، وهى إذكاء الشعور بالذاتية المصرية ، وبيان استقلالها ومغايرتهـا لغيرها ، والاعتزاز بها ، والدفاع عنها ، ثم العمل على البلوغ بهـا إلى الكمال الممكن كما يتصوره المصريون أنفسهم ، بما يحسـونه من الفارق بين المثال والواقع من ناحية ، وبما ينقدون به ذواتهـم وبمجتمعهم من ناحية أخرى . إلى ما تقوم به من بعث الغرائز الـتى توشك أن تنقرض والتى لا يستطاع الدفاع عن الذاتية الخاصـة أو العامة إلاّ بها " (عبد الحميد يونس ـــ الهلالية ٢٠٠) . ويـرى محمد فهمى عبد اللطيف إن " قصة الهلالية ظلت درساً يلقى على الناس فى الاعتداد بالنفس ، والثبات على الشجاعة ، وحماية الجار والمستجير ، والدفاع عن العرض والحريم ، والتعصـب للأهـل والعشيرة ، والمبادرة إلى مواجهة الخصم ، والأنفة من الخضـوع والخنوع ، وغير ذلك من المعانى والصفات التى ترددهـا القصـة كثيراً " (أبو زيد الهلالى ـــ ص ١١٥) ..

وثمة دلالات أخرى ، منها أن وقوع سعدى أسيرة فى يـد دياب ، وتعرضها للمهانة ، لم يكن لمجرد هزيمة أهلها ، وإنما لأنهـ

تخلت عن أبيها فى سبيل حبها . غررت به ، وشجعته على إطلاق سراح مرعى ويحيى وأبى زيد ، وهى تعلم — يقيناً — أنهم سيقودون جيشهم ليهزم جيش الأب الغافل . وكانت قبيلة بنى هلال أشبه بشعب دون قيادة ، ذلك لأن أبا زيد الهلالى لم يكن من القوة بحيث يحافظ على قبيلته من التشتت والتشرذم ، مما أتاح لدياب الهلالى أن يمارس شره . ومع أن السيرة جعلت من خليفة الزناتى مساوياً فى قامته لقامة أبى زيد . ولد لأب أنسى وأم جنية، فإذا أصيب فى معركة ، فما عليه إلاّ أن يسكب على جرحه قطرات من ماء الحياة ليشفى حالاً ، ولن يلحقه الموت إلاّ إذا حان أجله .. مع ذلك ، فإن خليفة الزناتى — فى المقابل — كان محصناً فى قلعته التونسية ، لا يشغله إلاّ الحكم والسلطة ، ولا يحس بشعبه ، ولا يحس به شعبه بالتالى ، فقد كان إذن حاكما بلا شعب . ومن هنا جاء تلخيص نبيلة إبراهيم للسيرة الهلالية ، بأنه لا بقاء للشعب بدون قيادة قوية رشيدة ، ولا بقاء للشعب الذى يعانى حكم الفرد المتسلط (البطولات العربية والذاكرة القومية — ١٨٣) .

بالإضافة إلى ذلك ، فإن استعراب الأقطار المعروفـــة الآن بشمال إفريقية مدين فى وجوده لغزو الهلاليين . ولولا هذه الغزوة لبقى الجنس البربرى هو المسيطر على تلك البلاد بعاداته وتقـاليده ونفوذه وسيطرته (أبو زيد الهلالى ـــ ص ٤٩) .

الظاهر بيبرس

" وبالجملة ، فقد كان من خير ملوك الإسلام "

المقريزى

تختلف اجتهادات المؤرخين فى تناول نشأة بيبرس ، لكنها تتفق فى أنه كان تركى الجنس ، وقد أمضى طفولته فى موطنه ببلاد القفجاق جنوبى روسيا ، قبل أن يجتاح التتار المنطقة فى ٦٤٠ هـ ـ ١٢٤٢ م . ويأسرون الطفل بيبرس ، ليتعدد بيعه فى أسواق الرقيق ، حتى يصل إلى مصر مع الأمير علاء الدين البندقدار ، فيصبح من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب ..

وقد حاول مؤرخو بيبرس أن يعوضوا ـ بالخيال ـ كل ما غاب من سيرته ، قبل أن يغادر بلاده . نسبوا إليه من إمارات الفروسية والشجاعة والبطولة ما رافقه منذ طفولته . واستطاع ـ من خلال تلك الخصال ـ أن يتخطى كل العقبات التى يواجهها. ووجد المؤرخون ـ المقريزى وأبو المحاسن والعينى وابن ايـاس وغيرهم ـ فى بيبرس " ملكاً شجاعاً مقداماً غازياً مجاهداً مرابطاً خليقاً بالملك " . " أقام منار الإسلام والناس نيام " . و " كان من

خير ملوك الإسلام " . وقضى حكمه فى " الذب عنهم من العدو المتخاذل " . .

***

السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ، يعد ــ لكثرة إنجازاته وأهميتها ــ المؤسس الفعلى لدولة المماليك فى مصر والشام . سيرة السلطان بيبرس تقع فى خمسين جزءاً ، تضمها خمسة مجلدات ، صفحات كل منها تصل إلى الستمائة . وقد أضيفت إلى النص الأصلى للسيرة البيبرسية ــ على مدى القرون المتتالية ، وبالتحديد منذ بدأ الراوى الشعبى يخلى موقعه لجهاز الراديو ، فلم يعد ثمة الجمهور الذى يطلب الإضافة والاستزادة والتبديل والتحوير ، بما يضفى على السيرة تجدداً ، وابتعاداً عن الرتابة ــ أضيفت أحداث وشخصيات وأفكار ومصطلحات جديدة ، وشت اللوحة البانورامية بألوان وظلال وتكوينات مخترعة ، وإن لم تبدل ملامحها الأصلية ، فهى إذن ليست تعبيراً عن التاريخ ، وإنما هى تعبير عن النفسية الشعبية التى تستهدف دلالات بذاتها من رواية التاريخ . لقد حفلت السيرة بالعجائب والغرائب والمعجزات ، كما انتزعه الوجدان الشعبى من الجركس، ووصله

بالعرب . صار عربي الطفولة والنشأة . وثمة من جعلـــــه مســـلم الأصل ــــ مع أنه لم يكن كذلك ! ــــ ووصل نسبه ببيت ملكى . فأبوه ملك خوارزم العجم ، وقد عثر عليه النخاس فى مدينـــــة " بورصة " ومضى به إلى حلب ، ثم إلى دمشق ، ومنها إلى مصــر [جعلت السيرة الشعبية بيبرس والياً على الشام قبل أن يتولى حكــم مصر] ، وقد تنبأ له المنجمون بمستقبل عظيم . وهو مـــا تحقـــق بالفعل ..

***

كان بيبرس فى مقدمة فدائيى حرب المغول ، وهو الـــــذى قاد الجيش إلى غزة ، حيث أنزل الهزيمة بقوات المغول ، وهو الذى أفلح فى استدراج " كتبغا " والإيقاع به فى موقعة عين جـــالوت (سعيد عبد الفتاح عاشور ــــ الظاهر بيبرس ــــ سلســـــلة أعـــلام العرب ــــ ٣٣ ، ٣٣) .

وكان باعث إقدام بيبرس على قتل قطز ، توقـــع بيـــبرس تقدير سلطانه ــــ قطز ــــ لما أبداه فى حرب المغول ، وطلب منـــه بالفعل أن يوليه نيابة حلب التى كان وعده بها ، لكن قطز رفـــض الطلب ، فانتوى بيبرس التآمر . وكما يروى أبو المحاسن فقد كان

قطز فى رحلة صيد ، وابتعد فى مطاردة أرنب " فلما أبعدوا ، ولم يبق مع المظفر ــ قطز ــ غيرهم تقدم إليه ركن الدين بيبرس ، وشفع عنده فى إنسان ، فأجابه المظفر ، فأهوى بيبرس ليقبل يده ، فقبض عليها ، وحمل أنص عليه ، وقد أشغل يده ، وضربه أنس بالسيف " . وتولى بيبرس السلطنة منذ ذلك التاريخ ، أواخر أكتوبر ١٢٦٠

وبعد أن أعلن بيبرس " وفاة " قطز ، استدعى الجند ليحلفوا يمين الولاء للسلطان الجديد . ومضى موكب بيبرس إلى القاهرة التى كانت أعدّت الزينات لاستقبال قطز ، وعلا صوت المنادى : " ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس " . وصعد السلطان الجديد قلعة الجبل حاضرة الحكم فى البلاد فى ٢٣ أكتوبر ١٢٦٠ .

وقد شغل بيبرس كرسى السلطنة سبعة عشرعاماً ، وهو ما لم يبلغه أحد من سلاطين دولة المماليك البحرية ــ فيما عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون ــ وكان طول مدة حكمه باعثاً لتنفيذ سياسة واسعة اتجهت إلى ازدهار البلاد فى الداخل

والدفاع عنها من الغزو الخارجى ، بالإضافة إلى إحاطة حكمه بسياج من المعاهدات والاتفاقات الدولية الخارجية ..

***

خاض بيبرس العديد من المعارك الداخلية ضد مظاهر التحلل والفساد وانهيار القيم فى المجتمع العربى ، وأفلح فى إرساء قيم العدل والأمن والاستقرار على مستوى الداخل ، بحيث أصبحت الجبهة الداخلية قوية متساندة ، فتهيأ الشعب لدرء الغزوات الخارجية . وحين خرج بيبرس قائداً لقوات المسلمين ضد الغزو الصليبى . لم يكن ارتباط جنده به بمجرد ارتباطهم بقائد، لكنهم ارتبطوا به زعيما شعبياً أحب مواطنيه ، فبادلوه مواطنوه ــ ومن بينهم جنده ــ هذا الحب .

ومما يحسب لبيبرس أنه هو الذى بادر بالهجوم على الصليبيين بالشام (١٢٦٣) واستطاع أن يحرز انتصارات متوالية، لقّب نتيجة لها بألقاب : سلطان الإسلام والمسلمين .. سيد التتار .. فاتح القلاع والحصون والأمصار .. وارث الملك .. سلطان العرب والعجم والترك .. اسكندر الزمان .. صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين إلخ ..

حقق الظاهر بيبرس انتصارات ضد التتـــار والصليبيـــين ، تفوق ما تحقق فى عين جالوت . كان سقوط انطاكية ــ أهـــم قلاع الصليبيين فى الشام ــ على يد قوات بيبرس فى ١٢٦٨ بداية انهيار الصليبيين فى الشام ، ومنطلقاً للنضال المتواصل حتى اندحـــر آخر بقايا الصليبيين من الشام .

***

إذا كانت الكتابات التاريخية تجمع على أن شجاعة الظاهر الفائقة هى التى خلدت اسمه فى التاريخ ، فإن الاستقراء المتـــأمل لأحداث التاريخ يرى أن الظاهر بيبرس بـــنى فى أيامـــه بالديـــار المصرية ــ والقول لأبى المحاسن ــ " ما لم يبن فى أيـــام الخلفـــاء المصريين ولا ملوك بنى أيوب من الأبنيـــة والربـــاع والخانـــات والقواسير والدور والمساجد والحمامات " ، وبنى بيبرس الكثير من القناطر والجسور " لكثرة ما كان يشرق من الأراضى كل سنة "، وعنى بتطهير الترع وحفر الخلجان وإصلاحها . وأصلـــح نظـــام القضاء ، واستحدث بعض النظم الإدارية الجديدة ــ التى لم تكـــن معروفة من قبل ــ فى مصر والشام ، وخفف الأعباء عن الأهالى، وأبطل جميع الضرائب التى فرضها سلفه ، فضلاً عـــن تخفيـــف

الضرائب عموماً ، وأكثر من إنشاء الجوامع ، وأصلح الجامع الأزهر ــ الذى ظل معطلاً من صلاة الجمعة منذ عهد صلاح الدين الأيوبى ــ ورمّمه ، وعين له الفقهاء والمحدثين والقراء ، وأديت به صلاة الجمعة ــ للمرة الأولى ــ فى ١٨ ربيع الأول ٦٦٥ هـ . (١٢٦٧ م .) . كما جعل العلماء موضع ثقته ، وولاّهم المناصب الهامة ، واختار بعضهم لسفارات إلى ملوك الدول وأمرائها . ويقول أبو المحاسن إنه " كان يقرب أرباب الكمالات فى كل فن وعلم . وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ، ويقول : سماع التاريخ أعظم من التجارب " . ويتحدث أبو المحاسن عن " كثرة عدله ، وإنصافه للرعية ، والنظر فى أمورهم ، وإنصاف الضعيف من المستضعف ، وألّبّ عنهم من العدو المخذول " . وكان ينزل إلى المدن والأسواق فى خفية ، يتعرف إلى أخبار الولاة وسياستهم فى الحكم " يجب أن يطلع على أحوال أمرائه وأعيان دولته ، حتى لم يخف عليه من أحوالهم شئ". وكان إذا زار الحرمين يغسل البيت الحرام بيديه ، ويعلق كسوة البيت ، ويفرق المال سراً ، ويوزع الطعام والكساء على أهل الحرمين ، وعلى حد تعبير أبي المحاسن " صار كواحد من

الناس ، لا يحجبه أحد ، ولا يحرسه إلاّ الله ، وهو منفرد يصلى ويطوف ويسعى " . وحين أقام حفلاً لختان ابنه " السعيد محمد " حرص على أن يحضر الناس أولادهم ليختتنوا معه . وبلغ عدد الأولاد ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين ولداً ، بالإضافة إلى أولاد الأمراء والوجهاء . ورسم بيبرس للجميع بكسوات تتناسب مع مكانة آبائهم ، وتواصلت الاحتفالات سبعة أيام .

وصف كثير من المؤرخين الغربيين بيبرس بأنه كان رجلاً عنيفاً ، مغتصباً ، غادراً ، ولا يحترم عهداً " (سعيد عبد الفتاح عاشور ــ الظاهر بيبرس ــ ٥) ، ووصفه بعض المؤرخين العرب بأنه " كان فظا غليظ القلب " ! ووصفه الذهبى بأنه كان " خليقاً بالملك ، لولا ماكان فيه من ظلم .. والله يرحمه ، ويغفر له ، فإن له أياد بيضاء فى الإسلام ، ومواقف مشهودة ، وفتوحات معدودة " . وكان بيبرس فى اجتهادات مؤرخين آخرين قد " أقام منار الإسلام والناس نيام " ، و " كان من خير ملوك الإسلام ، وأمضى فترة حكمه فى " الذب عنهم من العدو المخذول " ، وكان " ملكاً شجاعاً مقداماً غازياً مجاهداً مرابطاً خليقاً بالملك " . وقد بلغ من عناية بيبرس بالفروسية ، إنه أقام لها ميداناً خارج

باب النصر ، سمى ميدان القبق . ويروى ــ وصحة الروايات على عهدة أصحابها ــ أن بيبرس سبح مرة فى النيل وهو يرتدى ملابس الحرب ، ويسحب خلفه بعض أمرائه جالسين على عوامة مسطحة . وكما يقول سعيد عبد الفتاح عاشور فربما أخذ المعاصرون لبيبرس بمبدأ أن الحسنات يذهبن السيئات ، فتناسوا لبيبرس زلاته فى سبيل ما اتصف به من شجاعة أرهبت أعداءه وأعداء الأمة العربية (الظاهر بيبرس ــ ص٥) . والحق أن الجمع بين الظلم والتدين كان صفة مملوكية واضحة . ولعلنا نذكر حكاية الفلاح الذى دعا مملوكاً يمتطى جواده إلى الغداء ، فصاح فيه المملوك بغضب : هل تترك طعام الله لتحدثنى ؟! وقتله !. وكان بيبرس أحد سلاطين المماليك .

لقد انتصر المماليك ضد الحملة الصليبية التاسعة فى معركة المنصورة وفارسكور ، وانتصروا ــ بعد عشر سنوات ــ فى معركة عين جالوت . لكن ذلك كله لم يكن مبرراً ــ فى تقدير المعاصرين ــ لاستيلاء المماليك على الحكم . ومن هنا يتوضح تأثير الإنجازات التى حققها السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى فى مجالات الحكم المختلفة ، وإحياء دولة الخلافة

العباسية فى القاهرة ، وتوحيد الأقطار العربية فى مواجهة الغـــزو الصليبى ، وتحول دولة السلاطين إلى قوة عالمية لها هيبتها ونفوذهـا ، فضلاً عن تفرد الظاهر بيبرس ـــ وهو مـــا يـــهمنا فى هـــذه الكلمات ـــ بمكانة متفوقة فى وجدان المصريين . قرر الشـعب أن بيبرس واحد من أبنائه ، وليس حاكماً من هؤلاء الذين ســاموه الخسف والهوان ، ومن ثم وضع يده فى يد بيبرس ، محققاً بذلــك رغبة شعبية عميقة للمشاركة فى الحكم ، وأملاً قوياً فى الإصلاح، وبناء مجتمع مثالى " (الفنون الشعبية ـــ العدد ٤٩) .

جعلت السيرة الشعبية من بيبرس بطلاً مخلصــاً " ينتظـــره الناس بصبر نافذ ، فيرفع عن كواهلهم الظلم ، ويرد عنهم غاشـية العدو ، ويوزع الأمر بينهم بالقسط " (عبد الحميد يونـــس ـــ الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى ١٩) . وقد انتصـــر بيـــبرس للعدل ـــ فعلاً ـــ وقاوم الظلم . ساعده فى ذلك عثمـــان بـــن الحبلى . وكان منقوشاً على أعلام بيبرس عبارات مثل " لا ظلـــم بعد اليوم " .. " لا أفلح من ظلم " .. " الظلـــم ان دام دمّـــر ، والعدل ان دام عمّر " . حمّل المصريون بيبرس كل ما يؤمنون بـــه

من قيم ومثل ، ما يتمتعون به من أخلاقيات ، ما يتطلعون إليه من حياة نبضها الحرية والأمن والسلام .

* * *

الفساد هو القضية التي عنيت بها السيرة الظاهرية في الدرجة الأولى . ولعل اختلاق الوجدان الشعبي المصري شخصية مصرية محورية ، هي الأسطى عثمان بن الحلبي ، لأنه أعلم بمواضع الفساد في الحياة المصرية ، بما يتيح له بذل النصيحة للحاكم الذي لم يكن يقل رغبة في القضاء على الفساد

اختلقت السيرة الشعبية شخصية الأسطى عثمان الحلبي ، شريكاً للظاهر في حكم مصر ، وجعلت من البطل الشامي جمال الدين شيحة شريكاً للظاهر في العمليات العسكرية .. لكن السيرة نسبت إلى شيحة الكثير من الحيل والذكاء الفطري . إنه ابن بلد، قاهري ، من حي الحسينية ، يمتلك حسن الحيلة [يذكرنا بعلي الزيبق] وخفة الدم والذوق ، ويميل إلى الشهامة والنخوة دون أن يكون متجنياً . ولعلنا نذكر المثل الشعبي " ملاعيب شيحة " .

ومع أن الملك الصالح حذر بيبرس من عثمان بن الحبلي لأنه " رجل جبار لا يرحم ، لا يبالي من الأكابر ولا من الأصاغر ،

يسرق وينهب ، ولا يطوله أحد ، فكأنه عفريت من عفاريت سليمان ، وان من الصواب اجتناب هذا الرجل والابتعاد عنه ، والحذر منه ، فهو لا يؤتمن ، ولا يوثق له " فإن البطولة الحقيقية فى السيرة البيبرسية ، إنما هى لعثمان بن الحلبى ، فتوة الفتوات ، والمؤيد بواحد من أولياء الله ، وكما يقول أحمد مرسى " فعثمان ليس شريراً بطبعه ، أو فاسداً عن رغبة منه فى الفساد ، والدليل على ذلك أنه عندما يتآخى مع الظاهر يتغير دوره ويتبدل حاله ، ويصبح ساعده الأيمن فى تحقيق الحلم المشترك، فهو لا يستطيع أن يبرم أمراً دون مشورته ، وهو الذى يدبر شئونه ، ويساعده فى مهامه الكثيرة ، ويخلّصه من المآزق التى يواجهها " (الفنون الشعبية ـــ العدد ٤٩) . إن عثمان بن الحلبى يمثل شخصية ابن البلد المصرى بعفويته وجرأته ، وميله إلى الدعابة والسخرية ، واستخدام الألفاظ النابية . وقد سعى الظاهر بيبرس إلى عثمان بن الحلبى ، مثلما سعى الحبلى إلى بيبرس . حاول كل منهما أن يتغلب على صاحبه ، ويزيحه من طريقه . وتتدخل السيدة نفيسة صاحبة المكانة الرفيعة فى نفوس المصريين [دعك من أنها رحلت قبل مجئ الظاهر ببضعة قرون !] فتوسطت بين الخصمين ، وبارك

الملك الصالح هذه المصالحة ، ومارس بيبرس أمور حكمه بنصح وتوجيه عثمان الحلبى ، ممثل الملايين من بسطاء المصريين ، حتى أن بيبرس لم يكن يقطع برأى دون مشورة عثمان..

الفنان ، الراوى ، الشعبى ، ليس مؤرخاً ، وليس مطالباً بأن يحافظ على الدقة التاريخية . إنه مثل أى مبدع ، لا يشغله سوى إثراء عمله الإبداعى ، قيمته الفنية والمضمونية . وبتعبير آخر، إنه لا يقدم رواية صحيحة ، لكنه يهبنا رواية مطلوبة . يطلبها الهدف الذى توخاه من كتابة السيرة . إنه يوظف الأشخاص والأحداث والأماكن فى خدمة ذلك الهدف ، فى التعبير عن المقولة التى يريد التعبير عنها . لا يهم أن يستبدل اسماً باسم ، أو يحور فى حادثة ، أو يخترع ما ليس له بالسيرة التاريخية صلة . لقد حفلت السيرة بالمعجزات والخوارق والمكاشفات الصوفية ، وتحول صلاح الدين من قائد عسكرى إلى زعيم دينى ، حتى انه دخل مصر فى موكب دينى ، وليس فى موكب عسكرى، وصعد إلى قلعة الجبل ، وجلس على الكرسى ، وحوله أولاد عمه. وأضيفت التاء المربوطة إلى " شجر الدر " فصارت " شجرة الدر" . وهى ليست جارية ، فأبوها هو الخليفة العباسى " شعبان

المقتدى بالله " . وكان أهم ما يميزها نفس طيبة متدينة عطـوف محسنة ، تتجول فى البلاد لتحسن إلى العباد . كما أصبح الصـالح نجم الدين أيوب مجذوبا من أهل الكرامات . ولقاسم عبده قاسـم بحث ممتع عن الخلط الشديد فى الأدوار والأحداث التاريخية الـذى تعمده الفنان الشعبى ، بما يوافق " العقليـة الشـعبية ، صاحبـة المصلحة الحقيقية فى الرواية " (الفنون الشعبية ـــ العدد ١٨)

أما الظاهر بيبرس ، فالثابت ـــ تاريخياً ـــ أنه خان الملـك المظفر قطز ـــ كم يمقت شعبنا الخيانة ! ـــ واغتاله ، واغتصـب الملك [قول أستاذنا عبد الحميد يونس بأن القارئ لمصرع تـوران شاه وقطز لا يملك نفسه على رغم تحايل القصاص من الاشتباه فى بيبرس ـــ (الظاهر بيبرس ٦٢ ، ٦٣) ـــ هذا القـول يـهمل الإدانة المؤكدة التى يجب أن توجه إلى القائد الذى خان وقتـل ، ليتولى الحكم بدلاً من السلطان الفعلى] ، وإن أتم ـــ فى الحقيقـة ـــ رسالة قطز ، وتحقق للدولة الإسلامية فى عهده ما يعد معـالم مهمة، ومتميزة ، فى تاريخها . مع ذلك ، فإن السيرة انتحلت لـه نسباً ملوكياً ، ونسبت أجداده وآباءه إلى دين الإسلام ، وأطلقت عليه اسماً عربياً ، وثقفته بثقافة عربية وإسلامية ، عـبر عنـها فى

فصاحة لسانه ، وحسن بيانه ، وصوته العذب فى تلاوة القــــرآن الكريم ، وإجادته ارتجال القصائد فى المواقف التى واجهــها ، ولأن الوجدان الشعبى يرفض العبودية ، فقد جعل الصالح أيوب يعتـــق بيبرس مرتين ، ويشهد على إعتاقه ، ويكتب الوثـــائق بذلـــك . بيبرس ــ فى الوجدان الشعبى ــ هو المخلّص " اظهر يا ظاهر " ، أشبه بالإمام المنتظر فى العقيدة الشيعية ، وإن اختلف بيبرس فى أنه ظهر للناس فعلاً ليرفع الظلم عن كواهلهم ، ويـــرد الأعــداء . وجعل الوجدان الشعبى حكام مصر فى تعاقبهم ، يوصون بـــالملك الظاهر بيبرس . هو صاحب الزمان المنتظر ، لا يستقدم ســاعة ، ولا يتأخر ساعة . بيبرس " هو المنقذ الذى طال توقعه ، ليتم مـــا بدأ صلاح الدين الأيوبى من تصفية آثار الحروب الصليبيـــة ، أو لينقذ العالم بأسره من ذلك المد المغولى " (الظاهر بيبرس ــ ١٤). وقد وصفته السيرة بأنه ذو الفتوحات الموعود مـــن الله بـــالنصر والتأييد . وعندما حان أجل بيبرس ، فإنه مات شهيداً بعـــد أن أدى فريضة الحج ، وزار قبر الرسول ..

لقد صور الوجدان الشعبى بيبرس كما يجب أن يكون عليه البطل ، بصرف النظر عن اجتهادات المؤرخين وأحكامهم . الأمر

نفسه بالنسبة لكل من قدمهم الوجدان الشعبى فى وضع البطولة .
إن للمؤرخين اجتهاداتهم وأحكامهم التى لا شأن للوجدان الشعبى بها .

وإذا كان مؤرخو العصور الوسطى قد عنوا بتاريخ الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء ، ومن يقترب منهم ، فإن المصريين جعلوا البطل الحقيقى فى السيرة البيبرسية هو الشعب المصرى نفسه، هو الذى التف حول الظاهر بيبرس منذ حداثته ، وقدّمه ، وحماه من المكائد والدسائس التى تعرض لها ، وجعله قريناً لشخصيات دينية مهمة ، مثل السيد البدوى ، وسيدى إبراهيم الدسوقى ، فضلاً عن عشرات الشخصيات من أبناء الحرف والصنايعية والبسطاء ..

***

وعلى الرغم من كل الإنجازات التى ترويها المصادر التاريخية ، فثمة من يؤكد على أن " الحدث التاريخى فى سيرة الظاهر بيبرس ليس له من أهمية ، إلاّ فى إتاحة الفرصة أمام كاتب السيرة ، لينسج أحداثاً روائية تبرز ألوان البطولة النفسية والجسدية للشعب العربى " (فاروق خورشيد : أضواء على السيرة الشعبية

ـــ المكتبة الثقافية ـــ العدد ١٠١ ـــ ص ٩٥) . بل إن " حركة المجتمع العربى تجاه الغزو الصليبى ، تمثل الهدف الاجتماعى لهذه السيرة ، وتعكس بهذا عناصر التوحد بين أبناء المنطقة العربية ، رغم اختلاف الأصول والأجناس " (المصدر السابق ص ١٠٢).

ويقول أحمد رشدى صالح : " عاش الظاهر بيبرس فى مسرح جغرافى تناول الشام ومصر ، ومس أشد المساس مصائر العراق ، بل العالم الإسلامى كله .. فهذا الفارس العظيم اشتهر باتخاذ موقف الصلابة فى الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه ، فكان هو أشجع فرسان عصره ، فى اقتحام المعارك ضد الصليبيين فى مصر ، وضد التتار فى الشام . وكان أحق الناس بأن يبدو فى ذهن الفنان الشعبى مثالاً للفارس العربى المؤمن ، الذى ينبغى أن يحيطه بملامح الشهامة والخبرة والشهامة ، وأن ينسب له كل تلك الفضائل التى استقرت فى ذهن العامة ، عن الشجاعة العربية " (الفنون الشعبية ـــ المكتبة الثقافية ٢٣ ص ٧٧) . تحددت المعارك بين فريقين : فريق العرب والمسلمين بزعامة بيبرس ، وفريق الصليبيين بزعامة جوان ، وتحول كل القادة فى ذلك العصر، إلى مجرد شخصيات هامشية ، تعمق الشخصية الرئيسة ،

ـتبرز دورها. فالمؤكد ، تاريخياً ـــ على سبيل المثال ـــ أن صلاح لدين الأيوبى قد خدم الإسلام والعروبة أضعاف ما قدم الظاهر بيبرس . إنه بطل تاريخى حقيقى بكل المقاييس . وكانت قيادته لقوات المسلمين ضد القوات الصليبية ، نقطة تحول إيجابية لصالح الأمة الإسلامية والعربية ، لكن الوجدان الشعبى يعنى فى السيرة الظاهرية بشخصية الصالح نجم الدين أيوب ، الذى جلب بيبرس ، وتعهده بالتنشئة ، بأكثر من عنايته بصلاح الدين الأيوبى ، الشخصية الأهم فى الحروب الصليبية . تحققت لصلاح الدين مكانته الفعلية بفضل نضاله ضد الصليبيين ، واسترداد بيت المقدس ، لكن السيرة الشعبية أهملت الحقيقة التاريخية ، لتحل بدلا منها صياغة فنية ، تحفل بالدلالات بأكثر من حرصها على الحقائق التاريخية المجردة . وبالتحديد ، فإن شخصية بيبرس لا ترقى ـــ فى أدائها التاريخى ـــ إلى مستوى شخصية صلاح الدين. فلماذا احتفت السيرة بالظاهر أضعاف حفاوتها بالأيوبى ؟..

ابن الأثير يرجع ذلك الأمر إلى أن صلاح الدين تساهل مع خصومه بما فاق الحدود ـــ وهو ما لا يغتفره الوجدان الشعبى الذى يعشق القوة والبطولة ـــ مع أن تساهل صلاح الدين يبدو

أقرب إلى التسامح الدينى وأخلاقيات الفروسية ، دون أن يفرّط فى حق الأمة العربية . فضلاً عن أن صلاح الدين وزّع إمبراطوريته ــ فى نهايات حكمه ــ بين أولاده وأخوته ، مما أضعف الدولة الإسلامية التى كان قد أفلح فى إنقاذها من غزوات الصليبيين (مجلة " المأثورات الشعبية " ــ إبريل ١٩٨٨) .

***

فماذا عن الظاهر بيبرس ؟

لعل أهم ما يحسب للظاهر بيبرس ــ فى تقدير الوجدان الشعبى ــ أنه أحيا الخلافة العباسية ــ ظاهرياً ــ مرتين بعد أن سقطت فى أيدى المغول ، ومنحته السيرة شرعية حقيقية ، وخلقت له نسباً ، فهو ابن الملك شاه جقماق ملك خوارزم ، مع أنه مجهول النسب ، وانه رقيق مملوك ، وانقلب على سيده ، واغتصب الحكم من الأيوبيين . وقد وصف النووى ــ فى واقعة شهيرة ــ ما كان عليه بيبرس ، قبل أن يستقر له الحكم ، وما أصبح عليه بعد أن أصبح سلطاناً " أنا أعرف انك كنت فى الرق للأمير بندقدار ، وليس لك مال ، ثم منَّ الله عليك ، وجعلك ملكاً ، وسمعت ان عندك ألف مملوك ، وعندك مائتا جارية ،

ولكل جارية حق من الحلى ..إلخ " (حسن المحاضرة ــ السيوطى ــ ج ٢ ــ ص ١٠٥) .

مع أن السيرة بلا مؤلف محدد ، فإنها تنسب نفسها ــ أو ينسبها واضعوها ــ إلى " السادات الكرام ، المشهورين بالعلم وعلو المقام ، نبراس الأفهام ، الديناري ، ووافقه على ذلك الدويداري . وهما بذلك أعظم داري . ثم ناظر الجيش وكاتم السر والصاحب ، فكل من هؤلاء له بحر فيها ، وما يخصها من معانيها ومبانيها ، وما أرخوه وما شاهدوه ، وما نقلوه عن السادة أخوانهم الذين يعتمدون من كلام الصدق عليهم ، وما عاينوه من كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء " (سيرة الظاهر بيبرس ــ طبعة محمد صبيح ــ بدون تاريخ ــ المجلد الأول ــ ص ٢) .

ولجوء الراوى إلى أسماء مؤرخين حقيقيين ، يهب المتلقى نوعاً من الإيهام بواقعية الحدث ..

ولعل أول ما يطالعنا فى تقديم السيرة الشعبية أن بيبرس كان شخصية درامية بما يحفل به من جوانب متناقضة ، فهو يميل إلى

التدين والتسامح مع الرعية ، ويأخذ أعداءه بقسوة بالغة ، واشتهر بالذكاء والقدرة على المناورة السياسية ، فى مقابل إيمان مطلق بالنبوءات والتنجيم والخوارق والمعجزات .

ومما أضاف إلى إعجاب العامة بالظاهر بيبرس حرصه على التقرب من أولياء عصره ، حتى أنه كان يسافر إلى طنطا لزيارة السيد البدوى ، والتبرك به . وقد انعكس تعاظم تيار التصوف ، وبروز أسماء مهمة مثل أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى وأبو القاسم القبارى والسيد أحمد البدوى ، تأييداً من الطرق الصوفية للظاهر ، واستئثاره بموضع مهم فى رواياتهم وأقوالهم . وهو ما تواصل ـ بدرجة وبأخرى ـ فى السيرة الظاهرية . كما لجأ الراوى الشعبى إلى الاختراعات الدينية ، بل وإلى الأساطير ليضيف إلى السيرة البيبرسية ، مثل مؤاخاة السيدة نفيسة بين عتمان الحبلى والظاهر بيبرس ، وجمع سيدى المغاورى بين الظاهر بيبرس وجمال الدين شيحة ، ثم جمعه بينهما والقائد البحرى محمد فارس البطريق المغربى ..

وكان بيبرس فى رواية القاص الشعبى أسطورى الملامح والتصرفات ، فهو فارع الطول ، أسمر اللون ، عميق الصوت ،

ملتمع النظرات ، نبيل ، عادل ، بالإضافة إلى انتصاراته العسكرية المهمة . وكان مثلاً للإيمان بالعدالـــة والطـــهارة ، وللجســـارة ومواجهة العقبات ، والتغلب عليها . استطاع فى كل الوظـــائف التى شغلها ، أن يكشف مواطن الفســـاد والانحـــلال والشـــر ، ويقضى عليها . ولما بذل جوان تآمره ضـــد بيـــبرس ، انتـــهت مؤامراته بكشف شخصيته ، وفراره . أما لماذا سمّـــى بالظـــاهر ، فلأن المماليك الصالحية ـــ كما تقول السيرة الشعبية ـــ دبّـــروا مؤامرة ، حكموا عليه فيها بالقتل توسيطاً مـــن قبـــل أن تبـــدأ المحاكمة. ومثل بيبرس أمام الملك الصالح ، فعفا عن بيبرس بعـد أن ظل يتمتم فى أثناء المحاكمة : " إظهر يا ظاهر واقصد حمـــاهم " . أدرك ـــ برؤى القوى الغيبية ـــ أن هذا هو البطل المرتقـــب فى حياة الشعب المصرى ..

***

أعاد الخيال الشعبى صياغة سيرة الظاهر بيـــبرس . ذكـــر حقائق ، وابتدع ، واختلق ، وأضاف ، وحذف ، بحيث جـــاءت شخصية الظاهر بيبرس فى الصورة التى أرادها لها الوجدان الشـعبى ، وليست الصورة التى كانت عليها بالفعل . لاعـــن رغبـــة فى

التدليس ، وإنما حرصا على أن يضع الشعب " بطله " فى المكانـــة التى يقدّر أنه يستحقها . نسب إليه من المعجزات والخوارق مـــا يرتفع به عن مرتبة الإنسان العادى ، يصبح أقـــرب إلى البطـــل الملحمى أو الأسطورى . يستحق أن يكون بطلاً لسيرة شـعبية . فقد اخترع الوجدان الشعبى ـــ مثلاً ـــ حكاية عن بيبرس ، دخل فيها رفاقه مدينة مسحورة ، أمضوا فيها ثلاثة أعوام ، تزوجـــوا فيها وأنجبوا . فلما غادروها تبين لهم أنهم لم يمكثوا فيها سوى ربع ساعة زمنية . وإذا كان الظاهر بيبرس قد عاش فى القرن الثـــالث عشر الميلادى ، فإن الوجدان الشعبى جعله يركـــب البحـــر إلى انجلترا لمفاوضة الإنجليز على الجلاء عن أرض مصر ، التى احتلوهـا فى أواخر القرن التاسع عشر . واستمرت مفاوضاته مع الحكومـــة البريطانية سنة وربع السنة ، ووقع الطرفان على اتفاقية للجـــلاء ، ثم عاد بيبرس على نفس المركب التى سافر عليها (سيرة الظـــاهر بيبرس البندقدارى ـــ مطبعة الأهالى ـــ الإســـكندرية ـــ بـــدون تاريخ) .

***

ولم يكن بيبرس فى السيرة بمفرده . أضاف إليها الـــراوى مجموعة من الشخصيات الشعبية ، تعبر عن قيم الشعب المصرى ، وتبذل لبيبرس النصيحة ، وتساعده ، وتقاتل ضد كل رموز الشـر والعداء التى هددته ، بالإضافـــة ـــ طبعـــاً ـــ إلى الشـــخصيات التاريخية التى بدل فيها الراوى الشعبى ، وأضـــاف ، وحـــذف ، وحملها ما يحمله ، ويتطلع إليه ، من قيم ومثل وأخلاقيـــات . ثم توارثتها أجيال المصريين من رواة ومتلقين ، حتى ذهـــب بعـــض الباحثين ـــ كما أشرنا ـــ إلى أن الشعب المصرى هـــو البطـــل الحقيقى فى السيرة البيبرسية ، ممثلاً فى الشخصيات الشعبية الـــتى التفت حول الظاهر منذ البداية . (قاسم عبده قاسم ـــ الفنـــون الشعبية ـــ العدد ١٨) .

واللافت أن السيرة البيبرسية قد عنيت بالبطل الاجتمـــاعى ، أكثر من عنايتها بالبطل السياسى أو العســـكرى . إن بطولتـــه الحقيقية ـــ فى السيرة ـــ هى بطولة اجتماعية ، داخلية ، وليســـت بطولة عسكرية خارجية (حكايات الشطار والعيـــارين ص ٣٠٥) ، وإن كان ستانلى لينبول يعلل بعض الفضل فى بقـــاء بيـــبرس طويلاً فى منصبه " إلى تلك الحروب الرائعة التى قام بها فى سوريا "

(ستانلى لينبول : سيرة القاهرة ـ ت . حسن إبراهيم حسن وآخرين) .

***

قدمت السيرة عثمان بن الحبلى على أنه كان أكبر رأس تخاف منه الحكومة والشعب فى آن ، فقد زكمت رائحة فساده الجميع ، وعجزوا عن مقاومته ، أو الوقوف فى طريقه . ووصفت السيرة الحبلى بأنه " رجل جبار ، لا يصطلى له بنار فى أرض مصر ، لا يبالى من الأكابر ، ولا من الأصاغر . وقد عجزت الحكومة عن مواجهته ، كأنه عفريت من عفاريت سليمان ، وله من المجاويد ثمانون يجتمعون به فى ملعب ابن طولون الذى يطلق عليه مجمع العياق " قاعة الزعر " . وأهل مصر يوقرونه لقوته وجبروته ، ولا يرهبون أحداً مثله ، فهو الذى قتل الولاة وطرد الوزراء دون أن يحفل بواحد منهم ، ولا حتى بيبرس ، ولا يعمل حساباً لجندى ، ولا لغير جندى .. حتى يبلغ خوف قضاة مصر منه أن يجعلوا الحق باطلاً ، والباطل حقاً من أجله ، حتى لصوص مصر وشطارها وعياقها وزعارها ، لا يخافون من الله مثلما يخافون منه " .. " . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان عثمان بن

الحبلى هو الشخصية المقابلة لشخصية جوان الشـــريرة . وقــد استطاع أن يكشف الدسائس والمؤامرات مزوداً بقدرات الولايــة والعمل الباطن . لذلك سماه أصحاب السيرة " القطب الكبــير " . وقد حذر جميع سلاطين مصر بيبرس ــ فى بداية بــزوغ نجمــه السياسى ــ من مغبة الاصطدام مع عثمان بــن الحبلــى " وإلاّ انخرطت هيبته فى مصر كلها ، وهيبة السلطنة معه " ، بل إن الأغا شاهين وزير الملك الصالح ، راح يحذر بيبرس بقوله : " إيّــاك، ثم إيّاك أن تستخدم رجلاً يقال له عثمان بن الحبلى ، لأنه رجــل لا يصطلى له بنار فى أرض مصر ، وقد أذل أهلها وبلاهم بالقــهر ، وما دأبه إلاّ خطف العمائم ، ولا يبالى مــن الأكــابر ولا مــن الأصاغر . وقد جائتنى فيه شكايات ... وأنا أعيّن لــه الأمــراء والجند ، وأطلب منهم أن يقبضوا عليه ، ويحضروه إلىّ ، فما يقدر عليه أحد ، وقتل من الأمراء سبعة ولاة . وكلما لبس وال يقتلــه ولا يبالى ، وقد قطعت عليه سبعة فرمانات بختم الســلطان : أن يُقتَل موضع القبض عليه ، فلم يتمكن أحد من ذلك ، وبعدمــا ركبت أنا ورجالى ، فطردونى إلى الديوان " . وأظــهر العامــة تعاطفاً مع عثمان ضد المملوك الجديد بيبرس . كما أعجب بــه

الملك الصالح رأس السلطة الشرعية ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام رأس الزعامة الدينية ، وأوصى الصالح بيبرس ـ إذا شاء أن ينجح فى السلطة ـ أن يستمع إلى نصائح ابن الحبلى ، ويعمل بمشورته ، ولا يخالف أمره . وكاد بيبرس يدفع حياته مقابلاً للوصول إلى عثمان ، والقضاء عليه ، لولا تدخل القوى الروحية التى استشرفت الغيب ، فى إنهاء الصراع المرتقب . آخت السيدة زينب بينهما ، وأخذت عليهما العهد معاً ، فلا يخون أحدهما الآخر ، لثقتها فى أن سعادة عثمان بن الحبلى مقرونة بسعادة بيبرس ، وجمعت بينهما بالصلح ، والمؤاخاة بينهما فى عهد الله . وتاب عثمان بن الحبلى ـ أكبر عيَّاق عصره وشطَّار مصر ـ على يدى بيبرس ، حتى لقد وافق ـ فى تصرف لا يخلو من دلالة رمزية ! ـ على أن يعمل سائقاً للخيل عند بيبرس ، وفارسه فوقه، وسار بهما فى شوارع مصر ، يدل بيبرس على مواطن الفساد والشر ، توصلاً إلى مجتمع " العدل والإنصاف " ، المجتمع المنشود الذى صار يبحث عنه كل من بيبرس وعثمان (حكايات الشطار والعيارين ص ٣٠٤) . أيقن " بيبرس " أن المسئولين الذين حاولوا الإساءة إليه ، وإلى ابن الحبلى ، هم اللصوص

الحقيقيون ، وليس ابن الحبلى ، وأن معركته الحقيقية يجب أن تتجه نحو هؤلاء اللصوص ، قبل أن يتولى سلطنة مصر ، أو إذا أراد أن يتولى السلطنة . ويلاحظ محمد رجب النجار أنه كلما تولى بيبرس منصباً رسمياً ، قلد ابن الحبلى منصباً شعبياً مماثلاً (حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى ص ٣١٠) ، ولكن تولى بيبرس السلطنة كان بداية مرحلة جديدة فى حياته ، وحياة مصر والعرب ، وكان ــ فى الوقت نفسه ــ بداية اختفاء دور عثمان بن الحبلى بكل دلالاته . أمضى بيبرس ــ حسب رواية السيرة ــ سبع سنوات ، قبل أن يتولى عرش مصر . وكان قد تعرف ــ بفضل عثمان بن الحبلى ــ إلى ما تعانيه البلاد ــ مصر والشام ــ من مظاهر الفساد ، ويفلحان ــ بالفعل ــ فى إجراء حركة تطهير واسعة ، انطلاقاً ــ فيما بعد ــ لملاقاة العدو الخارجى " غدا بيبرس القائد مهيئاً لأن يلعب دوره التاريخى فى مواجهة الغزو القادم من الغرب الصليبى ، والشرق التترى المجوسى، بعد أن أرسى ــ بالتعاون مع عثمان ــ دعائم المجتمع الجديد من الداخل " (المصدر السابق ص ٣٠٤ ، ٣٠٥) . ويقول محمد رجب النجار : " لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن بطولة

بيبرس الحقيقية فى السيرة ، تتجلى فى هذه البطولة الاجتماعية ، لا العسكرية الخارجية . بل لا نعدو الحقيقة أيضاً إذا قلنا إن أهم ما تمتاز به هذه السيرة عن غيرها من السير الشعبية ـ فنياً وموضوعياً ـ هو هذا الجانب الذى لعب فيه عثمان بن الحبلى دور البطولة ـ جنبا إلى جنب ـ مع بطلها الملحمى بيبرس ، للقضاء على كل ألوان القهر السياسى والاجتماعى والاقتصادى والنفسى التى يعانى منها الشعب العربى على مر العصور المملوكية، تمهيداً لانتشاله من حمأة الهزائم الخارجية المتوالية . ولهذا أيضاً لا غرو أن يحتفى الوجدان الشعبى بالظاهر بيبرس ـ فى السيرة ـ وهو فى طريقه إلى السلطة ـ مرحلة تحقيق العدل الاجتماعى ـ أكثر من احتفائه به وهو متربع عليها، تأكيداً لكون العدل الاجتماعى هو المنطلق الصحيح للعدل السياسى ، ومن ثم يمكن أن يتحقق النصر الخارجى ، فينجح بيبرس السيرة ، لا التاريخ ، فى إعادة الإمبراطورية الإسلامية إلى سابق عهدها " (المصدر السابق ـ ص ٣٠٥).

لقد حل دور جديد هو الاتجاه إلى الخارج درءاً للغزو الصليبى ، والغزو المغولى ، يعاون بيبرس فى ذلك جمال الدين

شيحة زعيم الفداوية ، وأبو بكر البطرنى قرصان البحر المغـــربى " واللافت للنظر أن البطلين كليهما ، مـــن طوائـــف اللصـــوص المتمردين لا يزال أحدهما معروفاً عند العامة حتى اليوم ، فى أمثالهم الشعبية ، فيقولون ملاعيب شيحة ، للدلالة على البراعة فى الحيلـة والتمويه والتفنن فى سرقة الخصوم " (المصدر السابق ص ٣١٦) . وكان أول ما فعله بيبرس ــ بعد توليه " سلطنة مصر والشـــام وبلاد العرب والمغرب " ، إخراج الشيخ العز بن عبد السلام مـــن سجنه ، والخلع عليه ، وإلباسه " قاضى قضاة المسلمين" . ثم أمـــر أن تنقش على بيارق السلطان وبيارق المماليك شعار " لا ظلـــم بعد اليوم ، لا أفلح من ظلم " . وتقول السيرة : " وعندئذ استقام أمر الرعية ، وشاع العدل والإنصاف ، وزال البغى والإســـراف ، ولم يبق أحد بتعرض لظالم ، وأخذ بيبرس الدعاء من جميع الأنام " .

***

يسرف الراوى فى وصف شخصية " عبد الصليـــب " ــ كبير جواسيس الصليبيين ، الذى يعرف فى السيرة بإسم " جـوان" فيقدمه مؤلف السيرة فى المجلد الأول من سيرة الظاهر بـــالقول :

"كان فى قديم الزمان ، وسابق العصر والأوان ، فرقة من العـــرب يقال لهم طائفة بنى سليم ، وكلهم كانوا مسلمين، فتخلف منــهم رجل يقال له عقبة اللعين ابن مصعب . وكان داخله الغـــرور ، يوقع الفتن , ويخبر كل الأمور ، حتى أشرك بالله تعــالى ومحمــد رسوله صلى الله عليه وسلم . وقد تقدمت قصته فى غـــير هـــذه السيرة " ذلك لأن عقبة بن مصعب هو أحد أفراد قبيلة بنى سـليم ذات التصرفات الشريرة فى سيرة الأميرة ذات الهمة . جـــوان فى السيرة الظاهرية امتداد لعقبة فى سيرة ذات الهمة ، فقد أنجب عقبة الأبناء ، وأنجب الأبناء الأحفاد ، وكان جوان من هؤلاء الحفدة .
جوان ـــ أو القاضى صلاح الدين ـــ الذى تولى منصب القــاضى المسلم المتعمق فى أحكام الشرع والسنة ليس إلاّ نصرانياً عميـــلاً لأعداء الإسلام من ملوك الصليبيين . إنه " خليفة إبليس التعيس"، وعلى الرغم من ادعائه التدين ، فإنه قد جعل همه العمـــل ضـــد الإسلام والمسلمين ، وضد المسيحيين أيضاً (أحمد مرسى : عـــالم الفكر ـــ المجلد السابع عشر ـــ العدد الأول). لقد تعددت مكائد جوان ضد بيبرس ، فى المقابل من تعـــدد انتصـــارات بيـــبرس : ويلاحظ أحمد مرسى أن الشر فى شخصية جوان ليس مبرراً ، فلا

يوجد دافع واضح يدفع إليه ، مهما حاولت السيرة أن تؤكد أن هذا الشر متأصل فيه ، ورثه عن أبيه، وأنه ابن سفاح ، وأنه كان مدفوعاً بحقد دفين مجهول السبب ، ودفعه لأن يناصب الجميع العداء ، وأسباب أخرى غيرها (المصدر السابق) . أما عبد الحميد يونس فيذهب إلى أنه " لولا أن هذه الشخصية هي مدبّرة الشر ، لقلنا إن هذه السيرة أحرى بها أن تكون سيرة جوان ، لأن حوادث القصة كلها تكاد تكون بتدبيره ووصيته " (الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى٧٠).

***

ولعل من أهم الشخصيات فى السيرة البيبرسية ، الصالح نجم الدين أيوب . يصفه المقريزى بأنه " كان ملكاً شجاعاً حازماً مهيباً ، لشدة سطوته ، وفخامة ناموسه ، مع عزة النفس وعلو الهمة ، وكثرة الحياء والعفة ، وطهارة الذيل عن الخنا ، وصيانة اللسان من الفحش فى القول ، والإعراض عن الهزل والعبث بالكلية ، وشدة الوقار ، ولزوم الصمت ، حتى أنه كان إذا خرج من عند حرمه إلى مماليكه ، أخذتهم الرعدة عندما يشاهدونه خوفاً منه ، ولا يبقى منهم أحد مع أحد ، وإذا جلس مع ندمائه، كان صامتاً لا يستفزه الطرب ولا يتحرك ، وجلساؤه كأنما على

رءوسهم الطير ، وإذا تكلم مع أحد من خواصه كان ما يقولـــه كلمات نزرة ، وهو فى غاية الوقار . ومع هذه الشهامة والمهابة ، لا يرفع بصره إلى من يحادثه ، حياء منه وخفراً ، ولم يسمع عنـه قط فى حق أحد من خدمه لفظة فحش ، وأكثر ما يقول إذا شتم أحداً " متخلف " ، لا يزيد على هذه الكلمة ، ولا عرف قط من النكاح سوى زوجته وجواريه " (خطط المقريزى جـ ١ ص ٣٣٩) . وقد مات الصالح أيوب فى ساحة المعارك ، بعد أن عانى تأثيرات المرض القاسية . لذلك أعادت السيرة تقـديم الرجـل، أعادت صياغتها بحيث صار مجذوباً من أهل الكرامات ، ينكشف عنه الحجاب ، ويأتى بالخوارق والمعجـزات ، وتصـدر عنـه الكرامات . فهو " الملك الصالح ، والزناد القادح ، والبحر المليان السايح ، الصالح أيوب ولى الله المجذوب ، ابن الفاضل بن الكامل بن سعيد السعدا بن شهيد الشهدا ، ينسب إلى حبيـب النجـار الذى ينسب إلى سيدنا نوح عليه السلام " (السيرة ـ جـ ١ ـ ص ٢٧٦) . وتصفه السيرة بأنه " زهد فى الدنيا ، ورغـب فى الآخرة ، وقرأ القرآن ، وعرف الحلال من الحرام ، فعبد الملك العلام ، وصار من عباد الله الصالحين ، وهو من صغر سنه علـى الفلاح واليقين ، ولا يجالس أهـل الدولـة ، ولا يحضرهـم فى

حكومة ، فسموه الأكراد الصالح نجم الدين أيوب ، ولى الله المجذوب . ولما تولى السلطنة اشترط على نفسه ألاّ يأكل من السلطنة ، ولا يأخذ شيئاً من أموال المملكة ، ولا يأكل سوى من كسب يده " (السيرة ــ جـ ١ ــ ص ٩) . وقد احتمى بالصوفية بعد أن استأثر بالسلطة جنده من المماليك المرتزقة . وجعلته السيرة واحداً من أصحاب الكشف ..

***

أما شجر (شجرة) الدر ، فقد كانت ــ فى رواية السيرة ــ ابنة للخليفة العباسى ، وكانت أول ما أنجب من بنات، واختار لها اسم " فاطمة " . فلما بلغت السابعة ، أمر أن تصنع لها بذلة من الدر . ودخل الخليفة السجن ــ كمألوف العصر ! ــ وأخرجه صلاح الدين الأيوبى . وجاءته فاطمة وهى ترتدى بدلة الدر ، فقال لها الأب : إنها مثل شجرة الدر ، " فكنيت بشجرة الدر من تلك الساعة، أو بعد ذلك، (السيرة ــ ج ١ ــ ص ١٣)

وتاريخياً ، فإن الصالح أيوب وشجر الدر لم يلتقيا ، لكن الفنان ، الراوى ، الشعبى ، أراد أن يؤكد عدم شرعية حكم الأيوبيين لمصر ، فبينما الملك الصالح جالس ــ الرواية للفنان

الشعبى ــ دخل عليه أربعة ، قبّلوا الأرض بين يديه ، فقال الملك الصالح : ما الخبر ؟.. قالوا : يا أمير المؤمنين ، إننا رسل السيدة فاطمة شجرة الدر ، بنت أمير المؤمنين المقتدر بالله تعالى ، وقد أمرتنا أن نقول لك إن الأرض أرضها ومصرها ، وإن حجتها معها ، وهى تأمرك أن تنزل من على التخت ، وهى توليه لمن تريد من السادات أو العبيد " (السيرة ــ ج ١ ــ ص ٣٧) .

وقد زوجت السيرة شجرة الدر من الصالح أيوب ، حتى تثبت ملكه ، فلم تجلسها على عرش مصر ، كما نفى عنها الفنان الشعبى صفة العبودية ، وجعلها ــ كما سلف ــ ابنة للخليفة العباسى ، بل لقد جعلت السيرة شجرة الدر تحيا عدة أجيال ــ بدايات الواقعية السحرية ! ــ منذ زمن صلاح الدين ، حتى زواجها من الصالح أيوب . وكما يقول الدكتور قاسم عبده قاسم ، فربما أعاد الوجدان الشعبى إنتاج شخصية شجرة الدر فى هذه الصورة التعويضية ، تقديراً لدورها فى الدفاع عن البلاد (الفنون الشعبية ــ العدد ١٨) .

تصدت شجرة الدر ــ باقتدار ــ للعدوان الصليبى . قامت ــ بعد وفاة زوجها ــ بدور السلطان ، فلم يعرف الناس بوفاته إلاّ بعد أن استقرت الأوضاع ، وبالتحديد : بعد أن

سلمت شجرة الدر مقاليد الحكم لابن زوجها السلطان الشاب توران شاه ، الذى تولى قيادة الجيش بنفسه . وكانت القوات المصرية قد انتصرت على الصليبيين فى المنصورة فى ٨ فبراير ١٢٥٠ م . وجرت المعركة الرئيسة ضد جيش الصليبيين ناحية فارسكور ، وتشرذمت القوات الصليبية بين قتيل وجريح وأسير ، وكان بين الأسرى الملك لويس التاسع .

***

وقد تجاهلت السيرة خلفاء صلاح الدين الأيوبى والصالح أيوب ، وأخذت موقفا عدائياً من عز الدين أيبك ، ذلك لأنهم – فى تقدير الوجدان الشعبى – خانوا القيم والمثل ، وعملوا لأنفسهم ، وأضرّوا بالمصالح العامة . وإذا كانت السيرة قد اتخذت من عز الدين أيبك موقفاً عدائياً ، ورمته بالانتهازية والعدوانية والخيانة والظلم . فإننا نجد فى " السلوك " للمقريزى ما يدعم هذا الرأى ، فهو قد " قتل خلقاً كثيراً ، وشنق عالماً من الناس بغير ذنب ، ليوقع فى القلوب مهابته ، وأحدث مظالم ومصادرات عمل بها من بعده " (السلوك – المقريزى – جـ ١ – ص ٤٠٤)

***

لعله يمكن تلخيص سيرة الظاهر بيبرس فى مقاومة الثـلوث : الغزو من الخارج ، التفتــت فى الداخــل ، غيــاب العدالــة الاجتماعية (عباس خضر : أدب المقاومة ـــ دار الكاتب العــربى للطباعة والنشر ـــ ص ٢٤) . جعل الوجدان الشعبى من الســيرة الظاهرية رمزاً لكل الرموز الاجتماعية والأخلاقيات المصريـــة . كما أحاطه الوجدان الشعبى "بمجموعة من الشخصيات الشـعبية التى تجسّد الشعب المصرى ، تحيطه بالرعاية ، وتمهد الطريق أمامه، وتبذل له النصيحة ، بل تقاتل من أجله ضد رموز الخديعة والشــر والعداوة " (قاسم عبده قاسم : الفنون الشعبية ـــ العـــدد١٨). وكما تقول السيرة البيبرسية ، فقد أحب بيبرس مصر، وهو مـــا يزال بعد فى بلاد الشام ، وتمنى أن يسافر ـــ يطـــير ـــ إليــها. ولاحظ الدكتور محمد رجب النجار أن السيرة أرجــأت بلــوغ بيبرس عرش مصر سبع مرات ، حتى وقف بنفســـه ـــ بفضــل عثمان بن الحبلى ـــ على مظاهر الفساد الداخلى فى مصــر أولاً ، والشام ثانياً " حيث يفلحان فى القيام بأكبر حركة تطهير داخلية، يركز عليها أثر فنى شعبى عربى ، بغير استثناء ، لينطلـــق ســائر الأبطال بعد ذلك لمواجهة العدو الخارجى . وإذا كان بيبرس قــد تولى الحكم بعد أن حقق صلاح الدين انتصاراً ســـاحقاً علــى

الصليبيين فى معركة حطين ، وبعد أن دحر قطز قوات التتـــار فى موقعة عين جالوت ، فإنه كان على بيـــبرس أن يلاحـــق بقايـــا الصليبيين ، ويواجه الزحف التترى ، ويقضى عليه فى المناطق الـتى يغير عليها . وقد أصبح بيبرس القـــائد مـــهيئاً لأن يلعـــب دوره التاريخى فى مواجهة الغزو القادم من الغرب الصليبى ، والشـــرق التترى المجوسى ، بعد أن أرسى ـــ بالتعاون مع عثمان ـــ دعـائم المجتمع الجديد من الداخل " (د . محمـــد رجـــب النجـــار ـــ حكايات الشطار والعيارين فى التراث العـــربى ص ٣٠٤ ومـــا بعدها) . كان شديد الحفاوة بالمظاهر الدينية ، فقد حج إلى بيـــت الله الحرام ، وغسل الكعبة بيديه بماء الورد . وكان أول من أمـــر بأن يطوف المحمل وكسوة الكعبة المشرفة فى القاهرة ، وأجـــرى على أهل الحرمين والحجاز ، ورتب فى رمضان ما نسميه بلغـــة عصرنا " موائد الرحمن " ، وأوقف وقفاً خاصاً بتكفـــين الموتـــى الغرباء ، وأعاد الصلاة إلى الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم بـــأمر الله . وكانت الصلاة قد أوقفت فيهما منذ العصر الأيوبى .

ومما يحسب لعهد بيبرس إقدامه على تتويب الخاطئـــات ، وتزويجهن .. حتى لم يبق فى البلد خاطئة . وأمر ، فأريقت الخمور ، ومنع الناس من عصر العنب ، ونودى أن من تخلف عنده شـــئ

من الشراب يكون ماله ودمه للسلطان . ودفع الكثيرون حياهم بالفعل ثمناً لذلك . يقول المقريزى : " وكتب بإزالة الخمور وإبطال المفاسد والخواطئ من القاهرة وجميع أعمال مصر ، فتطهرت كلها من المنكر ، ونهبت الحانات التى جرت عادة أهل الفساد الإقامة بها ، وسلبت جميع أموال المفسدات ، وحبسن حتى يتزوجن ، ونفى كثير من المفسدين : (المقريزى ـ السلوك ـ ج ١ ـ ص ٥٧٨) . وكان أهم مبادرات بيبرس : إحياء الخلافة ، ونقلها إلى القاهرة ، وصارت مسئوليتها الدفاع عن الإسلام ، وعن الأرض العربية ، ضد قوات الغزو ، ما بين صليبية وتترية ، وجعل من دولة سلاطين المماليك ـ عموماً ـ قوة لها تأثيرها بين القوى العالمية ..

***

السيرة البيبرسية ـ فى بعد مهم آخر ـ تجسيد نفسى للبطولة عند المصريين ضد الغزو من الخارج . كانت هزيمة بيبرس للصليبيين فى موقعة المنصورة (٦٤٧ هـ) محور الارتكاز فى السيرة الظاهرية جميعاً . وكما تقول نبيلة إبراهيم ، فحين اشتد ساعد الصليبيين ، وأسرفوا فى التطاول على البلاد العربية ـ بعد وفاة صلاح الدين ـ أفلح الظاهر بيبرس فى أن يهزمهم فى موقعة

المنصورة ، ودحرهم تماماً ، فوجد فيه الشعب العربى بطلاً حيـاً يجد فى بطولته امتداداً للبطولة القديمة الممثلة فى عنترة . (البطولات العربية والذاكرة القومية ــ ١٧٦)

لقد انتقم بيبرس من الأعداء الذين هاجموا دار الإسـلام ، وضربوا ديار المسلمين . غزا المغول أقطار العـالم الإسـلامى ، واجتاحوا ولايات الخلافة العثمانية . لكن راوى السيرة البيبرسـية يحولهم ، فى صياغة شعبية تعويضية ــ والتعبير للدكتـور قاسـم عبده قاسم ــ إلى مهزومين فى الكثير مـن المواقـف (الفنـون الشعبية ــ العدد ٢٤ ــ ص ٢٣) . حتى قوى الخير الغيبيـة ، وقفت إلى جانب بيبرس ، تؤيده بدعمها الروحـى ، وتسـانده بجيوشها غير المرئية : السيدة حسنة الدمشقية فى الشام ، والسـيدة فاطمة الأقواسية فى مصر ، وعثمان بن الحبلى وأولاد الحسـينية والأشراف . وكان الخضر ــ عليه السلام ــ هو الـذى علـم بيبرس الحروب كلها . ولا يخلو من دلالة ، ما روته الحكايـات عن خروج الملك الظاهر بيبرس على رأس الشعب المصرى جميعـاً لاستقبال السيد أحمد البدوى عند قدومه إلى مصـر ــ للمـرة الأولى ــ فى ٦٢٢ هـ .

ويخبر المنجمون بيبرس بأنه يقضى شهيداً فى ميدان القتـلل، كما يشاء رب العباد ، وتنقل من دار الفنـــاء إلى دار البقـــاء ، وتجاور الصالحين ، فقال بيبرس : الحمد لله رب العالمين (ســـيرة الظاهر بيبرس ـــ المجلد الأول ـــ ص ٥٤١) .

***

يروى فاروق خورشيد فى ذكريات صبـــاه فى الأحيـــاء الشعبية : " وكانت السيرة المحبوبة فى هذه الأحياء ، إنما هى سيرة الظاهر ، فهى تكاد تدور فى حوارى هذه الأحياء ، وتكاد أسمـــاء أبطالها تتشابه مع أسماء أبنائها ، بل يهمس بعضهم إلى بعـــض ان الجمالية فيها حارة " برجوان " حيث كان اللعين " جوان " يقيـم الكنيسة تحت مترله ، لتكون نصراً لأعداء المسلمين . وكــــان لى قريب يهوى ـــ حين عودتنا من السهرة ـــ أن يجعل النوم متعذراً علىّ بحكاياته التى يراها أبناء الحى فى حارة برجوان هــــذه ، وفى بيتها الكبير المسكون الذى هو كما لو كان بيت "جوان " نفسه" (الجذور الشعبية للمسرح العربى ص ١٠٩ـــ الهيئة ـــ١٩٩١)

يبقى أنه رغم كل تلك المكانة التى احتلـــــها بيـــبرس فى الوجدان الشعبى ، فإن مسجد الظاهر بيبرس فى حى الظاهر تحول ـــ فى بعض الفترات ـــ إلى مذبح للإنجليز ، وتحول ـــ فى فـترات

تالية ـــ إلى مخازن لتجار الخيش . أما المدرسة البيبرسية فى شــارع المعز ، فقد تحولت إلى دكان لبيع مستلزمات الشيشة (أيام لهـــا تاريخ ٣٧) .

السيد أحمد البدوى

مولــدى الغــرب والحجــاز بلادى   ورياضى
ومكــة مــــرباتى
لى مقــــــام بأرض طنت شريف   فيه حكمى
وسطوتـــى ورضائى

فى طبقات المناوى ، ينتسب السيد أحمد البدوى إلى بنى برى فى بلاد الشام . والده هو السيد على البدرى الشريف العلوى ، وأمه هى السيدة فاطمة بنت محمد بن أحمد بن عبد الله، ويتصل نسبها أيضاً إلى الإمام الحسين (محمد فهمى عبد اللطيف: السيد البدوى ـــ ص ٣١) وقد رحل والده بأسرته إلى مدينة فاس بالمغرب . أما بقية المؤرخين فهم ينسبون السيد البدوى إلى أسرة علوية شريفة كانت تقطن مكة . فلما تفاقمت الصراعات بين العلويين والأمويين ، واقتحم الحجاج بن يوسف الثقفى الحجاز ، هاجرت أسرة البدوى ضمن مئات الأسر العلوية من الشام والعراق إلى مصر وبلاد إفريقية . استقرت الأسرة فى الغرب من حوالى عام ٧٣ إلى عام ٦٠٣ هـ ، أى أكثر من خمسة قرون . دفعها إلى طول الإقامة أن بلاد المغرب أصبحت مجالاً لدعوات العلويين . ثم قامت فيها الدولة الفاطمية . فلما بدأ الجزر فى أيام الفاطميين ، عادت أسرة البدوى إلى مكة ، باعتبارها الموضع

الأنسب لنشاطها الديني (محمد فهمي عبد اللطيف : السيد البدوى ـ ص ٣٠ ـ ٣١) .

قيل إنه ولد في زقاق الحجر بمدينة فاس بالمغرب سنة ٥٩٦هـ . وكان أصغر ثمانية من أخوته ، وإن قصرت روايات أخرى عدد الأخوة على سبعة ، ثلاثة ذكور وأربع إناث ، ربما ـ كما يقول محمد فهمي عبد اللطيف ـ لتحقيق المشابهة بما هو مأثور عن أبناء النبي صلى الله عليه وسلم (المصدر السابق ـ ص٣١)

بشّرت أمه برؤيا سبقت ميلاده ، وهى " أبشرى ، فقد ولدت غلاماً ليس كالغلمان . وقيل إن أولياء ما وراء البحر المحيط ، وسائر البلاد والجبال حضروا مولده (عرفة عبده على : مملكة الأقطاب والدراويش ـ هيئة قصور الثقافة ٢٢٠) . وكان نوره كالمصباح لكثرة ضيائه وحسنه ونوره " (أدبيات المأثور الشعبى فى مولد السيد البدوى ـ هيئة قصور الثقافة ١٤) .

وكما قلت، فثمة مؤرخون يرجعون أصل البدوى إلى العلويين الذين كانوا فى الحجاز ، يرتفع نسبه إلى على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب . وهذا النسب تناولته التراجم

القديمة ، ونقش على مقصورة ضريح البدوى بطنطا . وعندما غادر مكة ، كان يحتفظ بشجرة نسبه . ثم رحل قومه — أيام الأمويين — إلى بلاد المغرب، واستقر جيل منهم فى فاس ، بينما عاد والده إلى موطنه الأصلى فى مكة ، ومعه ابناه حسن وأحمد . وكان ذلك برؤيا أخرى رآها والده الشريف على بن إبراهيم تأمره بالرحيل ، فرحل فى ٦٠٣ هـ ومعه أولاده ، ومنهم السيد أحمد البدوى والابن الأكبر حسن . ومات الأب فى مكة عام ٦٢٧ ، فتولى الشريف حسن رعاية أخيه أحمد البدوى ، فأقرأه القرآن الكريم . ثم تغيرت أحوال السيد البدوى ، فاعتزل النلس ، ولزم الصمت ، و لم يعد يكلم الناس إلاّ بالإشارة . وسافر أحمد البدوى إلى العراق — وكانت مركزاً من مراكز التصوف الإسلامى ، وموطن القطبين أحمد الرفاعى وعبد القادر الجيلانى — ثم غادر العراق إلى مكة ، ثم سافر من مكة فى ٦٣٤ إلى طنطا، فوصلها بعد ثلاث سنين ، وإن أكد بعض رواة سيرته انه قطع المسافة بين مكة ومصر فى إحدى عشرة خطوة . والأرجح انه لم يذهب إلى طنطا مباشرة ، وإنما أقام فى القاهرة زمناً ، وتقاطر عليه الأتباع والمريدون ، فزينوا له السفر إلى طنطا ،

والإقامة بها . ومن الروايات التى تحيط بها الشكوك ، وأنها ربما كانت مختلقة ، صراع السيد البدوى ـــ إبان أقامته فى العراق ـــ وفاطمة بنت برى ، وهى امرأة بدوية تنتمى إلى إحدى العشائر فى شمال العراق . وكانت ذات جمال ، ولها قدرة على الإغراء وفتنة الرجال ، ورجال الصوفية بخاصة . حاولت فاطمة بنت برى أن تستميل السيد البدوى ، لكنه صدها ، ولقنها درساً بليغاً. وثمة رواية ثانية ـــ أشرنا إليها ـــ عن استقبال الظاهر بيبرس للسيد البدوى عند قدومه إلى مصر . كان استقبالاً طيباً ، بذل فيه بيبرس الكثير من الاحترام والتقدير والود . وروايات أخرى تدين لخيال الفنان الشعبى بأكثر مما تدين للواقع . بل إن المحقق أحمد شاكر وجد فى السيد البدوى خرافة " تجسمت فى أوهام الناس ، حتى صارت عقيدة راسخة ، كمثل ما يعتقدونه فى الشيخ الأربعين والشيخ المتولى ، وغير ذلك من الشيوخ الذين لا حقيقة لهم إلاّ فى أوهام العامة والجاهلين " (محمد فهمى عبد اللطيف : السيد البدوى ـــ ص ٢٨) .

***

لماذا اختار السيد أحمد البدوى طنطا موضعاً لإقامته ؟ لماذا أهمل اختيار القاهرة أو الإسكندرية أو المحلة الكبرى ، عاصمة الغربية منذ الفتح العربى ؟

الإجابة التى يكاد يجمع عليها مؤرخو الشيخ أنه استجاب إلى ذكائه وفطنته . لاحظ أن القاهرة زاخرة بأضرحة آل البيت والأولياء . الأمر نفسه بالنسبة للإسكندرية . حتى دسوق تدين بالولاء لقطبها سيدى إبراهيم الدسوقى . واختار السيد مدينة طنطا ـــ أو طندتا كما كانت تسمى آنذاك ـــ لأنها تقع فى موضع وسط من البلاد . اتجه وجدان السيد ـــ عقب عودته من العراق إلى مكة ـــ اتجاهاً جديداً ـــ على حد تعبير المستشرق فولرز ـــ فقد أخلص للصوفية من قيام وسهر وصلاة وصوم وتأمل . ثم واجهته مشكلة المكان المناسب الذى يؤدى فيه نشاطه الدينى ، واستعاد صورة مصر التى كان قد زارها فى صباه ، وقرر الرحيل إلى مصر ، وإلى طنطا على وجه التحديد . ثمة رواية أن باعث اختيار السيد أحمد البدوى لمدينة طنطا خلوّها من أولياء الله. فالقاهرة بها الكثير من آل البيت والصحابة والأولياء ، ودسوق التى تتوسط المسافة بين الإسكندرية وطنطا ـــ

والإسكندرية ، لها أولياؤها المشهورون ! ــ بها ولى الله إبراهيم الدسوقى . وكان لطنطا وما حولها ــ عند قدوم السيد ــ أولياء يعتقد فيهم الناس، وبكراماتهم ومكاشفاتهم ، لكن السيد انتصر على كل هؤلاء بمجرد قدومه إلى طنطا ، فـ " النجوم لا تظهر مع وجود الشمس." . والحق أن السيد لم يقرر اختيار مصر مستقراً نهائياً له إلاّ بعد أن تعرف إلى أحوال الأقطار العربية الإسلامية . بدت مصر أكثر البلاد صلاحية لاستقبال دعوته من حيث هدوئها واستقرارها ، ومن حيث غلبة الحس الدينى فى نفوس أبنائها ، وميلهم إلى الحفاوة بكل الدعوات التى تجعل الدين إطاراً لها . وكان الجامع والضريح والمقام والمكاشفات عاملاً مؤكداً فى اتساع مدينة طنطا ، وزيادة سكانها ، ورواج تجارتها . فالملايين يفدون إليها على مدار العام ، يشترون ، ويبيعون ، ويقيمون لأيام ، أو لأسابيع ، بكل ما ينتج عن ذلك من رواج . وإذا كان الجمعة يوم أجازة فى كل المدن المصرية ، فإن أعداد الوافدين إلى جامع البدوى وضريحه تزيد ــ فى هذا اليوم ــ عن أضعاف المقيمين فى المدينة ..

***

كان السيد أحمد البدوى ــ كما تقول دائــرة المعــارف الإسلامية ــ شخصية ضئيلة القدر من الناحية العلمية . ويضيــف محمد فهمى عبد اللطيف إنه لم يوفق فى العثور على أثر ثقــافى ذى بال ينسب إلى السيد . لكن الكاتب يحدد ثلاثة عوامل ، شــكلت ما يمكن تسميته بظاهرة السيد البدوى . أولها : شخصية الشـــيخ نفسه ، فقد استطاع ــ من خلال شـــخصيته ــ أن يؤثــر فى الآخرين ، ويصنع من المئات ، فالآلاف ، من المريدين والأتبــاع . أما العامل الثانى فهو الخوارق والمعجزات التى نسبها إليه أعوانــه . وأما العامل الثالث فهو الموروث الدينى الذى يؤمن به المصريون ، ويملى عليهم آراءهم وتصرفاتهم (محمد فهمى عبــد اللطيــف : السيد البدوى ص ٧٣)

السيد أحمد البدوى ــ فى الوجدان الشعبى ــ ليس مجــرد رجل صالح ، دعا إلى الدين الصحيح ، أو صوفى يتبـــع طريقتــه مريدون وأتباع ، لكنه حقق من الكرامات والمكاشفات ما يرقــى إلى المعجزات ، ويزيد عليها ، ما يرفعه إلى مقام كبار الأوليـــاء ، بل إنه ــ فى يقين البعض ــ قطب الأقطاب فى مصر ، وأقواهـــم

نفوذاً ، وأكبرهم سلطاناً ، وأوسعهم شهرة ، وأكثرهم أتباعـــاً ، وأشدهم تأثيراً .

لقد أجاد أتباع البدوى التلفيـــق والاخـــتراع والروايـــة والحكى ، بحيث تتحول سيرة الشيخ إلى الصورة التى صار عليـها، فيجنون من ورائه خيراً . حشوا سيرته بالكثير مـــن الخرافـــات والحكايات التى يرفض الذهن تصديقها . فهو ـــ على سبيل المثال ـــ لم يرحل إلى العراق إلاّ بعد أن انتقل إليـــه ـــ فى الرؤيـــا ـــ الرفاعى والجيلانى وغيرهما من الأولياء ، وناشدوه أن يرحـــل إلى العراق ليحمل راية الطريق . وقد عرض القطبـــان ـــ الرفـــاعى والجيلانى ـــ على البدوى أن يسلماه مفاتيح البـــلاد والعبـــاد ، فيأخذ منها ما يشاء ، لكن البدوى قال فى صرامة إنه لا يـــأخذ المفتاح إلاّ من يد الفتاح ، فتصور !. وثمة رواية أن نفـــراً مـــن العرب " تصدّوا للسيد وشقيقه الحسن وهما عائدان مـــن زيـــارة عدى بن مسافر ، فوقف لهم السيد قائلاً : يا قوم الزموا الأدب ، فنحن من أهل الحسب والنسب من قبل أن يقع عليكم الغضـــب ، ويحل بكم العطب . ثم أومأ إليهم بيده ، وقال لهم : موتوا بـــإذن الله تعالى . فوقعوا على الأرض كالقتلى . ثم قال لهم : قوموا بإذن

من يحيى الموتى ويميت الأحياء . فقام الجميع وقبّلــوا الأقــدام ، واستأذنوا فى الانصراف (محمد فهمى عبد اللطيـــف : الســيد البدوى ــ ص ٣٥) . وقد أحب سمعان الكافر خضرة الشــريفة من النظرة الأولى ، واستعان بعجوز غرّرت بهـــا ، وحملتــها إلى بلاده . واستغاثت خضرة بالسيد البدوى لينقذها قبل أن يدخـــل عليها سمعان . ويغير السيد على بلاد الكفرة فى ليلة الزفـــاف ، ويقتل أهلها ، ويدمر مدنهم ، ويعيد خضرة الشريفة إلى بلادهـــا طاهرة عزيزة . والسيد البدوى هو الذى جاب اليســرى أثنــاء الحروب الصليبية ــ أى جاء بالأسرى من المصريـــين ، دون أن يغادر موضعه - وبلغ من كرامات السيد أحمد البدوى ــ تلـــك التى تناقلها مريدوه ــ أن سيدة مات ولدهـــا ، توســلت بـــالله وبالرسول عند البدوى ليعيد الولد الميت إلى الحياة . وكان ينظـــر إلى أعدائه ، فيموتون حالاً . وأمر سبعة آلاف جمـــل أن تمـــوت بكلمة واحدة : موتى !. ثم أعادها ثانية إلى الحيـــاة . والســـيد البدوى واحد من أعضاء الديوان ، المجلس الذى يعقد كل خميـس لينظر فى مظالم الناس ، ترأسه السيدة زينب ، وأعضاؤه الســـيد البدوى والشافعى والرفاعى والجيلانى . بل إن السيد البـــدوى ــ

فى الوجدان الشعبى ـــ ليس مجرد ولى وقف حياته على الدعوة إلى الدين ونصرته ، وإنما هو مناوئ للظلم وشرور الحكام ..

والحق أن سيرة السيد البدوى ـــ فى رواية الوجدان الشعبى ـــ انعكاس مؤكد لسيطرة الأفكار الصوفية ، وما صحبها من فرق وبركات ومكاشفات . وجد ذلك كله فى نفوس العامة ـــ وغالبية المتعلمين أيضاً ـــ أرضاً رخوة ، فأثمرت اتكالية وإيماناً بالخرافة . الشخصية التى تجسدت أمام الناس للسيد البدوى ، صنعها أعوانه ومريدوه ، وأفلحوا ـــ بما صنعوا ـــ فى كسب التأثير على الناس وكسب أموالهم . لقد حرص " جماعة المنتفعين من أتباعه " ـــ والتعبير لسعيد عبد الفتاح عاشور ـــ على اختلاق القصص التى تطفح بالمبالغة عن كراماته ومكاشفاته ، وما تحقق بواسطته من معجزات وخوارق . كان هدفهم أن يحتل السيد موضع الزعامة لكل أولياء مصر ، أن يصبح قطب الأقطاب. وكانوا يختلقون الأحداث والأفعال ، وينسبونها إلى السيد البدوى ، ليجنوا هم ثمارها من العائدات المادية والعينية . واللافت أن مريدى البدوى لم تقتصر إقامتهم ولا نشاطهم على ما حولها ، وإنما توزعوا فى أرجاء المدن المصرية يذيعون كرامات السيد

ومناقبه ومعجزاته وتعاليمه ، حملة إعلامية متكاملة بمقاييس العصر . وبتعبير محدد ، فإن المكانة التى تحققت للسيد البدوى بين أوليـاء عصره ، وحتى الآن ، تعود — فى الدرجة الأولى — إلى الجـهود التى بذلها أعوانه . فحين يعرض الشريف حسن على شقيقه السيد البدوى فكرة الزواج ، يرفض السيد قائلاً " يا أخـى، تـأمرنى بالزواج وأنا موعود من ربى أن لا أتزوج إلاّ من الحـور العـين الحسان اللائى خلقهن الرحمن وأسكنهن الجنان " ، فلـم يعـد شقيقه يخاطبه — من يومها — فى أمر زواجه " ولزمـت معـه الأدب " . وأزمع السيد أن يقيم فى العراق ، فعارضـه شـقيقه الشريف حسن : " إن كل بلاد لها رجال ، ولكل رجال قطـب يحكم عليهم بمشيئة الله تعالى . وإذا دخل بلادهم أحد من الرجال من أرباب الأحوال ، أمرهم قطبهم بالرواح إليه ، والاجتمـاع إليه. فإن كانوا أقوى منه رجعوه ، وإن لم يتأدب معـهم قتلـوه وسلبوه ، وإن كان أقوى منهم زجرهم وبدّدهم وفرق شملهم يميناً وشمالاً ، وإنى أخاف عليك من بلاد العراق ، فإنها برزخ الأوليـاء وبلاد الصالحين " .. لكن السيد أصر على اختيـاره . وروى أن هاتف النوم أتاه أكثر من مرة ..

أما كيف اختار البدوى طنطا مقراً له ، فلأنه رأى فى المنام (٦٣٣ هـ) ثلاث مرات من يقول له : قم يا همام ، وسر إلى طندتا ، ولا تشك فى المنام " . ويقول له : " اطلب مطلع الشمس ، فإذا وصلت إلى مطلع الشمس ، فاطلب مغرب الشمس، وسر إلى طندتا ، فإن بها مقامك أيها الغنى " (الطبقات الكبرى للشعرانى ـ جـ ١ ـ ص ١٨٣) . وصارح السيد أخاه برؤياه ، فقال له : " سر يا أحمد فى هذه الليلة إلى البلاد التى وعدك الله بها ، وأنت فى حفظ الله تعالى " . وسافر السيد إلى طنطا ومعه كتاب النسب ، تأكيداً لحسبه وصلته بآل البيت . قيل ـ والعهدة على الرواة ـ أنه قطع المسافة من مكة إلى مصر فى إحدى عشرة خطوة [علينا أن نكذّب ما روى عن المتاعب التى صادفها فى رحلته ، بحيث وصل أشعث أغبر] .

تزامن ظهور السيد أحمد البدوى والظاهر بيبرس تاريخياً ، بل انهما توفيا فى زمن متقارب ، حيث توفى البدوى فى ٦٧٥ هـ . بينما توفى الظاهر بيبرس فى العام التالى . من هنا جاءت الصلة التى ربط بها الشيخ عبد الوهاب الشعرانى بين قطبى الحكم والدين . يقول : " وكان الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات

يعتقد فى سيدى أحمد رضى الله عنه اعتقاداً عظيماً . وكان يـــنزل لزيارته . ولما قدم من العراق خرج هو وعسكره مـــن مصـــر ، فتلقوه ، وأكرموه غاية الإكرام " (عبد الوهـــاب الشـــعرانى : الطبقات الكبرى ــ جــ ١ ــ ص ١٨٤) . وتقـــول روايـــة المولد:

وف ليلة من ذات الليالى سمع صوت بينده له ويقول تلات مرات ..

إلى طنطا يكون لك هناك كرامات ..
وهيكون لك فيها مقام عَالى وترقيات ..
وهتكون قطب الزمان فيها ولك أمرات ..
هتسقى من بحور علمك رجال أبطال ..
ومهما يشربوا منها يقولوا لك هات .

ويضيف الراوى إن السيد البدوى هو الذى أمر الظـــاهر بيبرس بأن يبنى مسجده ومقامه فى طنطا : " ثم أن السيد البـــدوى قال للأمير : اركب جوادك ، وسر به إلى أرض طنطـــا ، إلى أن يقف الجواد وحده بقدرة الله تعالى ، فانزل عنه وتـــأمل فى الأرض تجد خوصة ثابتة فى الأرض مكتوب عليها بقلم القدرة لا إلـــه الاّ

الله محمد رسول الله ، فإذا رأيت هذه العلامة فهناك يكون مقامى . فقال الأمير بيبرس : سمعاً وطاعة . فقال عبد العال : واجعل مقامى عن يمينه من داخل الجامع . وقال السيد مجاهد : وأنا على اليسار ، وكذلك الجوهرى قال : وأنا على رأس الوادى . فقال : سمعاً وطاعة . ثم أشار على عثمان ، فأفاق من غشيته ، وسار مع سيده ، وصار قطب عصره . ولم يزالوا سائرين إلى أن وقف الجواد ، فنزل الأمير بيبرس إلى الأرض ، وتأمل ، فوجد العلامة التى قال له عليها ، فشرع فى البنيان . وبنى المقامات والجامع والمئذنتين ، ووقف لهم الأماكن ، وعمل ، واجتهد ، وقد بلغ فى البناء أكثر من نصف سنة " (سيرة الظاهر بيبرس ــ مجلد ١ ــ جـ ١٠ ــ ص ٥٤٦) . ويدافع الشيخ عبد الحليم محمود عن هذه الرواية ، لأنه " من المعروف أن كبار المماليك كانوا دائماً يتخذون أنصاراً وأتباعاً من المماليك ، يشترونهم ويربّونهم ليكونوا فى طاعتهم . ولقد كانت تجارة الرقيق رائجة . وكان كبار المماليك يشترون كل يوم من العبيد ما يستطيعون ليمكنوا لأنفسهم ، وليكونوا لهم جنداً وحرساً . وكان هذا شأن المماليك، وكان هذا شأن بيبرس " (عبد الحليم محمود : السيد

أحمد البدوى ـــ ص ٣٩) . لكن سعيد عبد الفتاح عاشور يؤكد خطأ لقاء البدوى وبيبرس، وأنه غير منطقى . فكيـــف يســـتقبل الظاهر بيبرس بمعسكره السيد البدوى قبل أن يصبـــح ســـلطاناً لمصر؟! ، بل و لم تكن دولة المماليك قد قامت بعد (سعيد عبـــد الفتاح عاشور : السيد أحمـــد البـــدوى ، شـــيخ وطريقـــة ـــ ص١٠٧).

***

قصة السيد البدوى وفاطمة بنت برى بعد مهم فى ســـيرة البدوى ، يرددها الرواة فى موالـــده ، وفى المناســـبات الدينيـــة المختلفة.. لكن البعض يرى القصة أقرب إلى الخيـــال منـــها إلى الحقيقة ، ذلك لأن " كتّاب سيرة السيد أحمد البدوى أرادوا بهـذه القصة أن يمهدوا للدور الكبير الذى أعدوه له فى طنطا ، وكـــأن هؤلاء الكتاب عز عليهم أن تنتهى رحلته فى العراق مثلما تنتـــهى رحلة أى فرد عادى ، فى بلد من البلاد ، فوضعوا هذه الخاتمـــة ليعوضوا ما قد يكونون قد أحسوا به من تعرض الســـيد أحمـــد البدوى فى رحلته لشئ من النكران ، أو على الأقل عدم الاحتفال

والتقدير " (سعيد عبد الفتاح عاشور : السيد أحمد البدوى : شيخ وطريقة ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة ــ ص ٧٥) .

أتى الرفاعى إلى السيد فى المنام ، وطلب منه أن يسير إلى فاطمة بنت برى " فى أسرع وقت بلا إهمال ، فإنها صاحبة حال، وقد أعجبت بنفسها فى الفعال ، وبجمالها تسلب الرجال وتقتل الأبطال ، فسر إليها وأدبها وتعال ، فما وجدنا خصماً يقهرها فى حومة المجال . إلاّ أنت يا صاحب الفعال ومربى الأبطال . وكن عفواً عند القتال . فأنت البطل الشديد النزال ، ولا تؤاخذنا يا أبا الرجال ، وسر إلى مكة فى أسرع حال " . وحاولت فاطمة بنت برى أن توقع السيد فى حبائلها ، كما فعلت مع غيره من الأولياء والتابعين . وأسفرت عن وجهها فبدا كالبدر عند الكمال ، وبدا شعرها كالحبال إلى الأرض طال . وهمت بالسيد كما كانت تفعل بالرجال ، لكن السيد ظل ساكناً صامتاً ، حتى تصورت السيد شخصاً آخر ، وأخلت سبيله . ثم أظهر السيد العديد من الكرامات التى دفعتها إلى مصارحة نفسها " ما أخوفنى أن يكون هو الذى رأيته فى المنام " . فلما تيقنت أنه هو السيد أحمد البدوى ، انحنت على الأرض تقبل قدميه ، وهى تقول : " يا شريف أحمد

، كنت أظن أنه ما على وجه الأرض أفرس منى ، ووجدتك أنت الفارس الهمام . فخذ الآن علىّ العهد . إنى محبتـــك وفقـــيرتك ومريدتك ، والماضى لا يعاد بين الفقراء . وأنا أستغفر الله بدايـــة ونهاية ، وفرضاً عن كفاية ، ولا كبيرة بعد الاستغفار ، فهل طاب خاطرك على " ؟ . وعرضت فاطمة على السيد أن تتزوجـــه فى الحال ، لكنه اعتذر ، وطيب خاطرها ، وإن أخذ عليها عهداً بألاّ تتعرض بسوء لمن تصادفه من الرجال والأبطال . ثم انتهز فرصـــة احتدام الذكر ، فاختفى ، ومضى إلى مكة ..

***

أذاع أعوان السيد أحمد البدوى أنه كان يخضع فى كـــل تصرفاته لهاتف يأتيه فى المنام . كان ذلك الهاتف وراء رحلته مـــن مكة إلى العراق ، ثم من العراق إلى مكة ، ثم انتقاله ــ أخــيراً ــ إلى مصر . حتى إقامته فى طنطا ــ كما أشرنا ــ تحددت استجابة لصوت الهاتف . وأكد الأتباع أنه كان يخاطب الأولياء ، ويـــرى النبى صلى الله عليه وسلم ، ويصعد إلى السماء ، ويطلـــع علـــى الغيب ، ومشاهد الجنة والنار .

تعددت مناقب السيد البدوى : مخاطبة الأولياء ، رؤية النبى صلى الله عليه وسلم ، الصعود إلى السماء ، الاطلاع على الغيب ومشاهد الجنة والنار ، فك أسر الأسرى وقت الحرب من بلاد الإفرنج ، معرفة ما يخفى عن الرؤية الظاهرية ، طى الأرض عدواً وسرعة ، انقلاب الأعيان وتحويل الأشياء إلى أشياء أخرى ، حلول دائرة السوء بكل من يتعرض له بأذى ، أو حتى مجرد نقد ، إحياء الموتى وإماتة الأحياء ، شفاء المرضى بقدرة عظيمة ، رؤية الأماكن البعيدة من وراء الحجب ، كشف الغيب والتنبؤ بالأخبار وهو ميت ، القدرة على نصرة المظلوم وهو فى القبر ، حمايته لكل من التقى بمقامه (أدبيات المأثور الشعبى فى مولد السيد البدوى ١٥ ـ ١٦) .

وعلى الرغم من الرأى بأن هذه الحكايات لم توضع فى حياة البدوى (القرن السابع الهجرى) وإنما وضعت بعد عصره بثلاثة قرون أو تزيد ، حيث اختلقها جماعة المنتفعين بالدجاجة التى تبيض ذهباً ، وهى صندوق النذور وما يماثله من مصادر النفع التى كانت تفيض على كل من يلوذ بالطريقة الأحمدية (جمال بدوى : المسافرون إلى الله بلا متاع - هيئة الكتاب - ص٩٧)..

على الرغم من ذلك ، فإن الراوى الشعبى خلـــع علـــى السيـــد البدوى ألقاباً كثيرة ، فهو " السيد " لأنه ساد قومــــه ، وهـــو " الإمام " لأنه كان قدوة للآخرين ، وهو السيد - بكسر السين - أى السبع ، وهو " الشريف " لأنه ينتسب إلى العلويين ، وهـــــو البدوى - لقب أبيه -وهو " أبو الفتيان " لأنه قدوة فى الإيمـــــان والشجاعة ، وهو البدوى نسبة إلى البادية ، وهو " البدوى الملثم " لأنه كان يضع على وجهه لثاماً كرجال الصحراء الإفريقية مـــن الطوارق ، وهو " الغضبان " لأنه يغضب للحق ، وهو " مـــهارش الحرب " لشجاعته فى القتال ، وهو " مجيب الأسرى " لأنه أفلـــح فى إعادة الأسرى إلى مصر ، وهو " السطوحى " لأنه كان يقضى على السطح معظم وقته ، يتأمل ملكوت الله ، كما جعـــل مـــن سطح بيت أحد مريديه ـ ابن شحيط ـــ مدرسة لتعليم من كان يقصده للتعلم . وهو " القطب " ، لأن عنده جميـــــع الأحـــوال والمقامات ، وهو " القطب النبوى " لأنه حصل علـــــى معـــانى الحروف التى فى أوائل بعض السور ، وهو " قطب الأقطـــــاب " الأكبر ، وصاحب الإمداد النبوى ، و " بحر العلوم " و" الزاهـــد " و " أبو العباس " و " القدسى " ـــ أى المتطهر المبـــــارك ـــ و "

الصامت " و " ولى الله " و "ابو فراج " ـــ لأنه كـــان مفـــرج الكروب ـــ و " العارف بالله سيد العارفين " و " ندهة المنضـــلم " و " دليل الحيران " و " كعبة الزوار " و " مهبط الأنـــوار " و " باب الخيار " و " باب النبى " و " باب الرسول " و " صـــاحب الفرح " و " الأب " و " حامى طنطا " ..

أما لماذا كان السيد يحرص على أن يتلثم ، فلكى يستر مـــا أفاض الله عليه من النور وشدة الهيبة والنظرة . وروى أن مريـــده عبد المجيد أراد أن يرى وجه السيد ، فقال السيد : يا عبد المجيد ، كل نظرة برجل . قال عبد المجيد : يا سيدى ، أرنى وجـــهك ، ولو مت " فكشف له اللثام الفوقانى ، فصعق ، ومات فى الحال " [اللثام جزء من لباس رجال الطوارق . ذلك ما لاحظته فى زيارة إلى موريتانيا] .

ولأن السيد البدوى لم يكن يصلى الجمعة ولا الجماعـــة ، فى موضعه فوق السطح ، فقد نسب إليه أتباعـــه شـــطحات لا يدركها البشر ، فهو يصلى فى مواضع بعيدة ، ثم يعود إلى حيـــث يقيم فوق السطح دون أن يلحظ أحد ! (السيد أحمد البـــدوى : شيخ طريقة ـــ ص ١٣٢) .

وزادت الروايات ، فنسبت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يتوسط عند السيد البدوى ، ويتشفع إليه فى الناس . وفى الحجر الموجود فى ضريح السيد ، أثر قدم توارث العامة اعتقاداً بأنه قدم النبى عندما زار السيد ذات مرة . وذهب آخرون إلى أنه أثر قدم البدوى نفسه . حتى تاريخ وفاة السيد البدوى يوافق — كما جدده أتباع السيد البدوى — تاريخ وفاة النبى صلى الله عليه وسلم . ومما ينسب إلى السيد أنه غسّل نفسه بعد مماته .

أما بذل السيد أحمد البدوى للفقراء والمحتاجين ، فإن سيرته تؤكد أنه أوقف كل ما تلقاه من هبات وهدايا على المعوزين من أبناء الطريقة . لذلك يردد الناس فى أحاديثهم : شى لله يا سيد .. ومعناها شئ لله يا سيد !

***

والملاحظ أن مكاشفات السيد البدوى بعد وفاته ، تفوق الكرامات التى تحققت فى حياته . يروى الجبرتى شائعة تناقلها الناس ، فى عام ١١٤٧هـ . (١٧٣٥ م .) بأن يوم البعث سيكون هو الجمعة السادس والعشرين من ذى الحجة . وراح

الناس يودعون بعضهم البعض ، ويهيمون على وجوههم خـــارج البيوت . وأتى السادس من ذى الحجة ، ومضى ، دون أن تتحقق الشائعة ، وتناقل الناس حكاية ــ مجهولة المصدر ــ تؤكـــد أن السيد البدوى وإبراهيم الدسوقى والإمام الشافعى قـــد تشـــفعوا للناس عند الله ، فقبل تأجيل القيامة ! (تاريخ الجبرتى ــ المطبعـة الأهلية ــ ج ١ص ١٥٢) . ويروى الشعرانى عن بواعث حرصه على حضور المولد الأحمدى كل عام ، فى أن " شيخى العـــارف بالله تعالى محمد الشناوى ، رضى الله عنه ، أحد أعيان بيتـــه ــ رحمه الله ــ كان قد أخذ علىّ العهد فى القبة ، تجاه وجه ســيدى أحمد رضى الله عنه ، وسلّمنى إليه ، فخرجت اليد الشريفة مـــن الضريح ، وقبضت على يدى . وقال سيدى : يكون خـــاطرك عليه واجعله تحت نظرك . فسمعت سيدى أحمد رضى الله عنـــه من القبر يقول : نعم . ثم إنى رأيته عصر مرة أخرى هو وســيدى عبد العال وهو يقول : زرنا بطندتا ونحن نطبخ لـــك ملوخيـــة ضيافتك ، فسافرت ، فأضيافنى غالب أهلها وجماعة المقام ذلـــك اليوم كلهم بطبيخ الملوخية . ثم رأيته بعد ذلك وقد أوقفنى علـــى جسر قحافة تجاه طندتا ، فوجدته سوراً محيطاً ، وقال : قف هنا،

أدخل عليّ من شئت وامنع من شئت . ولما دخلت بزوجتي فاطمة أم عبد الرحمن ، وهي بكر مكثت خمسة شهور لم أقرب منها ، فجاءني ، وأخذني وهي معي ، وفرش لي فرشاً فوق ركن القبة التي على يسار الداخل ، وطبخ لي حلوى ، ودعا الأحياء والأموات إليه ، وقال : أزل بكارتها هنا ، فكان الأمر تلك الليلة " (محمد فهمي عبد اللطيف : السيد البدوى ، دولة الدراويش في مصر ــ الطبعة الأولى ــ ص ١٠١) . أما المعجزة التي كرّست قطبانية السيد البدوى ، فأصبح من أهم أقطاب الصوفية ، فهي أنه كان يمد يده وهو في طنطا لتحمل أسرى المسلمين من بلاد الإفرنج ، وتضعها فوق مسجده . ويقول الشعراني إنه شاهد بنفسه أسيراً على منارة سيدى عبد العال مقيّداً مغلولاً ، وهو مخبط العقل . قال الأسير : بينا أنا في بلاد الإفرنج آخر الليل ، توجهت إلى سيدى أحمد ، فإذا أنا به ، فأخذني وطار بي في الهواء. ثم وضعني هنا ، فمكث يومين ورأسه دائرة عليه من شدة الخطفة ، رضى الله عنه (المصدر السابق ص ٦١) . ويروى الشيخ مصطفى عبد الرازق أن السيد استمر في إنقاذه للأسرى حتى بعد وفاته . لم يتوقف عن مهمته الجليلة إلاّ بعد أن استأذنه

فى ذلك محمد سعد باشا مدير الغربية آنذاك . وحتى الآن ، فـــإن أغنية " الله الله يا بدوى جاب اليسرى [الأســـرى] تـــتردد فى الموالد والمناسبات الدينية . وتداخلت ـــ أحياناً ـــ مع كلمـــات لأغنيات أخرى ..

وللمولد الأحمدى قداسة أشبه بقداسة الحج إلى بيـــت الله الحرام ، فهو مجمع للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولسائر الأنبيـــاء والأولياء والصالحين .

***

يبقى أن أشير إلى ما ذكره محمد فهمى عبد اللطيف مـــن أن " هذه الخوارق التى لفقت على السيد ، وألصقت به فى رحلته إلى العراق ، إنما لفقت فى عصر متأخر ، أى عندما أصبحت حياة السيد أسطورة فى روايات الدراويش والمريدين ، ومادة للارتـــزاق وكسب الوجاهة والمكانة بين النـــاس " (المصـــدر الســـابق ـــ ص٣٦). وبالطبع ، فقد كان لمحاولات الحكومات المتعاقبـــة أن تفيد من ظاهرة القطب الأعظم ذى الكرامات والخوارق ، تأثيرها المقابل فى زيادة أعوان البدوى وخلفائه فى تلفيقاتهم ورواياتهم التى لم تجد من يكذّبها ، إنما استجاب لها العامة بحس دينى غـــلاب ،

وبميل موروث لتصديق الأسطورة والخرافة . وللأسف ، فـــإن " تقديس سكان الأضرحة والقباب العاليـــة ، والتعلـــق بأربـــاب المشيخة والدروشة " كان له " أكبر الأثـــر فى تفكـــير الشـــعب واتجاهاته الاجتماعية ، وتكييف عواطفه وميوله واندفاعاته النفسية ، حتى لتعتبر هذه الناحية عنصراً من العناصر الأصيلة التى تقـــوم عليها حياة هذا الشعب ، وتتكون منها شخصيته ، وليس مـــن شك فى أنها ستظل هكذا إلى أمد لا يعرف مداه إلا الله " (المصدر السابق ص ١٢) . مصر هى المحروسة . وهى محروسة بآل البيت وبأولياء الله الصالحين . بشفاعتهم وبركتهم نالت ـــ وتنـــال ـــ الحماية . وإذا كانت قد جاوزت ـــ فى توالى العصور ـــ عشرات المحن ، فما ذلك إلاّ أنها مباركة بوجود أهل البيـــت والصحابـــة والتابعين [مازال أبناء الإسكندرية يذكرون حادثة الطوربيد الـذى كاد يهدد المدينة بالدمار ، لولا يد الإمام أبى الدرداء التى غـادرت قبره ، والتقطت الطوربيد فى سقوطه على المدينة ، وألقت بـــه فى البحر!] . من هنا يعد عامة المصريين زيارة أضرحـــة آل البيـــت والصحابة والأولياء ، واجباً دينياً فى انتقالهم من مدنهم وقراهم إلى مدن وقرى أخرى ..

وإذا كان التسامح الدينى الذى يعد خاصية أساسية فى التكوين الثقافى المصرى قد احتضن ثلاث ديانات سماوية ، وهى اليهودية والنصرانية والإسلام ، فإنه ــ بالتالى ــ قد احتضن المذاهب الأربعة ــ باختلاف علمائها وأتباعها ــ والشيعة فى آن معاً ، فغابت عن الحياة المصرية ما شهدته أقطار إسلامية أخرى ، من معارك بين فرق ومذاهب إسلامية بعضها فوق بعض ، مثلما بين العلويين والدروز والمذاهب الإسلامية الأخرى فى جبال الشام، أو بين الشافعية والعلوية فى اندونيسيا، أو بين الأكراد والشيعة فى العراق، أو بين الشيعة والسنة فى الهند إلخ.. (محمد جبريل: مصر، من يريدها بسوء - كتاب الحرية - ص ٤٣ - ٤٥). إن الشعب المصرى من أشد شعوب العالم على الإطلاق محافظة على تقاليده وعاداته ، فضلاً عن المعتقدات التى لم يطرأ عليها تغيّر ملموس . مرت عليه أدوار مختلفة من التاريخ . غيّر لغته ودينه عدة مرات، لكن الغزوات المتعاقبة لم تستطع أن تغيّر شيئاً من تراثه فى المعتقدات التى صنعتها الأجيال ، وتوارثتها منذ استوطنت الوادى . ربما استطاعت تلك الغزوات أن تحدث تأثيراً ما فى المدن الكبيرة التى استوطن فيها الآلاف من أبناء الجاليات الأجنبية ، فضلاً عن استقطابها للعناصر المتعلمة ، ولكن ظلت

آلاف القرى والدساكر والنجوع ، والغالبية من الشعب المصرى التى تفرض الأمية سيطرتها عليها ، على مصريتها الثابتة ومعتقداتها القديمة . فالمجتمع المصرى منذ ثلاثة آلاف السنة ـــ وأعنى به مصر الفرعونية ـــ الذى كان يؤمن ببعض المعتقدات ، هو نفسه المجتمع المصرى فى العصور التالية ، ربما إلى أيامنا الحالية : آمن بالمسيحية، وآمن بالإسلام ، لكنه أضفى على ممارسته لشعائر المسيحية والإسلام الكثير من الطقوس الأسطورية ، وتداخلت معتقداته القديمة بصورة وبأخرى مع عقيدته السماوية . بل أصبحت تلك المعتقدات تقف على أرضية من المعتقد الدينى السماوى تتيح لها البقاء والحياة والاستمرار . الإيمان بالله ، وبالقدر ، والآخرة ، والثواب ، والعقاب ، خصائص أساسية فى معتقدات الإنسان المصرى . وهى تستند ـــ بصورة أساسية ـــ على القرآن الكريم والكتاب المقدس والأحاديث النبوية ودروس علماء الدين . ويتداخل مع هذا الإيمان تراث آلاف السنين من الإيمان بظواهر الطبيعة ، وبالمعتقدات الأسطورية (محمد جبريل : مصر فى قصص كتابها المعاصرين ـــ مشروع المكتبة العربية ـــ ص ٢٧٤)

على الزيبق

" وكانوا يعملون عليه مكائد ، وهم يظنون أنه يقـــع في تلك الحبائل ، فلم يظفروا منه بطائل ، لأنهـــم إذا دبروا عليه حيلة يفر منها ، كما يفـــر الزئبـــق ، ولا يعلمون كيف يختفي ولا أين يذهب ، لذلك لقّبـــوه بالزيبق "

من سيرة على الزيبق

" هذه هي سيرة أشطر الشطار في التراث الشعبي العربي ، سيرة الثورة على غياب القانون وفساد النظام . وثيقة فنية بالغة الدلالة أطلقها الوجدان الجمعي ــ عبر إبداعه الشعبي ــ ليصم بها فترة ربما كانت أحلك فترات التاريخ العربي ، حيث السيادة للقوة لا للقانون إبان الحكم العثماني ، حين غدا العالم العربي إيالة عثمانية " (محمد رجب النجار ــ حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي ــ عالم المعرفة ــ ص ٣٤٦) .. " هي سيرة أشطر الشطار في تراثنا الشعبي التي تكاملت في البيئة المصرية على يد فنان شعبي مجهول ، شأن أي إبداع شعبي أصيل " (المصدر السابق ٤٩٣)

هذا هو تقديم الباحث الكبير محمد رجب النجار لسيرة الشاطر المصري على الزيبق ..

وقد تباينت الاجتهادات حول شخصيات علي الزيبق وصلاح الدين الكلبي وأحمد الدنف ودليلة المحتالة وغيرهم ممن استوطنوا ألف ليلة ، فجعلهم البعض من الشخصيات التي ابتدعها

خيال رواة الليالى فى توالى الأعوام ، بينما أكد البعض واقعية الشخصيات ، وانها حقيقية لها أصلها التاريخى الذى لا يختلف مع صورها الفنية كثيراً . ويذهب النجار إلى أن سيرة على الزيبق " هى من نتاج العصر العثمانى وحده ، فيه تكاملت وأخذت شكلها الأخير، وليس من نتاج العصر المملوكى أو أواخره " (المصدر السابق ٤٣٤) ، وهى ــ إلى ذلك ــ آخر السير الشعبية المصرية المتكاملة ..

وإذا كانت بعض الاجتهادات ترى فى شخصية على الزيبق شخصية غير تاريخية ، أى ليس لها وجود تاريخى ، فإن محمد رجب النجار يجد فى على الزيبق شخصية شعبية مشهورة يحفظ لها التاريخ امتداداً بطولياً ، ولا يعقل أن يصمت عنها ــ فى الرواية الشفهية والتاريخية ــ المدونة ــ طيلة خمسة قرون من الزمان حتى يكتشفها الفنان الشعبى فجأة ، ويستلهم من حياتها سيرة فنية ، وإنما الأقرب إلى الصواب أن تعود الحكايات الواقعية والفنية التى حيكت حوله ، وتمحورت حول شخصيته وشطارته ، إلى القرن الخامس نفسه ــ الحادى عشر الميلادى ــ وكانت تلك الحكايات الشعبية هى النواة الأولى لسيرة على الزيبق التى عرفت

باسمه . وقد شرعت تتكامل ــ بعد ذلك ــ بوحـــى منــها فى أواخر العصر المملوكى حتى استكملت نموها وتفاصيلها فى العصر العثمانى " (حكايات الشطار والعيارين ــ ٦٩ ، ٧٠). إنها سيرة " على زيبق المصرى بن حسن رأس الغول " كما تذكر الطبعـــة الشعبية ..

إن للشخصيات الرئيسة الثلاث فى السيرة ــ الزيبق ودليلة والدنف ــ وجودها التاريخى الواقعى ، فقد تزعم الزيبـــق فتنـــة العيارين ببغداد سنة ٤٤٤هــ . كذلك كان أستاذه أحمد الدنــف أشطر الشطار الذى صدر غليه حكم الســـلطان بالتوســيط فى ٨٩١هــ . أما دليلة المحتالة ، أو دالة المحتالـــة ــ كمــا سماهــا المسعودى ــ فهى شخصية تاريخية أجادت ألوان الحيل والمكــائد والشطارة ، وذاع صيتها فى القرن الثالث الهجـــرى (المصـــدر السابق٣٢٠، ٣٢١) . وقد ضفّر الراوى الشعبى ذلك الوجـــود التاريخى ببطولات فنية ، تعتمد على الخيال ، وعلى المـــوروث ، من قصص الشطار والعيارين ، وتقديمها فى إطار من التعـــاطف والمشاركة والإعجاب . ومع أن بطلى " ألف ليلة وليلة " علـــى الزيبق ودليلة يسبقان فى وجودهما التاريخى ، الوجـــود التـــاريخى

لأحمد الدنف المصرى ، ذى الحكايات فى فن السرقة يطول شرحها ــ كما يقول ابن إياس ــ فإن الرواية الشعبية جعلت من الدنف المصرى بطلاً بغدادياً ، وأستاذاً ، أو كبيراً للزيبق ، وجعلت الزيبق البغدادى مصرياً ، ونقلت الأحداث الرئيسة إلى بغداد ، وألغت المسافة الزمنية بين الثلاثى : الدنف والزيبق ودليلة. وقالت الرواية إن الدنف هو الذى بعث فى طلب الزيبق من مصر ، وقدمه إلى هارون الرشيد . وذكر ابن إياس فى حوادث ٨٩١ هـ ــ ١٤٨٦ م أن السلطان الأشرف قايتباى "رسم بتوسيط شخص من كبار المفسدين ، يقال له أحمد الدنف، وله حكايات فى فن السرقة يطول شرحها " (بدائع الزهور فى وقائع الدهور ــ ٥٧٣) . أما دليلة ، فقد ذاع صيتها فى القرن الثالث الهجرى، فى ضروب المكر والحيلة والكيد والشطارة والعيارة ، وضرب بها المثل فى ذلك (حكايات الشطار ٣٢١) . ويتحدث المسعودى عن واحد من شطار بغداد فى عهد الخليفة المعتضد ، كان يعرف بأبى الباز ، وله أخبار عجيبة ، وحيل لطيفة ، وهو الذى اختال للمتوكل ، وقد برز فى مكايده ، وما أورده من حيلة على دالة ــ دليلة ــ المحتالة ، وغيرها من سائر المكاريين

والمحتالين ممن سلف وخلف منهم (مروج الذهب ـــ طبعـــة دار التحرير) . وفى الأمثال : أحيَل من الزيبق .. وأمكر من دليلـــة المحتالة . حتى الشخصيات الثانوية من الشطار ، معظمها لها وجود تاريخى ، مثل شخصية ابن البسطى الذى جاء ذكره فى " عجائب الآثار " للجبرتى ٤ : ٧٢ .

لقد امتلك عنترة القوة الجسدية ، وامتلك الزيبق الذكـــاء وحسن الحيلة وحسن التصرف . لقب بالزيبق لأنه أجـــاد تعلـــم العيارة والشطارة ، وألف الجلوس إلى أهل الصنعة وتعلّم فنونهـــا ، واعترف له الجميع " بالشجاعة والعياقـــة والزلاقـــة والشـــطارة والفراسة " ، وبالنجاح فى الإفلات من المكائد التى دبرها له مقدم الدرك صلاح الدين الكلبى ، فر منها جميعاً كمـــا يفـــر الزيبـــق (السيرة ٥) . وقد ظهر على الزيبق ـــ أشـــطر الشـــطار ـــ فى أحداث سنة ٤٤٣ هـــ وأصبح رمزاً للثورة تاريخياً وشعبياً وأدبياً. وكما يقول ابن الأثير ، ففى ٤٤٤ ه . حدثت فتنة بـــين الســـنة والشيعة فى بغداد ، وامتنع الضبط ، وانتشر العيارون وتسلطنوا ـــ أى تولوا أمر السلطنة ـــ وجبوا الأسواق ، وأخذوا ماكان يأخذه

أرباب الأعمال . وكان مقدمهم الطقطقى والزيبق (تاريخ ابن الأثير / ٩ : ٥٩١ ـــ ٥٩٢) .

***

تحققت شهرة على الزيبق عند العامة لسببين ، أولهما أن الخليفة استنجد بالعيارين رسميا رغم وجود السلطنة لإخماد فتنة سنة ٤٤٣ هـ بعد أن " انحرفت هيبة الخلافة ، وعظم انحلال أمر السلطنة بالكلية " . أما السبب الثانى فهو استعفاء صاحب الشرطة من ولاية الشرطة ببغداد " لاستيلاء الحرامية واللصوص عليها ، بحيث أنه أقيم جماعة لحفظ قصر الخليفة والطيار الذى للخليفة من الحريق ، لأن اللصوص كانوا إذا امتنع عليهم موضع أحرقوه " (محمد رجب النجار : حكايات الشطار والعيارين فى التراث الشعبى ـــ ٦٧) ويضيف النجار أنه لا يستبعد أن تكون هذه الجماعة من العيارين أنفسهم ، وعلى رأسهم الزيبق " ولعل المؤرخين صمتوا أو خجلوا من ذكر تلك الحقيقة التى تشبث بها الوجدان الشعبى ، وصاغ فى ضوئها سيرة على الزيبق ، وليس مصادفة أن يكون على الزيبق العيار الوحيد الكبير الذى لم يرسم

السلطان أو الخليفة بقتله ، أو يصدر أمراً بإعدامه كما هو الحال مع كبار العيارين " (المصدر السابق ـــ ٦٧) .

كان على الزيبق رئيس عصابة فى بغداد ، فى القرن الخامس الهجرى ـــ الحادى عشر الميلادى ـــ ولكن الحكاية جعلت القاهرة مقراً لبدايته ، وبغداد مسرحاً لنشاطه (تقنيات الفن القصصى بين الراوى والحاكى ١٠٠) . ويرجح أحمد درويش أن تكون أحداث الحكاية قد وقعت فى عهد الخليفة الناصر (٦٢٢ هـ ـــ ١٢٢٥ م) وأنها دوّنت فى مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى أو بعده (المصدر السابق ١٠٠) .

إذن ، فقد كان على الزيبق ودليلة يعيشان فى بغداد . أما أحمد الدنف فكان يحيا فى القاهرة . شخصيته تعود إلى الأدب الشعبى المصرى ، وترجع إلى القرن الرابع الهجرى ـــ العاشر الميلادى ـــ ويشير أحمد درويش إلى أن هناك قاطع طريق يحمل هذا الإسم ، أعدم فى مصر عام ٨٩١ هـ ـــ ١٤٨٦ م . وكان الزيبق ودليلة ـــ كما أسلفنا ـــ سابقين فى وجودهما التاريخى على وجود الدنف بأكثر من أربعة قرون ونصف ، وهو ما يتناقض ـــ تاريخياً وجغرافياً مع الروايات الشعبية المتواترة (حكايات الشطار

والعيارين فى التراث الشعبى ـــ ٦٦) . ويرجح محمـــــد رجـــب النجار أن سيرة على الزيبق هى وليدة العصر العثمـــانى ، وفيـــه أخذت ملامحها وصورتها النهائية ، فهى لا تنتســـب إلى العصـــر المملوكى ، كما ذهبت إلى ذلك اجتهادات بحثية (المصدر السابق ٤٣٤) .

نحن نلحظ ـــ على سبيل المثال ـــ أن السيرة تتحدث عـن تردد على الزيبق ـــ فى طفولته ـــ على الأزهر ، مع أن الأزهـــر أنشئ فى عهد الفاطميين بعد حكم ابن طولون ، وهى الفترة الـتى تقع فيها أحداث سيرة على الزيبق ، بل ان السيرة تزامن عهد ابن طولون وعهد هارون الرشيد ، رغم الفاصل الزمنى ـــ ٦٠ عامـــاً ـــ بين نهاية حكم الرشيد وبداية حكم ابن طولون (سيرة علـــى الزيبق ـــ مطبعة مصر ـــ القاهرة) .

لقد أعاد الوجدان الشعبى تشكيل ، أو صياغة ، سيرة على الزيبق ورجاله من الشطار والعيارين صياغة أدبية ممتعـــة ، فنيـــاً وجمالياً من ناحية ، ولا تصطدم بواقع تاريخى من ناحية أخـــرى ، ولا تتناقض مع أحلام جماهيره وآمالهم ، وبخاصة فى فترات الأفول الحضارى من ناحية ثالثة (حكايات الشطار والعيارين فى التراث

العربي ـــ ٤٣٣) . إن النسخ المتأخرة من ألف ليلة وليلة تتحدث عن على زيبق مصرى ، ارتكازاً إلى الإضافـــات الـــتى أضافـــها الحكاءون المصريون إلى حكايات ألف ليلـــة ، ومنـــها إضافـــة شخصية أحمد الدنف المصرى إلى أبطال الليالى . فى سيرة الزيبـــق ـــ على حد تعبير فاروق خورشيد ـــ " رائحة حوارينا العربيـــة المتربة المزدحمة بمن جمعهم البؤس والفقر فى جحور القاهرة وبغداد ودمشق وحلب ، فيها عبق الجوع ، إن كان له عبق ، وصرخات اليأس من قلوب يئست من الحرية تحت ظلال حكم الســـيف ، فاكتفت بدعوات العجائز وتمتمات المجذوبين ، ممتزجـــة بأنـــات العذاب وصرخات الجوع ... وبطلها ليـــس إلاّ صـــورة لهـــذا العذاب، ولتلك التعاسة ، فهو لا ينشد النصـــر ، وقـــد أســـبل الدروع على جسده ، ورفع فى يده سيفاً يقطر مجداً وعزّة . إنـــه يختفى خلف كل ثوب ، يتنكر وراء كل رداء ، يتسلل متســـتّراً بالظلام ليطعن ظالمه ، فليس يملك إلاّ حيلة القلب الشجاع أمـــام من دفنوا رأسه ، ورأس شعبه ، فى الوحل " (على الزيبق ٢ : ٨).
تنكّر على الزيبق فى العديد من الشخصيات ـــ وهو ما فعله أدهم الشرقاوى فيما بعد ـــ فقد تخفّـــى فى زى النســـاء ، وتقمّـــص

شخصية طبيب ، ومغسّل ، وشخصيات أخرى أجاد تجسيدها " الشيطان العايق على الزيبق " . وعلى الرغم من إيلام ملاعيب على الزيبق ، وقسوتها ، وفحشها أحياناً ، فإنها كانت تظفر بإعجاب العامة الذين رأوا فيها وسيلة من وسائل التشفى ، بحكم الخوف المتوارث من صور الظلم والقهر ، فضلاً عن أنها تعد دروساً عملية ووظيفية تعليمية يستفاد منها فى التحرز على ذواقهم ، وأمر الدفاع عن أنفسهم ، بحكم الذكاء الفطرى " واتقاء لشر اللصوص الشطار الذين أثبتت التجارب العملية أن عقولهم وأذهانهم لا تلبث أن تتفتق كل يوم ، بل كل ساعة ، عن خدعة ماكرة أو حيلة طريفة من حيلهم البارعة الداهية التى لا قبل لهم بها . ومن هنا يكمن الإعجاب بهم وبذكائهم وبراعتهم ، كما يكمن الإعجاب بها ، ويتمتعون بروايتها وترديدها فى حكاياتهم ونوادرهم وطرائفهم " (حكايات الشطار والعيارين ٤٤٥) . لقد أصبح الزيبق " رمزاً لبطولة هذا الشعب فى مقاومة الفساد السياسى والاجتماعى"(عباس خضر : أدب المقاومة ٧٢).

***

السيرة تبدأ بدليلة بنت شهروان ، التي قدمت إلى بغداد فى زمن هارون االرشيد ، مبعوثة من ملك فارس وبـــلاد أصفـــهان بالعجم ، لأداء مهمة رسمية ، لكنها استطابت الإقامة فى بغـــداد . وبدلاً من أن تنهى مهمتها وتعود إلى وطنها ، أزمعت الإقامـــة فى بغداد ، وسعت لتولى مقدمية دركها ، وأقامت علاقة مع مقدمها أحمد الدنف ، ثم انقلبت عليه ، وبذلـــت المكـــائد ، وأشـــاعت الفوضى حتى " ضجت مدينة بغداد من مكرها واحتيالها ، لأنهـــا قهرت أحمد الدنف وأعوانه ، وأخذت منصبه ، وجلست مكانـه وكان ذلك الزمان أيام شطارة وزلاقة ، وكانت الناس تترقى عند الملوك بالشجاعة والعياقة ، فأحبها الرشيد ، وعظـــم أمرهـــا ، وقلّدها وجاق الزعر ، وكان يستشيرها فى تدبير المملكة ، وكـــان أهل بغداد يخافونها . ولما صارت صاحبة النهى والأمر ، عزمـــت على قتل أحمد الدنف خوفاً من أن يسترجع منها محافظة الـــدرك ، فهرب مع من يلوذ به من المقدمين والأبطال " (السـيرة ص ٣،٢ ـــ طبعة دمشق) . وناصر الخليفة دليلة ـــ تلك المرأة القادمة مـن فارس ـــ وأهمل مؤامراتها المعلنة ضد الدنف ، حتى فقد الدنـــف دوره تماماً فى حماية بغداد . ومع أن الســـيرة وصفـــت الدنـــف

بالدهاء والذكاء وعلو الهمة ، فإن دليلة حين أفلحت فى انـــتزاع مقدمية درك بغداد ، اضطر إلى ترك بغداد ، وبخاصـــة بعـــد أن تجاهل الخليفة مكائدها ومؤامراتها ، وقلدها المنصب الذى ســعت إليه ..

كان المقدم حسن مقدم درك مصر ، قبل أن ينجح صلاح الدين الكلبى ـــ وله من اسمه نصيب ـــ فى عزله مـــن منصبـــه ، ودفعه للتروح إلى العراق ، ثم وصل إلى مصر ، فطارده رجـــال صلاح الدين ، مما أجبره على احتراف قطع الطريق ، وتـــزوج ـــ سراً ـــ فاطمة الزهراء ، بنت قاضى الفيوم الشيخ نور الديـــن ، وكان لها " قلوب الشجعان ، وفتنة الحسان ، ولا تتزيا إلاّ بـــزى الفرسان . وكان زوجها يحبها لجمالها وشجاعتها " . وظل حسن يقطع الطريق على القوافل ، وينهب بيوت الســـراة ، ويســـرق التجار ، حتى ضج منه أهل القاهرة . وفى محاولة من عزيز مصـــر أحمد بن طولون لإيقاف تهديداته للأمن ، بعث إليـــه " منديـــل الأمان " ، وجعل مقدمية الدرك مناصفة بينه وبين الكلبى ، ولكن الكلبى يفلح فى قتله بالسم . وتفر فاطمة إلى بيت أبيها حـــتى لا يلحقها أذى الكلبى أو أعوانه . وتضع فى البيت مولودهـــا مـــن

حسن " ولداً ذكراً كأنه فلقة القمر " سمته " على " ، وأخلصت فى تربيته ، ورعايته ، وإعداده ، ليكون فارساً مثل أبيه ، وليثأر له بالتالى ، ثم يستعيد مقدمية مصر التى انتزعها الكلبى بالغدر ..

يلحظ " على " الكثير مما يضيق به فيما حوله ، وتمضى به قدماه إلى أرض الرميلة وقرة ميدان " حيث يتصارع الفرسان ، ويتبارى أرباب الحيل ، ويتنافس الشطار المصارعون والحواة ، و"يجتمع أرباب الشطارة والزلاقة ، فيلعبون السيف والترس وضرب الرمح والدبوس والصراع وركوب الخيل ودواهى العنترية والخداع " ..

التقى على بمقدم الشطار ، واستكمل تدريبه على يديه ، حتى ذاع صيته ، واعترف له شطار مصر " بالشجاعة والعياقة والزلاقة والشطارة والفراسة " ، وسمى " الزيبق " بعد أن أجاد كل ما تعلمه . وحين لعب مع جماعة من رجال صلاح الدين الكلبى ، دون أن يعرفوا أباه " كانوا يعملون عليه مكائد ، وهم يظنون أنه يقع فى تلك الحبائل ، فلم يظفروا منه بطائل ، لأنهم إذا دبروا عليه حيلة يفر منها كما يفر الزيبق ، ولا يعلمون كيف يختفى ، ولا أين يذهب . لذلك لقبوه بالزيبق " ..

وكما هو متوقع ، فقد اصطدم الزيبق بالكلبى مقدم درك مصر ، لا لطلب الثأر ، فلم يكن يعرف أن الكلبى هو قاتل أبيه ، وإنما طمعاً فى أن يصل إلى مكانته التى بلغها بالشطارة والعياقة ..

تتعدد ملاعيب الزيبق ، تبين عن ذكائه وشطارته وفهلوته، فهو يتنكر فى صورة خادم ليتقصى أخبار أعدائه ، ويقضى على مؤامراتهم ، ويسرق من الكلبى عجلاً كان قد اغتصبه من فلاح فقير ، ويتنكر فى ثوب فتاة لعوب ، خايلت الكلبى حتى اختلى بها، ويعلن الزيبق عن نفسه ، ثم يوثق الكلبى ، ويعذّبه ، ويحصل على كل ما بحوزته ، ويتركه فى قيده حتى ينقذه رجاله .. ويتصدى الزيبق لبدوى من قطاع الطرق ، يلجأ فى ذلك إلى الحيلة والدهاء ، وليس إلى السيف والقوة ، فهو يرتدى درعاً محمّلاً بالجلاجل ، يصدر عنه صوت يفزع منه البدوى ، فيطيح الزيبق برأسه ، ويلوذ أعوان البدوى بالفرار بعد أن يخلفوا ما سلبوه ..

وملاعيب أخرى كثيرة ..

***

يتمكن الكلبى ـــ أخيراً ـــ من الإيقاع بالزيبق . يسلط عليه امرأة ، تستغل ما تنطوى عليه نفسه من شهامة ومروءة فى معاملة النساء ، وتدعوه إلى بيتها . ويقدم الوالى بصحبة الكلبى الذى كان قد دبّر الأمر برمّته ، فيوافق الزيبق ـــ حتى لا ينكشف أمره ـــ على أن تضعه المرأة فى صندوق . ويفتح الوالى الصندوق ـــ كما هو مدبّر ـــ ليفاجأ الجميع بأن الذى فى داخله هو الكلبى. احتال الزيبق أثناء تفتيش البيت ، فوضعه مكانه . وكان التصرف البدهى للكلبى " أن يلطم من القهر " ، ولكن أخت صلاح الكلبى تفلح ـــ بحيلة خبيثة ـــ فى القبض على الزيبق . استغلت ما فيه من فتوة ونخوة وأفلحت فى الإيقاع به ، وسلمته إلى أخيها الذى أسرع بوضع حبل المشنقة فى عنقه " وإذا كانت دليلة قد قامت بدور الخصم لعلى الزيبق ، فإن الأم فاطمة الزهراء قامت بدور المنقذ والحامى ، فقبل أن يهوى جسد الزيبق ، علت صرخة دوى لها المكان ، وارتجفت لها قلوب الشجعان ، وقال قائل : احذروا معاشر الناس ، فقد أتاكم الفارس الدعّاس ، صاحب الوقائع المشهورة ، والغارات المذكورة ، الذى قهر أفرس فرسان هذا العصر ، أحمد بن البنى ، غفير أرض مصر ، ثم أن

ذلك الفارس الرئبال ، صال عليهم وجال ، ومال عليهم بحسامه الأبتر ، كأنه أبو الفوارس عنتر ، فقتل كثيراً من الزعر - من رجال الكلبي - فلما نظر صلاح فعل ذلك الجبار ، خاف على نفسه التلف والبوار ، فهرب .. " إلخ .. وكان ذلك الفارس الذى أنقذ الزيبق هو الأم التى بدأت فى أداء دور الأم المنقذة ..

يسافر الزيبق - بنصيحة من الأم الشجاعة - إلى الإسكندرية ، ويلتقى هناك بالمقدم أحمد الدنف ليستكمل على يديه مقومات الشطارة . ويعرف الزيبق من الدنف حقيقة أصله ، وأنه ابن المقدم حسن ، أشطر من شرب ماء الفرات والنيل . ويلبس الدنف تلميذه الزيبق حلّة المقدمين ، ويشده من جملة مقدميه ، وهو يردد : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. ويأمره بالعودة إلى مصر . وتؤكد له أمه حقيقة نسبه ، وتزيد فتطالبه بأن يثأر لأبيه ، وتعطيه سلاحه : السيف المسمى قطّاع المحاول - الأعناق - والدبوس والمفرد ، أو سلم التسليق ، ومجموعة من المزاليق والحراب والأقواس والنشاب وأدوات التنكر والخداع ، ووسائل مفاجأة الخصوم ..

تنتقل ملاعيب الزيبق من الأفراد إلى السلطة ، أو ممثلي السلطة . يقابل نجاحه فشل الكلبى فى القبض عليه ، ويبعث إليه العزيز منديل الأمان " لأننا إن عاندناه يصير فينا أعظم من ذلك".

ويمْثل الزيبق بين يدى العزيز ، ويرد كل ما سرقه من رجال السلطة . ويأمر العزيز ، فينادى المنادون فى الأسواق باسم الزيبق، وأنه صار " مقدم درك مصر وقائد وجاق الزعر " ، وينصف الزيبق المظلوم ، ويأخذ لصاحب الحق حقه ، حتى يحبه الجميع (السيرة ـــ ط بيروت ص ٧٦) .

لكن الأحداث تأخذ طريقاً أخرى ، أو طرقاً أخرى . ثمة تحديات يضطر الزيبق إلى مواجهتها ، يفرضها عليه الكلبى ، وشخصيات أخرى يخترعها الراوى ، لتضيف إلى السيرة ، فقد رفض الكلبى أن يتنازل عن مقدمية مصر ما لم " يعمل لنا الزيبق كرامة حسبما جرت فى مثل ذلك عوائد الزعر الكرام " . ويخضعه الكلبى لاعتبارات ينجح فيها جميعاً [ونتذكر ما كان يطلبه عم عنترة منه ، تعجيزاً ، حتى لا يفوز بقلب حبيبته عبلة!] . ويظهر شاطر ، أو عايق ، جديد ، يعلن تحديه للزيبق ، واعتزامه أن ينال " ما ناله الزيبق من مجد وفخار " . وينتصر الزيبق عليه .

ثم يخوض سلسلة من المغامرات ، طرفها الآخر إبراهيم الأتاسي فارس فرسان المغرب . ثم فرضت تقاليد الشطار نفسها ، فتآخى الزيبق والأتاسى ، بل وقف الزيبق إلى جانب صاحبه متحدياً عزيز مصر الذى أراد أن يجعل ابنة عم الأتاسى وحبيبته من جملة زوجاته وجواريه . ثم واجه الزيبق خطراً جديداً ، تمثل فى شيخة " ضجت أرض مصر بحيلها ومكائدها " . وكانت تلك المرأة هى دليلة التى قدمت إلى مصر ، طمعاً فى مقدميتها ، بعد أن نالها الزيبق .. لكن الأم المنقذة كانت تفلح فى وأد المكيدة قبل إتمامها. وانتهت الأمور بقتل الكلبى ، وفرار دليلة إلى بغداد . وقرر الزيبق أن يطاردها حيث ذهبت ..

يتمكن الزيبق من ضم الشطار ذوى النيات الحسنة ، والقضاء على ذوى النيات السيئة ، والميالين إلى الشر . حتى دليلة المحتالة مقدمة درك بغداد التى قدمت إلى مصر طمعاً فى مقدميتها، مستغلة أحقاد الكلبى المعلنة ، ومؤازرته لها ، يفلح الزيبق ــ بمعاونة أمه ــ فى إجهاض مؤامراتها وحيلها ، مثل محاولتها أن تستتر بزى الدين " فقامت ضربت لثاماً ، ولبست لباساً نازلاً لكعبها ، وجبة صوف ، وتحزمت بمنطقة عريضة ، وأخذت

تبدأ ــ بالفعل ــ مرحلة جديدة فى مسيرة على الزيبــق ، فهو يعيد الأمن إلى دمشق ، ويحقق نجاحات متوالية ضـــد كــل الملاعيب والمكائد ، بفضل أمه " سيدة الرجال " التى قدمت مـــن مصر لمناصرته ، وبفضل تأييد جماهير بغداد لصراعه ضد دليلــة ، وأيضاً تأييد رجال أحمد الدنف المقيمين فى بغداد بزعامة العيّـــار عمر الخطاف . وينظم الزيبق صفوف الزعـــر ، ويرتــب لهــم معاشات ، ويجعل قاعتهم نظير قاعة الزعر فى مصر ، فهم الأقــدر على حماية أمن البلاد . ويبدى هارون الرشيد إعجابه بانتصــارات الزيبق ، ويبعث إليه بمنديل الأمان ، ويجعل مقدمية بغداد مناصفــة بينه وبين دليلة ..

لكن الزيبق يواجه فى بغداد حلقات أخرى مـــن الحيــل والمكائد ومحاولات الإيذاء ــ دبرتها ضده دليلة ــ تنتهى جميعــها بانتصار الزيبق ، بمساندة من أمه " سيدة الرجال " ، وبتأييد شعبى غلاب . كان يوم تسلم الزيبق مقدمية بغداد من دليلـــة كيــوم حتفها ، وقالت دليلة لأخيها زريق : لابد من قتل الزيبـــق ولـــو فقدت حياتى !

ما كان قد وعدهم به قبل أن يرحل إلى بغداد بدعوة من أحمد الدنف ..

تبدأ ـ بالفعل ـ مرحلة جديدة فى مسيرة على الزيبق ، فهو يعيد الأمن إلى دمشق ، ويحقق نجاحات متوالية ضد كل الملاعيب والمكائد ، بفضل أمه " سيدة الرجال " التى قدمت من مصر لمناصرته ، وبفضل تأييد جماهير بغداد لصراعه ضد دليلة ، وأيضاً تأييد رجال أحمد الدنف المقيمين فى بغداد بزعامة العيّار عمر الخطاف . وينظم الزيبق صفوف الزعر ، ويرتب لهم معاشات ، ويجعل قاعتهم نظير قاعة الزعر فى مصر ، فهم الأقدر على حماية أمن البلاد . ويبدى هارون الرشيد إعجابه بانتصارات الزيبق ، ويبعث إليه بمنديل الأمان ، ويجعل مقدمية بغداد مناصفة بينه وبين دليلة ..

لكن الزيبق يواجه فى بغداد حلقات أخرى من الحيل والمكائد ومحاولات الإيذاء ـ دبرتها ضده دليلة ـ تنتهى جميعها بانتصار الزيبق ، بمساندة من أمه " سيدة الرجال " ، وبتأييد شعبى غلاب . كان يوم تسلم الزيبق مقدمية بغداد من دليلة كيوم

حتفها ، وقالت دليلة لأخيها زريق : لابد من قتل الزيبق ولو فقدت حياتى !

تظاهرت دليلة بالرضوخ لأمر الرشيد ، لكنها أخضعت الزيبق للعديد من الاختبارات والمؤامرات والمكائد ، ثم تنشأ قصة حب بين الزيبق وزينب بنت دليلة . وتشترط دليلة — حين طلب يد ابنتها — أن يحقق لها مجموعة من الكرامات كما جرت العادة بين الشطار فى السيرة . وتزيد ، فتثير الفتن ضده فى مناطق الدولة، لكن الزيبق يكشف مؤامرات دليلة ، فتلجأ إلى تخدير إبنى الأمين والمأمون ، وكذلك الزيبق ، والعديد من مقدمى الزعر الكبار ، وتنقلهم إلى حيث ملوك العجم ..

يجد ملوك العجم فى ذلك فرصة لدخول بغداد ، لكن الأم الرائعة فاطمة الزهراء تتمكن من إنقاذ ولدها ، وابنى الخليفة ، وأبطال المسلمين ، وترد جيوش العجم ، ويعود الرشيد إلى عرشه .. ويتكرر الأمر مع جيوش الروم ، فقد لجأت دليلة إلى قيصر الروم ، وكررت ما فعلته من قبل مع الزيبق وابنى الخليفة وأبطال المسلمين . وكادت بغداد تسقط أمام الغزو الرومى ، لولا أن الزيبق نجا من الأسر ، وقاد المسلمين إلى تحقيق النصر . حتى تاج

كسرى ، رمز سيادة العجم ، يفلح ـــ بمعاونة أخت له من الجــان ـــ فى إحضاره .

يدرك الخليفة أن دليلة هى " أس البلاء " ، فتلقى عقابهـــا هى وأعوانها ، ويتزوج الزيبق من ابنة دليلة زينب التى أحبــها . ثم يقرر الزيبق أن يعود إلى مصر ، بعد أن بلغته أنباء طغيان عزيزهـــا الجديد ـــ الناصر ـــ " حتى يحكم بين الرعية فى مصـــر بـــالعدل والإنصاف " . ويخلص الناس من شرور الظالم ، وينصب ـــ بدلاً منه ـــ الفضل أبى العباس ملكاً على مصر ، و " كان صـــــاحب حكمة ودراية ، فسنّ الشرائع ، وأقام العدل بين الناس " ..

ويستنجد الخليفة فى بغداد بالزيبق ، بعد أن تحالف الفــرس مع الروم ، وكادت بغداد تسقط فى أيدى الغزاة . ويقضى الزيبق على الخطر فى الداخل ، ممثلاً فى الوجود الفارسى ، والخطــــر فى الخارج ، ممثلاً فى الروم ، لكنه ما يلبث أن يقع فريســـة مـــرض الموت ، ويغيب عن أمة الإسلام بطل عربى ، طهر البلاد من نفوذ العجم وبطش الروم ، وخرّت أمامه الأبطال والفرسان ..

***

ويبدو التأثير الإيجابي لحياة الزيبق فى وصية الرشيد لأبنائه — وهو يودع الحياة بعد وفاة الزيبق بأيام — : " وضعوا الأشياء فى محلها ، والمناصب فى أيادى أهلها ، ولا سيما الولاة وأرباب الوظائف الكبار ، فينبغى أن يكون هؤلاء من أهل الفضل والكمال موصوفين بالاستقامة والأمانة ، وأن يكون مشهوداً لهم بالحلم وصدق الديانة ، لا يميزون بين الحقير والشريف ، ولا يظاهرون القوى على الضعيف ، فيهابهم جميع المأمورين ويقتدى بهم باقى المستخدمين .. فإذا كانوا على هذه الحالة تستقيم أحوال الرعايا ، فترعى الذئاب مع الغنم . أما إذا كانوا على خلاف مع هذه الأوصاف ، مائلين إلى الانحراف ، لا يبالون بمنافع الخلق ، ولا يفعلون ما يقتضيه الخلق ، بل يصرفون الأوقات بالملاهى والملذات ، ويسمعون كلام الوشاة ، فسوف تضطرب الأحوال ، ويقع الاختلال ، ويكون سبباً لضرر البلاد عوض الإصلاح ، وتقمع العباد ، فيضيع الحق والإنصاف ، ويكثر الجور والاعتساف، فيسقط شرف الخلافة بعد علو الشأن ، ويعلو فوقه الذل والهوان " ..

***

كما ترى ، فقد عانت السيرة من تناقضات تاريخية ، لكن الوجدان الشعبى لا تشغله ـ كما تعرف ـ تناقضات التاريخ ، ما يعنيه هو المغزى والدلالة ، حتى أن وقائع التاريخ تتداخل ـ فى أحيان كثيرة ـ مع الوقائع الخيالية . العمل الإبداعى قوامه حقيقتان : الحقيقة التاريخية ، والحقيقة الفنية .. والأخيرة هى التى تشغل المبدع ، فهو ليس مؤرخاً .

لقد عبر الوجدان الشعبى الواقع التاريخى لشخصية على الزيبق والشخصيات المحيطة بها . خلط بين التاريخ والفن ليصل إلى الدلالات التى يريدها . اعتمد مؤلف السيرة الزيبقية الزمن الروائى وليس الزمن التاريخى . ثمة ابن طولون وهارون الرشيد مع تباعد عصريهما . وثمة ما يقرب من ٤٥٠ عاماً بين تألق سطوة على الزيبق فى ٤٤٤ هـ ، وقتل أحمد الدنف ـ أستاذ الزيبق فى السيرة ـ سنة ٨٩١ هـ ، ذلك لأن " العبرة دائماً بمغزى التجربة التاريخية ، وهو ما يدفع القاص الشعبى إلى انتخاب أحداث بعينها، وشخوص بأعيانهم ، والجمع بينهم فى زمن روائى وبيئة روائية لا علاقة لها بالواقع التاريخى المتضارب ، إلى جانب

اصطناع مواقف وأحداث خيالية أخرى " (حكايات الشطار والعيارين ٣٢٢) .

إن سيرة على الزيبق " وثيقة احتجاج أدبية على نظام حكم فاسد ، يعيشه مجتمع مطحون لمجموعة من الحكام الأجنب عن أحلامه وأمانيه " (أضواء على السيرة الشعبية ـ فاروق خورشيد ـ هيئة الكتاب ـ ١٧) ، وهى ـ بتعبير آخر ـ وثيقة فنية بالغة الدلالة ، أطلقها الوجدان الجمعى ـ عبر إبداعه الشعبى ـ ليصم بها فترة ربما كانت أحلك فترات التاريخ العربى، حيث السيادة للقوة لا للقانون ، إبان الحكم العثمانى ، حين غدا العالم العربى إيالة عثمانية ، افتقد معها الشعب الذى غُلب على أمره الأمن والأمان ، ولهذا لا غرو أن تتكامل هذه السيرة فى تلك المرحلة من تاريخنا ، وأن يُجمع الباحثون على ذلك التاريخ، وأن يَنتخب الإبداع الشعبى أبطال هذه السيرة من هؤلاء الشطار الثائرين ، أو المتمردين ، الذين وقفوا فى وجه لصوص السلطة ، وعرفوا بمواقفهم ـ تاريخياً ـ بعد أن عدّل ـ فنياً ـ من تاريخهم وملامحهم النفسية آنذاك ، ومن الطبقات المستأثرة لنفسها بالثروة ، وأن يسبغ على هؤلاء الأبطال الشطار من القدرات

والخوارق والأحداث ــ فنياً ــ ما يطمح إلى تحقيقه ، والوصــول إليه واقعيا " (حكايات الشطار والعيارين ٣٤٦) .

***

كانت سيرة على الزيبق هى آخر الســــير الشــعبية ذات المصدر التاريخى . أما ابن عروس وشفيقة ومتولى وياسين وبهيــــة وأدهم وغيرهم ، فإن حياتهم نبض حكايات ومواويل . وهو مـــا سنعرض له فى الفصول التالية ..

ابن عروس

حرامى ، عاصى وكداب

عاجـــــز هزيل المطايـــا

وتبت .. ورجعت للباب

هيـــا جزيل العطايـــا

هل كان أحمد بن عروس شخصية حقيقية ، أو أنه مجـــرد شخصية ابتدعها خيال الراوى الشعبى ، ونسب إليه سيرة حيـلة ، وقصائد العامية المصرية ؟ .. وهل كان ابن عروس صعلوكاً ولصاً وقاطع طريق ، أو أن الباحثين استنتجوا ذلك مـــن مربعاتـــه ؟.. وهل اعتزل ابن عروس ــ إن صحت سيرة حياته ــ لأن العمـــر تقدم به ، فسقطت هيبته من أعين الناس ، أو أنه اعتزل طريـــق الجريمة عن تدبر واقتناع ؟..

على الرغم من كثرة الكتب التى تناولت حياة ابن عروس، فإن شخصية الرجل تبدو شاحبة الملامح ، بل ومتباينة الملامح بين رواية وأخرى . قيل ــ إنه عاش فى القرن الثامن عشر الميـلادى ، أواخر القرن الثانى عشر الهجرى . هو أحمد بن عروس فى تسمية، وهو محمد بن عروس فى تسمية أخرى ، وهو شهاب الديـــن فى بعض الاجتهادات . وفى دراسة جادة للفنان التشكيلى والبـاحث محمود الهندى يشير إلى الحكايات التى حيكت حول ابن عروس ، بحيث يصعب التفريق بين الحقيقى والوهمى فيـــها ، فـــلا يكـــاد

الباحث يمسك بتلابيب الشخصية لهلاميتها ، حتى ذهب البعض إلى عدم وجودها ــ تاريخياً ــ فى الحياة المصرية (محمود الهندى: ابن عروس ــ دار قباء ــ ص ٨) .

تؤكد حكايات الشطار أن ابن عروس لص شريف ، احترف اللصوصية للانتقام من الظالمين ، فهو أقرب إلى اللصوص الشرفاء فى الأدب العالمى ، مثل روبين هود ، أو اللصوص الشرفاء فى الأدب العربى ، مثل " ابن بمبة " ــ وقد أتيح لى لقاؤه، وجعلته محوراً لروايتى " بوح الأسرار " . وهو ــ من ناحية ثانية ــ مع الفارق طبعاً ــ أشبه برابعة العدوية . المرء الذى يسرف فى الخطيئة ، ثم يعود إلى نفسه ، ويتوب ، وينخرط فى حياة مغايرة قوامها الصوفية والتعبد والنسك . وكما يقول محمود الهندى ، فإن " حكايات وقصص اللصوص التائبين الذين ارتقوا من الدرك الأسفل للإجرام ، محلّقين إلى أسمى درجات الولاية ، والانصياع للحق ، تعد أكثر السير الشعبية جاذبية وانتشاراً وشيوعاً ، وأشدها تأثيراً فى وجدان البسطاء " (ابن عروس ص ٥٢) .

ثمة رواية أنه أحمد بن عروس بن محمد بن عبد الله بن أبى بكر بن عبد الدايم بن عبد القادر التميمى الهوارى . أما أمه فهى "حميضة " أو " سالمة " من بلدة " مصراطة " القريبة من طرابلس بليبيا . لذلك لقب بابن الطرابلسية . وثمة رواية أنه أحمد بن عروس . كان من كبار الأولياء ، ومن أهل الجذب بتونس ، وله كرامات ظاهرة . واسم عروس ـ كما يقول صاحب كتاب " الوصية الكبرى ـ من الأسماء التى عرفت بالمغرب ، مثل قبيلة بنى عروس فى جبل العلم بالمغرب الأقصى . وثمة اجتهاد أن اسم ابن عروس غلب عليه منذ بواكير نشأته ، وبالتحديد منذ تحول إلى طريق الجريمة . وظل الاسم ملتصقاً به إلى ما بعد وفاته ، بينما يرى البعض أن تسمية ابن عروس تعنى الفتى القوى المحارب الذى يؤثر حياة البادية على حياة المدن . وهو ما يفسر شخصيته وفلسفة حياته (محمود الهندى : مصدر سابق ٤٦) . ابن عروس ـ فى رواية " أبو بثينة " ـ مصرى ، نشأ فى عصور المماليك ولم يتعلم القراءة ولا الكتابة . ابن بثينة يذكر أن ابن عروس ولد فى ١٧٨٠ ، فى إحدى قرى محافظة قنا إبان العصر المملوكى . وقد نشأ أمياً ، وتحول إلى قاطع طريق . وروى عن حياته الكثير من

الأشياء التى يسهل تصديقها ، أو العكس ، فهى حياة أقـــرب إلى الأسطورة ، تبدأ بالجريمة ، وتنتهى بالتوبة والانقطاع إلى العبـــادة فى الجبل (أبو بثينة : الزجل العربى ـــ كتاب الهلال ـــ العـــــدد ٢٧٠) وإن تحفظ الكاتب على ما ذكره ، بأن تلك الروايـــة ـــ أغلب الظن ـــ مختلقة ، كتلك الرواية الأخرى التى رويت عنـــه بعد أن تاب (المصدر السابق ٥٢) . وثمة من ذكر القرن التاسع الهجرى تاريخاً لميلاد أحمد ابن عروس ، مثل إبراهيم الفحام ومحمد فريد غازى وغيرهما . أما الباحث التونسى جلول عزونـــة فـــهو يؤكد ـــ لم يشر إلى بواعث التأكيد ! ـــ أن ابن عروس ولـــد فى أواخر القرن الثامن الهجرى ، أو أوائل القرن التاســـع (أخبـــار الأدب ٢٠٠٠/١/٣٠) . وثمة روايات تؤكد أن ابـــن عـــروس عاش جانباً من حياته فى مصر ، وروايات أخرى تنفى أنه قدم إلى مصر ، وروايات تقدر أن ابن عروس شخصية غير حقيقية ، وأنها من اختراع الوجدان الشعبى . عبد الرحمن الأبنودى وصف ابـــن عروس بـــأنه شاعر وهمى ، ثم نسبه إلى تونس ، فهو ليس وهميـــاً إذن ، فى حين يرى أحمد سليمان حجاب أن ابن عـــروس مـــن جنوب الصعيد ، بالتحديد من قرية تابعة لمركز قوص . ورواية أن

ابن عروس من قبائل الهوارة المنشرة بين الصعيد وشمال افريقيك أو أنه ـــ كما يقول يوسف الشربينى ، صاحب " هز القحـــوف فى شرح قصيد أبي شادوف " ـــ " قطب أقطاب المغرب ـــ يعـــنى كان ولياً ! ـــ أما صديقاى مسعود شومان ومجـــدى الجـــابرى فيقرران أن معظم الكتب التى رجعا إليها ، اتفقت على أن ابـــن عروس شاعر مصرى " مأصّل " ، وأنه ولـــد فى ١٧٨٠ ، دون تحديد لتاريخ لميلاد ولا مكانه ، وإن تحفـــظ الباحثـــان علـــى الروايات بعامة انها غير دقيقة ، سواء من حيث تاريخ الميـــلاد أو مكانه (أدب ونقد ـــ إبريل ١٩٩٦) . وفى تقديـــر الوجـــدان الشعبى أن ابن عروس ولد فى إحدى قرى الصعيد ، فى فقـــط أو قوص ، لأبوين فقيرين ، بحيث صعب الاستدلال على اسميـــهما وحسبهما ونسبهما. ويقول الباحث الجاد إبراهيم محمد الفحـــام ـــ أرجو أن تتنبه أجيال الباحثين إلى إضافاته القيمـــة ـــ إن رواة سيرة ابن عروس ، استنتجوا ملامح شخصيته من اسمه ولقبـــه " أحمد بن عروس الهوارى " ، ونسجوا من خيوط ذلك الإنتـــاج حكماً وقصصاً ساذجة ، بحيث خلقوا منه شخصية أخرى تكـــاد تكون مستقلة عن شخصيته الحقيقية (إبراهيم محمد الفحام – ابن

عروس والطريقة العروسية - الفنون الشعبية - ديسمبر ١٩٧٠)

.

أما اسم ابن عروس ، فقد نسب إلى قصة عروس قطع عليها الرجل الطريق – أيام احترافه الجريمة – وفر أهلها خوفاً منه . وسألها : من أين ؟ وإلى أين ؟ .. وبينما هى تجيب ، لوى الجمل عنقه ، وأكل من الزرع الأخضر ، وكان الوقت ربيعاً ، فقالت له العروس :

ياجمل العروس .. لاترعى الندى
العقبة طويلة .. والملتقى غداً

وتأثر الرجل بكلام العروس ، وأشرقت التوبة فى نفسه ، ونزل من الهودج ، فأخذ بمقود الجمل ، ومضى به إلى بيت العروس ، وعاد إلى بيته ، فنزع عنه ما كان يرتديه من الثياب الفاخرة ، وهام على وجهه فى الخلاء ، وهو يقول :

حرامى .. عاصى .. وكداب عاجز .. هزيل المطايا
وتبت .. ورجعت للباب هيا جزيل العطايا

(ابراهيم محمد الفحام – الفنون الشعبية)

والواضح أن هذه الحكاية مستوحاة من تسمية ابن عروس، وتعليلاً لها ، وإن كان " ابن عروس " من الأسماء المعروفة بالمغرب. فثمة قبيلة " بنى عروس " فى جبل العلم بالمغرب الأقصى..

ولأن لقبه الهوارى ، فقد نسبه الرواة إلى قبائل الهوارة بجنوب الصعيد ، وإلى الفترة التى كان يتزعم تلك القبائل الأمير همام الهوارى ، عظيم بلاد الصعيد كما وصفه الجبرتى (توفى الأمير فى ١٧٦٩) .

وكان ابن عروس قد ادخر ــ عند إعلانه التوبة ــ أموالاً طائلة ، لم يبق لنفسه منها شيئاً ، ووزعها على الفقراء والمعوزين. وأقبل على حياة التصوف ، متجرداً ، لا يشغله إلا العفو الإلهى ، ونصح الناس باجتناب الحرام . ويحدد البعض سن الستين تاريخاً لإعلان ابن عروس توبته . وقد ظل على تصوفه ونسكه ، يلقى قصائده ، ويرددها مريدوه من بعده ، ثم ينقلها الناس ويرددونها فى الموالد والأسواق والمناسبات الدينية ..

***

قيل إنه ظل يحترف الجريمة أكثر من ثلاثين عاماً . تحـدى السلطة الرسمية ، وخرج على القانون ، وصار ابن ليل ، وقـاطع طريق ، وحاول السراة وحكام الأقاليم استرضاءه بالأموال اتقـاء لأذاه ، وحفاظاً على مكانتهم وكرامتهم . ثم عاد إلى نفسـه ، وأعلن التوبة فى أخريات حياته ، وتحول إلى الصوفيـة ، وكـان يحمل على كتفيه صرائر كثيرة ، تكفيراً عن ذنوبه . وبدأ فى نظـم رباعياته الشهيرة التى تتحدث عن عبر الدنيا ، حتى مات بعـد أن جاوز الثمانين . وكان ذلك ــ كما يقول جلول عزونـة ــ فى ١٤٦٣ م . (أخبار الأدب ٢٠٠٠/١/٣٠) (طرحت المعلومـة على الصديقين الأديبين التونسيين الميدانى بن صالح وسوف عبيـد، ونحن نزور الزاوية، فلم يظهرا تأييداً لها)

لكن الفحام يتحفظ ، فيشير إلى أن هذه القصة ربما كانت من نسج خيال ابن عروس (الفنون الشعبية ــ ديسمبر ١٩٧٠).

ويذهب الباحث التونسى إلى أن ابن عروس ــ أحمد بـن عروس ــ ليس مدفوناً فى بلدة المنستير ، حسب اجتهاد إبراهيـم الفحام ، لكنه مدفون بزاويته المعروفة باسمه فى عاصمـة تونـس وسط المدينة العتيقة بالنهج ــ الشارع ــ الحامل لاسمه ما بـين

جامع الزيتونة وجامع حمودة باشـــا المـــراوى (أخبـــار الأدب ٢٠٠٠/١/٣٠) .

ويشير عمر بن على الجزائرى فى كتابه " ابتسام العروس " إلى روايات كثيرة ، أكدت أن ابن عروس " كـــان لا يشـــاهد مصلياً ولا صائماً ، وكان يمازح النساء ، ويمزج بالفحش كلامه، وأنه " لولا ذلك لأجمع الناس على ولايته ، ولاجتمعـــوا علـــى صلاحه وهدايته " .

ويقول الفحام ، إن ابن عروس كان يلقب بذى القرنـين ، أى ذى الشيخين ، لأنه أخذ الطريقة عن شيخين ، أحدهمـــا ـــ كما كان يدعى ـــ الخضر عليه السلام ، كما أخـــذ الطريقـــة الشاذلية عن ياقوت العرش تلميذ أبو العباس المرســـى وخادمـــه وزوج ابنته مهجة ، الذى أخذها كذلك عن قطب الأقطاب أبـــو الحسن الشاذلى (الفنون الشعبية ـــ ديسمبر ١٩٧٠) . ويذهـــب الباحث إلى أن ابن عروس " لم يعش فى مصر ، على الرغم ممـــا يدعيه رواة سيرته فيها " (الفنون الشعبية ـــ ديســـمبر ١٩٧٠) . والبواعث التى يستند إليها الفحام فى رأيه ، هى أن اسم " عـــروس " أو " ابن عروس " ليس من الأسماء المألوفـــة فى مصـــر ، وأن

الجبرتى لم يشر إليه فى تاريخه الذى حفل بسير شخصيات كثيرة تقل أهمية عن ابن عروس . وقد ولد الجبرتى فى ١١٦٧ هـ ١٧٥٣ م . وتوفى فى ١٢٤١ هـ ١٨٢٥ م . وبدأ فى تسجيل الأحداث منذ ١١٠٦ هـ ١٦٩٥ م . بينما تذكر الروايات التى تؤكد حياته فى مصر ، أنه عاش فيها أواخر القرن الثامن عشر ، وبالتحديد نهايات أيام العثمانيين ، وقبيل الحملة الفرنسية (الفنون الشعبية - ديسمبر ١٩٧٠) . ولو أن ابن عروس عاش فى مصر بالفعل ، لعُرِف تاريخ وفاته ، وموضع ضريحه ، إن كان قد أقيم له ضريح ، فضلاً عن غياب القرية ، أو العائلة ، التى تعتز بانتسابه إليها (المصدر السابق) . ولعل الزعم بأن ابن عروس كان يعيش فى جنوب الصعيد ، أنه موطن الهوارة الذين كان ينتسب إليهم، وإن انتمى الهوارة المصريون إلى هوارة ليبيا وتونس ، حيث موطنهم الأصلى جميعاً (المصدر السابق) . وقد يعود السبب إلى أن تلك المنطقة شهدت ذيوع حكمه ، لأنها كانت مقصد أتباع الطريقة العروسية الشاذلية من أبناء الشمال الإفريقى الذين كانوا يأتون لزيارة ضريح قطب الأقطاب أبو الحسن الشاذلى فى حميثرا بالصحراء الشرقية (المصدر السابق) .

وقد أضاف إلى شهرة ابن عروس ما روى من أنه كـان " قوالاً يقول الشعر والحكمة " ، وتناقل الرواة رباعياته منذ زمانـه إلى زماننا الحالى ، ونسج الكثير من الشعراء على منوالـه مثـل صلاح جاهين وسيد حجاب وحامد البلاسي وعبد الستار سـليم وغيرهم . أما حسين مظلوم ومحمد مصطفى الصباحى ، فـهما يتحدثان عن ابن عروس باعتباره شخصية حقيقية . لم يحاولا نفى الادعاء بأن الرجل قد يكون شخصية غير حقيقية ، لأن النفـى يعنى أن " القضية " تحتمل التأكيد والإنكار . فابن عروس ـــ كما يروى الكاتبان ـــ عاش حوالى عام ١٨٧٠ . وكان لصاً وقـاطع طريق . ولد فى إحدى قرى الصعيد لأبوين فقيرين . ولمـا كـبر ترأس عصابة من اللصوص وقطاع الطرق ، وجمع ثروة هائلة مـن عمليات السطو والنهب وفرض الإتاوات . ثم راجع نفسه بعـد إجرام ثلاثين عاماً ، فابتعد عن طريق الشر ، ووزع ثروته علـى المحتاجين ، وتفرغ للصوفية والنسك ، وراح يلقى مربعاتـه ذات الدلالات الاجتماعية والأخلاقية ، فى المدن والقرى والنجـوع ، بحيث تعظم مريدوه والناقلون عنه . ثم ردد الناس تلك المربعـات فى مجالس السمر ، وفى المناسبات المختلفة ، وتمثلوا ما تشتمل عليه

من حكم ومواعظ . وظل ابن عروس على هذا الحال أكثر من عشرين سنة ، حتى توفى وقد نيف على الثمانين (حسين مظلوم رياض ومصطفى محمد الصباحى ـ الأدب الشعبى) . ويذكر إبراهيم محمد الفحام أن مولد ابن عروس جاء فى قرية " المزاتين " بالجزيرة القبلية ، على بعد خمسين ميلاً من مدينة تونس . وفى صباه ترك أسرته ، ورحل إلى تونس ، ولزم زاوية الشيخ أبو عبد الله محمد المحجوب . واشتغل ابن عروس ـ أثناء أقامته فى العاصمة تونس ـ بنشر الخشب ، وبالتجارة ، وبصناعة المحاريث، ثم انتقل إلى مدينة بترزت ، ثم باجة ، وغيرها.. ثم اعتزل ابن عروس حياة الناس ، وتفرغ للعبادة ، وتنقل بين مدن الجزائر ومراكش ، ثم عاد إلى تونس بعد أن أصبح ذائع الصيت، وتكاثرت أعداد المؤمنين بأحواله ، وأقام فى أحد الفنادق ، قبل أن يبنى له السلطان محمد المنتصر بن المنصور بن فارس ـ وهو من سلاطين بنى حفص ـ زاوية له فى ذلك الفندق . ونسب إليه من الخوارق بعد وفاته ، انه تكلم وهو ميت، وتكلم وهو محمول فى النعش . وكما تباينت الروايات فى ميلاد ابن عروس وطفولته ونشأته ، فقد تباينت فى عام وفاته . قيل إنه مات فى تونس عام

٨٧٠ هـ . وقال الحنبلى إنه توفى فى حوالى ٨٧١ هـ . وحدد البرمونى تاريخاً لوفاته ٢١ أكتوبر ١٤٦٣م ـ ٨ صفر ٨٦٨-هـ وأضاف البرمونى أنه توفى عن مائة وخمس عشرة سنة . وقد دفن فى الزاوية المسمّاة باسمه ، ولا تزال قائمة حتى الآن . أما عبد الرحمن الأبنودى ، فقد وصف ابن عروس بأنه " فارس وهمى يدعى أحمد بن عروس " (عبد الرحمن الأبنودى ـ السيرة الشعبية بين الشاعر والراوى ـ الشموع ـ إبريل١٩٨٦). ثم ما لبث أن تخلى عن اجتهاده ، حين طالعنا فى يومياته بالأخبار القاهرية بأن ابن عروس ليس مصرياً ـ فهو ليس فارساً وهمياً إذن ! ـ وأن القصائد التى نسبت إليه ليست من تأليفه . " ابتسام العروس ووشى الطروس فى مناقب سيدى أحمد بن عروس " كتاب من تأليف الشيخ عمر بن على الجزائرى ، صديق الشيخ ابن عروس ومريده ، وطبع بمطابع الدولة التونسية . لم أقرأ الكتاب ، ولم يعرضه الأبنودى بإفاضة ، لكنه ذكر تتبع المؤلف لحياة ابن عروس من المنبع إلى المصب : الطفولة ، الصبا ، التصوف ، المناقب ، الأقوال ، الموت، دون أن يشير إلى قصائد ابن عروس ، فيما عدا مربع واحد عاد به بعد رحلة إلى المغرب ،

كانت هى الرحلة اليتيمة خارج تونس . أما الأشعار المنسـوبة إلى ابن عروس فهى مغربية ، صاحبها المتصوف المغربى سيدى عبـــد الرحمن المجذوب (الأخبار ١٠/٤/١٩٩٥) .

ولعل ابن عروس تونسى ، قدم إلى صعيد مصر [أذكــرك ببيرم التونسى] ، وألف فيه مربعاته الشهيرة . ثم دعا إلى وطنـه ، فمات فيه . ولعل الرجل مصرى ، عاش حياة الجريمة ، ثم عـــاش الزهد والتصوف . وجاءت مربعاته تعبيراً عن الصبر والتجـــارب التى استخلصها من الحياتين معـــاً . ويرجـــح البعـــض وجـــود شخصيتين ، كلاهما يحمل نفس الاسم ، أحدهما هو ابن عـــروس المصرى ، والآخر هو ابن عروس التونسى ، وإن كان كل منـــهما قد كتب الشعر بنفس الطريقة (محمود الهندى : ابن عـــروس ـــ دار قباء ـــ ص ٧٥) .

وقد تعددت الصفات التى أطلقها مؤرخو ابن عروس على شخصيته ، فهو " العبد الصالح المجذوب الكبير الشأن " ، وهـــو " من كبار الأولياء ، أهل الجذب بتونس ، و " له كرامات ظـــاهرة وأحوال باهرة " ، و" كان مهاباً لرؤيته " ، و " كانت الطيـــور الوحشية تنزل عليه ، وتأكل من يديه " ، و " كان عنده جمـــع

وافر من الفقراء ، فكان يمد يده فى الهواء ، ويحضر لهم ما يكفيهم من القوت " و " من علو مقامه كان يركب على الأسد ، ويتعمم بالثعبان ، ومن مناقبه كانت لا تنفر منه الطيور ، وتـــترل عليـــه بأجنحتها ، ويعرف كلامها ، وتعرف كلامه " إلخ ..

وكما نرى ، فعلى الرغم من أن ابن عروس ـــ كما يقول رواة سيرته ـــ عاش حتى أواخر القرن التاسع عشر . فإن رواياهم عنه تتباين إلى حد التضاد ، وتشحب المعلومات فيها بما لا يتفـــق مع الفترة القريبة نسبيا ..

ولعل الباعث فى غموض شخصية ابن عروس ، إلى حـــد إنكار وجودها التاريخى ـــ فى تقدير بعض مؤرخيه ـــ أنه لم يعش فى مصر ، وإنما كان ميلاده وحياته وموته فى موطنه تونس - فهو إذن لم يولد فى صعيد مصر ، كما أكدت روايات أخرى - بعـــد أن زار الجزائر والمغرب ، ولم تصل إلى مصر سوى حكمه، أتـــى بها مريدوه وأتباعه من العلماء والحجاج والمهاجرين مـــن أبنـــاء المغرب العربى إلى مصر ، والذين نشروا الطريقة المنســـوبة إليـــه، وهى الطريقة العروسية ، التى تعد فرعاً من الطريقة الشاذلية.

ويحتفظ الوجدان الشعبى بوقائع مثيرة ــ قد لا تكون حقيقية ــ عن خروج ابن عروس عن طاعة الحكام ، وتصدّيه لهم. حتى أن حاكم تونس بعث إليه جماعة ليأتوه به ، فابتلعتهم الأرض بأمر من ابن عروس . كما أحرق ــ بنفخة منه ــ جماعة من بنى رياح ــ فرع من بنى هلال ــ حاولوا القبض عليه . ويقول كتاب " الوصية الكبرى " بأنه " كان إذا اغتاظ يقف شعره ، ويخرج من قميصه وإزاره ، ويزاحم أعداءه ، فيغلبهم ويقتلهم " .. " وكان لا يؤثر فيه حتى ضرب الحديد ولا رصاص ولا رماح " (الفنون الشعبية ــ ديسمبر ١٩٧٠) . ولتعاظم ما روى عن ابن عروس ، مضخماً بأساليب القوة والبطش ، فقد توالت الهدايا و " الفرد " إلى حيث يقيم ، من المدن والقرى المصرية ، تقرباً إليه ، والتماساً لعطفه من ناحية ، ومحاولة لطلب مساندته عندما تعوزهم الحاجة إلى ذلك ..

***

العيب الذى شاب معظم الاجتهادات التى عنيت بحياة ابن عروس ــ إن لم يكن جميعها ــ أنها اعتمدت على الظن والاجتهاد والتخمين والاستنتاج . خلت من المعلومة الموثقة ،

فصار التشكيك فيها جميعاً ، أو فى بعضها ، متاحاً ، وهـــو مـــا يذكرنى بالنقلية التى لجأ إليها دارسو جمال الدين الأفغانى ، فقـــد تمحورت اجتهاداتهم حول المعلومات التى قدمها الأفغانى نفسه عن ميلاده ، ونشأته ، وحياته إلى أن بلغ الثامنة والعشرين من العمـــر .. اختلفت الاجتهادات فى إطار المعلومات الأساسية ، فجـــاءت الاختلافات هامشية ، تسلط أضواء باهتة على شخصية الأفغانى ، وحقيقة دوره فى العالم الإسلامى ، فى تلك الفترة الـــتى ســـبقت غروب دولة الخلافة واندثارها . ثم انشغلت باحثة أمريكية بإعادة تقليب ملف الأفغانى . أهملت النقلية فى البحث والاجتهاد، عادت إلى الوثائق الأصلية والمواقع التى شهدت الأحداث ، وقدمت لنـــا ما يمكن اعتباره حقائق موثقة ، قدمت الأفغانى فى صورة مغـــايرة للصورة الثابتة ، السلفية ، التى كان عليها . وحين اعتمد لويـــس عوض على الحقائق التى قدمتها الباحثة الأمريكية فى تأليف كتاب عن الأفغانى ، بدعوى أنها اجتهاداته الشخصية ، وقدم على شلش كتاباً ثانياً ، أشار فيه إلى كتاب الباحثة كمرجع أفاد منه إطلاقاً ، فإن الدنيا قامت ولم تقعد ، وتعالت الاتهامات التى تجد فى المعلومة

المغايرة ـــ بصرف النظر عن صحتها ـــ ما يجب تسخيفه وإدانتـــه

***

القول بأن خلو ديوان شعرى من قصائد ابن عـــروس ، أو مقطّعاته ، يؤكد أن المقطّعات مجرد أزجال شفاهية ، ألفـــها رواة مجهولون ، وتناقلوها ، وأضافوا إليـــــها ، ثم نســـبت إلى تلـــك الشخصية الوهمية المسماة " ابن عروس " .. هذا القول ينطـــوى على تبسيط للأمور ، لأن الكثير من الأدب العـــربى ـــ فى أجناسه المختلفة ـــ لم يتح له التدوين والنسخ فى ظـــل غيـــاب المطبعة ، بل إن معظم كلمات الأفغانى ـــ على سبيل المثـــال ـــ وقد ألقاها فى قهوة متاتيا زمن المطبعة ـــ لم يتح لهـــا ـــ حـــتى تصدى للمهمة الباحث محمد عمارة ـــ أن تصدر بصورة متكاملة فى كتاب .

وإذا كانت مقطّعات ، أو مربعات ، أو رباعيات ، ابـــن عروس لم تصدر كاملة ـــ حتى الآن ـــ فى ديوان مطبوع ، فـــإن الروايات الشفاهية التى ترددت فى توالى السنين ، تؤكد أن تلـــك المقطعات يصعب أن تصدر من فراغ ، أو من غير مؤلف ، فـــهى

. لابد أن تصدر عن شاعر له خبرته بالحياة والناس ، وله خصائصه الفنية المتفردة . ومن الصعب كذلك أن تلفق كل تلك المقطعات، وتنسب إلى شخصية وهمية ، يحاول مخترعها أن يكسوها باللحم والدم ، ويضعها فى الزمان والمكان المحددين ، وإن أمكن القول أن الكثير من المربعات نسب إلى ابن عروس ، وقد ظهر اختراعها ، وأنها ليست من تأليف الشاعر ..

أما لماذا سميت بفن الواو ــ وهى التسمية التى انسحبت على الأعمال المقلدة ، التالية ، ــ وأشهر مبدعى فن الواو الآن صديقى الشاعر عبد الستار سليم ــ فلأن عبارة " وقال الشاعر " أو " وقال ابن عروس " كانت تسبق المربعات دائماً .

***

ثمة من يرى أن كل ما نسب إلى ابن عروس من مربعات لم يكتب منه سطر واحد . ويرجح الفحام أن تكون مقطعات ابن عروس الشائعة فى مصر من صياغة بعض أتباعه المصريين ، لأنها مصرية الأسلوب ، وربما اقتصر الأمر على تمصير بعض ألفاظها فقط (الفنون الشعبية ــ ديسمبر ١٩٧٠) .

ومن هذه المقطعات :

لو كنت خايف من الله　　والاّ من القبـــر والهـــول
ما كنت تغتـــرّ بالجـــاه　　والظلم والجـــور والصول
النـــدل ميت وهو حيّ　　ما حد حاسب حسابـــه
وهـــــو كالترمس النيّ　　حضوره يشبه غيابـــــه

***

النــــــدل لـــه طعم مالح　　وله خصـــايل ذميمـــه
القـــــرب منّه فضايـــح　　والبعـــد عنـــّه غنيمـــه

***

قلل كلامـــك وخلّيـــك　　فى كل محفـــل موقـــر
واحسن لمن كان يؤذيـــك　　بالسوء فى كل محضـــر

***

إن زاد الريـــح ينـــــدار　　بإذن مـــن لـــه الإرادة
والفرح والحزن خـــطـــار　　لا دام .. لا ده .. ولا ده

***

قّل كلامـــك وخلّيـــك　　فى كل محفل موقـــرّ
واحسن لمن كان يؤذيك　　بالسوء فى كل محضـــر

***

كسرة من الزاد تكفيك وتبقى نفسك عفيفه
والعمر بكره يطويك وتنام جنب الخليقه

***

الليل ماهوش قصير اللا على اللى ينامه
والشخص ما دام فقير ما حد يسمع كلامه

***

لابد من يوم معلوم ترتد فيه المظالم
أبيض على كل مظلوم أسود على كل ظالم

* * *

يبقى أن كل الروايات المصرية ــ تقريباً ــ ترى فى ابن عروس مجرماً أدرك التوبة فى أخريات أيامه ، وعبّر عن ذلك فى رباعيات شهيرة ، تعد ــ بلا جدال ــ معلماً مهماً فى أدبنا الشعبى . وهذا الإجماع ــ فى الحقيقة ــ يهمنا ، لأنه يطرح السؤال الذى ننطلق منه : ما البواعث التى أهمل الوجدان المصرى فى ضوئها كل الاعتبارات السلبية فى شخصية ابن عروس ، وجعله ــ من ثم ــ واحداً من رموزه الشعبيين ؟..

القيمة الأهم لمربعات ابن عروس — فى تقديرى — وهى القيمة التى اقتحمت الوجدان الشعبى — أن صاحبها استخلصها من حياته . وهى حياة أمضى صاحبها الشطر الأول ، الكبير ، منها ، محترفاً للجريمة وقطع الطريق ، واستلاب الآمنين طمأنينتهم وأموالهم . ثم أعلن الرجل توبته ، وأمضى ما تبقّى من حياته راوياً للناس ما اختبره فى حياته ، وناصحاً ، وواعظاً . أداته الأولى تلك المربعات التى تحوى خلاصة خبرة حياته . لم يشغل الناس أن صاحب تلك المربعات كان قاطع طريق ، يسلب الناس راحتهم وأمنهم وأموالهم . كل ما شغلهم — ومازال — مربعاته التى تنبذ الشر والجريمة ، وتدعو إلى الحق والخير ..

وإذا كان الكثير من مربعات ابن عروس — كما يقول إبراهيم الفحام — قد صاغه شعراء ورواة فى أجيال تالية ، أو أن القائل هو ولى الله سيدى عبد الرحمن المجذوب ، فإن ذلك — بصرف النظر عن صحة أحد الرأيين أو خطئه — أو صحتهما أو خطئهما معاً — فى صالح الوجدان الشعبى المصرى . لقد أضاف إلى شعر ابن عروس ، كما أضاف إلى سيرة عنترة والهلالية وبيبرس والزيبق ، وحكايات أدهم وشفيقة ومتولى وغيرهم ..

ولم تكن مربعات ابن عروس هى كل ما خلّفه ، وتناقله عنه الناس ، ووضعوه فى مكانته المتفردة كواحد من أهم المتصوفة. لقد تزايد ـ بتوالى الأعوام ـ ما نسبوه إليه من الكرامات والمكاشفات والخوارق ، حتى وصف بأنه " العبد الصالح ابن عروس ، المجذوب الكبير الشأن . كان من كبار الأولياء ، أهل الجذب بتونس . له كرامات ظاهرة ، وأحوال باهرة ، وكان مهاباً ، لا يقدر على لقائه كل أحد بحيث يقشعر البدن لرؤيته " (نقلاً عن محمود الهندى ـ مصدر سابق) . ونسب إليه أن كواسر الطيور كانت تأكل من يديه ، وكان يعرف كلامها وتعرف كلامه . وكان يمد يده فى الهواء يلتقط منه ما يكفى من يقصده من الفقراء . وكان يركل الأسد ، ويتعمم بالثعبان . وعرف عنه الشجاعة والقوة الخارقة ، فهو يستطيع أن ينقل على ظهره من الحديد ما يزيد وزنه عن العشرة قناطير . ومن المهم أن نتأمل نسبة جلول عزونة شهرة ابن عروس إلى عاملين : تأسيسه لطريقة صوفية تعرف بالعروسية ، وهى طريقة دراويش تنتسب لأبى العباس أحمد بن عروس ، وتعد فرعاً من الطريقة الشاذلية ، والتى تعد كذلك من أهم الطرق الصوفية فى مصر . أما العامل الثانى ، فهو قصائده الشعبية التى حفظها الناس، وردّدوها ،

ووجدوا فيها تعبيراً عن تقلبات الحياة وظروفها وحكمها (أخبـلو الأدب ٢٠٠٠/١/٣٠) . وكان أميز ما فى حياة ابن عـــروس فى أعوام احترافه الجريمة ، ومقاومته المعلنة لها . وكانت كرامـــــات الصوفية ــ حتى من قبل أن يصبح كذلك ! ــ هى وســـيلته إلى المقاومة ، فقد قضى على محاولة للقبض عليه ، بأن أمر الأرض أن تبتلع من جاءوا لذلك الأمر ، فابتلعتهم الأرض فى الحـــال . وأراد عدد من قبيلة بنى هلال أن يوقعوا به ، فأحرقهم بنفخة من فيــه . وقيل إنه لم يكن يؤثر فيه السلاح ، مهما يكن مميتاً ..

ولعل تناقض الروايات عن حقيقة ابن عروس ، ومـــا إذا كان قاطع طريق مصرى ، أو متصوف تونسى ، و أن ما نســب إليه من مربعات هو من تأليفه ، أو أنها من تأليف شعراء آخريـــن، نسبت إليه لسبب أو لآخر .. لعل فى تناقض تلك الروايات مـــا يصل بنا إلى حقيقة أن الوجدان الشعبى يضع " البطل " فى الإطـار الذى يريده له ، يعيد خلق سيرته من جديد . ربما أهمل الحقـــائق ولجأ إلى الخيال حتى يتجسد " البطل " فى صـــورة يأملـــها .. ثم نجاوز هذه النقطة لنعود إليها فى فقرات تالية ..

ياسيـــــــن

ويابهيـــــه وخبّرينـــى

ع اللى جتل ياسيـــــن

جتلـــــــوه السّودانيـــة

من فـــوق ضهر الهجين

وسابوه غرجان فى دمّه

خايف منـــــه الحكيـــم

يقول الشاعر الشعبي عن حكاية ياسين وبهية :

عبـّادى يـاواد عبـّادى   كرباجـك ع الهجيـن
واللى يعانـد عبـادى   حيعيش عمـره حزيـن
يا بهيـة وخبرينى يابـوى   ع اللى قتـل ياسيـن
جتلـوه السودانيـة   من فـوق ضهر الهجيـن
وياسين سايـح فى دمـّه   خاف منّـه الباش حكيـم
وبهيـه فى المحـاكم   شدّت واحـد وكيـل
احكـم بالعـدل يا قاضى   قدّامـك مظاليـم
عوج الطربوش على ناحيـه   حكـم باربـع سنيـن
اتنيـن فى السجن العالى   واتنيـن فى الزنازيـن

المؤرخ فرج العنترى يجد فى أبيات الموال إدانة ضد ياسين، وانتصاراً لبهية التى تشبعت " بكامل الأمن والأمـان " بعـد أن استطاعت الهجانة قتل ياسين ، وأن الصورة تحمـل " التوكيـد المطمئن على ضياع جبروت الشقى وأيامه " . أما الإشـارة إلى قيام بهية برفع الدعوى ــ فى نص الموال ــ فهى إيماءة إلى أنهـا كانت أسيرة مظلومة ، وتفتقر إلى مراحم العدالة (الفنون الشعبية

ـــ مايو ١٩٩٦) . وثمة اجتهادات أخرى ـــ كما نعـــــرف ـــ وجدت فى خصومة ياسين ضد الحكومة مايستحق الدفاع عنه ..

كان ياسين ـــ فى رواية صالح حرب ـــ من قبيلة العبــلبدة بأسوان ، وإن نسبت الصحف مولده إلى إسنا التابعة لمديرية قنا. كان قاطع طريق ، وإقامته فى الجبال المحيطة بمدينة إسنا ، يـــنزل منها إلى القرى ، وينهب ، ويفرض الإتاوات والحماية، ويقتـــل . حتى مواكب العرس كان يفرض عليها إتاواتـــه فيحميـــها ، ولا يعتدى عليها . دوّخ سلطات الأمن ، حتى صار " أعنف شـــقى ، وأجرم مجرم ظهر فى زمانه على أرض مصر ، واتخذ مـــن القتـــل حرفة ، ومن ازهاق الأرواح تسلية ، إذ كان يقتل ليلهو ويلعب ، ثم يبلغ به الطرب مداه عندما يسمع اسمه يردده الناس بـــالخوف والهلع " (محمد دياب : أبطال الكفاح الإســـلامى المعـــاصر ـــ مطبوعات الشعب) . وفى أثناء رحلة هروبه التى استمرت مـــا يقرب من ثلاثين شهراً ، اكتراه الأعيان وذوو النفوذ، ليصفّـــى جسدياً من يريدون التخلص منهم . وحين ضاقت وزارة الداخلية ذرعاً بجرائمه ، ويئست من القبض عليه . قررت أن تتجـــه إلى عمدة قبيلة ياسين ، وهو الشيخ على بلك ، فهددته بتجريده مـــن

رتبته ونياشينه إذا هو لم يأت لها بالشقى ياسين حيـــاً أو ميتـــاً . وفاجأ ياسين العمدة يوما ، فناشده العمـــدة أن يســـلّم نفســـه. ورفض ياسين قائلاً : " ياسيدى على بك .. أنت عمدتنا ورئيسنا ، ويعز على أن أوذيك ، لكنك تعلم أنى محكوم علىّ بـــالإعدام ، وتعلم أيضاً أنى لن أسلم نفسى حياً أبداً . كما أنى لـــن أمـــوت رخيصاً أبداً .. والخير لك فى أن تتركنى .. ثم : لمـــاذا تعـــرض نفسك للأذى ؟.. هل أنت أقوى من الحكومة ؟!..

وذهب العمدة إلى مفتش الداخلية الإنجليزى ، وقال لـــه : خذوا رتبكم ونياشينكم .. فأنا لست أقوى من الحكومة حـــتى تكلفونى بما لا أطيق !..

وواجه الضابط صالح حرب ـــ رئيس جمعيات الشـــبان المسلمين فيما بعد ـــ مع جنوده ، الشـــقى ياســـين فى معركـــة بالسلاح ، انتهت بمصرع الشقى الذى تتساءل الأغنية عن قاتله..

كان صالح حرب ضابطاً صغيراً . وفى أثناء عودتـــه مـــن وادى حلفا ، ضمن بعثة تستهدف شراء جمال لسلاح الهجانـــة . سمع عن حكايات ياسين ، الذى شمل نشاطه الإجرامى مديريـــتى قنا وأسوان ، وفشلت كل محاولات الدولة للقبض عليه ، أو قتله.

وأثناء وقت راحة للضابط صالح حرب وجنوده ، فى عودهم بقطيع الجمال ، أخبره أحد الجنود أنه شاهد بدوياً أمام إحدى المغارات ، وبيده بندقية . تصوره الجندى إعرابياً . لكن الدليل الذى كان يرافق قافلة صالح حرب أدرك أن الأعرابى ليس إلاّ ياسين ، فقد كان ـــ فى رواية صالح حرب ـــ من قبيلة العبابدة التى ينتمى إليها الدليل .. ويقول صالح حرب : " رأيت إنساناً يندفع من المغارة ، كأنه شيطان ينطلق فى خفة غريبة وسرعة متناهية ، ويريد أن يجتاز الممر إلى الجبل . وأطلقنا عليه النار لإرهابه فقط ، فقد كنا نريد أن نقبض عليه حياً . وعندما رأى الرصاص ينهال عليه ، اعتصم بإحدى الهضاب ، وانبطح خلفها ، وأخذ يطلق النار فى سرعة . واستمرت المناوشات بيننا بالرصاص، حتى تأكد لى أن هذا الشقى سيستمر فى المقاومة ، إلى أن يموت أو يفر " (آخر ساعة ١٩٦٦/٣/٣٠) . وانتهت المعركة بمقتل الأعرابى ، واتضح أنه المجرم الهارب بالفعل . أعلنت ذلك زوجته التى كان يسكنها المغارة مع طفلة منه . وكما يقول صالح حرب فقد " أخرجناهما . ولما علمت الزوجة بمقتل ياسين ، اندفعت تزغرد ، وتقول فى حماس : بركة لى .. بركة لى ..

وحسبت انها تتصنع الفرح خوفاً منه ، ولكنى علمت انها جـلدة ، لأنها كانت تعيش معـه فى خـوف وبـلاء " (آخـر سـاعة ١٩٦٦/٣/٣٠) . وثمة رواية أن بهية لم تكن تمت لياسين بصلـة قرابة . إنما هو رآها فى حفل زفاف ، وأحبـها ، وأقـدم علـى اختطافها بعد أشهر قليلة من الزواج ، وصعد بها إلى مغارتـه فى الجبل ، وأرغمها على الحياة معه . تضيف الرواية أن تلك الحادثـة كانت هى الباعث لانفضاض أصدقاء ياسين من حوله . أبـت طبيعتهم الصعيدية ــ بصرف النظر عن اشتغالهم بالجريمـة ــ أن يعملوا تحت إمرة رجل اختطف امرأة من زوجها !

***

لقد ألف أحد الشعراء المجهولون فى الصعيد موال " ياسين وبهية " عقب مقتل ياسين بأيام قليلة ، وتناقلت الأفواه المـوال ، وأضافت إليه وحذفت منه ..

واللافت أن الرواية الشعبية تناقض الرواية الرسمية تمامـاً ، وتشجبها . ظلت الحكومة خائفة من ياسين ، حتى بعد مقتلـه، " وياسين غرقان فى دمه .. خايف منه الحكيم " . وفى مسـرحية لابراهيم غراب باسم " يا عين صلى على النبى " ، يقول الشاعر:

شفتـــــوا ليــــــه الأرض بتكرم ياسيـــن ؟

أصل ضحى بعمره لاجل الفلاحيـــــــــن

ضحى لجل الأرض والساقيـــه .. ولجل النخلتيـــن

والأرض غاليـــه يافلاحيـــــن

الأرض غاليـــه يافلاحيـــــن

وفى قصة بعنوان " الأسطورة الخضراء " أفاد أستاذ الفـــن الشعبى الراحل زكريا الحجاوى من موال ياسين وبهية ، وأشار إلى أن السودانية لم يقتلوا ياسين من فوق ظهر الهجين ، إنما الذى قتله هم الإنجليز الذين يقاتلهم المصريون والسودانيون معاً " (زكريـــا الحجاوى : الأسطورة الخضراء ــ طريق الحرية ــ كتب للجميع)

أتصور أن مبعث تعاطف الوجدان الشعبى مع ياسين أنـــه كان ــ كما وصفه صالح حرب ــ قادراً فى كل مرة علـــى أن يخاتل رجال البوليس ، ويقتل منهم ، فيختل نظامهم ، وينفـــرط عقدهم ، ثم ينتهى الحال بمحاكمة قائد القوة (أبطـــال الكفـــاح الإسلامى المعاصر) . لقد جاوز الوجدان الشـــعبى ــ إن صـــح التعبير ــ كل ما ارتكبه ياسين من جرائم ، وأطـــال التـــأمل ــ

والإعجاب — فى معاركه ضد قوات البوليس . يخرج بالانتصار دائماً ، ويحال قائد البوليس إلى المحاكمة !

بل إن الأغنية الشعبية تربط بين مقتل ياسين وسخرة العمال المصريين للعمل مع الجيش البريطانى فى سيناء وفلسطين أعوام الحرب العالمية الأولى . لقد ساقت سلطات الاحتلال الآلاف من أبناء الفلاحين مقدمة لجيوشها فى سيناء . كما أرسلت عدداً منهم إلى فرنسا بعد أن تبين لها قوة احتمالهم على تحمل أهوال الحرب . وكانت عملية جمع العمال وسوقهم إلى جبهات القتال تتم بطريقة مهينة ، وقاسية . فقد كان الرجال من كل قرية يربطون بحبل واحد ، وغالباً ما كان هؤلاء الرجال من خصوم الإدارة أو العمدة ، ومن ثم يساقون إلى ميادين القتال دفعاً بهم إلى المهالك والأخطار . وكان ياسين — فى نظرة الوجدان الشعبى — واحداً من هؤلاء الرجال (محمد جبريل : مصر فى قصص كتابها المعاصرين ج١ص٤٠٠) . إنه واحد من الذين توسلت الأغنية الشعبية إلى الشمس ، أن تترفق بهم ، فلا تلسعهم حرارتها :

قولوا لعين لشمس ما تحماشى   أحسن حبيب القلب صابح ماشى

متــولى

جالوا جـــُـومْ اجَفْ عَلَى جْدامـــك
أهـــــو الحــــظ اتْعَدَل جُدَّامــــك
والسِّكة فِضِيتْ جِدَّامكْ .. يا متــــولى
يا جرجاوى . يا متولى . يا جرجاوى

سأل متولى القاضى : ما حكمك على شجرة قد مـــالت على بيت الجيران ؟

قال القاضى : اقطعها !

لذلك تقبل الوجدان الشعبى مقتل شفيقة ، لأنها قوضـــت تقاليد المجتمع وأعرافه الدينية والاجتماعية . الشرف ـــ فى تقديـــر الوجدان المصرى ويقينه ـــ هو العذرية والبكارة التى لا ينالهمـــا أذى . العرض يساوى الشرف فى حياة الفلاحين كمـــا يؤكـــد الراوى فى قصة محمد حسين هيكل " حكم الهوى " (الهـــلال ـــ فبراير ١٩٢٦) . تعاطف المتلقون مع متولى ، حين قتل شقيقته . لوثت شرفه ، وكان عليه ـــ من ثم ـــ أن يقتلها ، ويمحو عارها: " خلوا بالكم من حكاية شَفيقة واللى جرالها فى اسكندرية ، بعـــد ما اتفقت مع الخواجة خريستو صاحب الخمارة والجرســـونيرة . كان اتفاقهم مع بعض إن شفيقه تغيّر اسمها البلدى بإســـم تـــانى يناسب الوضع الجديد اللى حاتعيش عليه مع الخواجـــه . وتغـــيّر كمان شكلها وتلبس أفرنكى خالص ، وتقص شعرها الضفـــاير

الطويلة وتبقى واحدة تانية خالص . شفيقة وافقـــت الخواجـــة خريستو ، وغيرت كل شئ . بقى اسمها فيفى ، ولبست هـــدوم عريانه خالص ، وقصت شعرها ، وراحت عند واحـــد مـــدرس علّمها شوية كلام انجليزى تتفاهم بهم مـــع الزبـــاين الجـــداد فى الخمّارة والجرسونيره . شفيقة خلاص بقت فيفى ، واتعلمت ازاى ترطن بالانجليزى مع الزباين ، واتعلمت كمان ترقـــص قصـــاد الزباين ، وتفتح قزايز الخمره فى الخماره ، والزبون اللى يدفع أكتر هو اللى يفوز بشفيقه ويروح معاها الجرسونيره آخـــر الليـــل " (محمد على أحمد ـــ زين العاشقين ـــ أشهر قصص الحب الشعبية ـــ مكتبة رجب ـــ ٥٠) .

اسمع حكايــــــــــة جرت فى أسيـــوط
مع ولد اسمه متـــــولى والنقب فى جرجـــا
يوم سافر على الجيش بكيت عليه جميع جرجا
ياللى قريت الكتب شوف فعال جرجـــــا
واسمع لحادثة صبية مـــن نسا جرجـــا
الوعد جالها غصب عنها مـــن جرجـــا
فاتت بلدهـــا وطلعت توفى ما عليهـــا

الخشـــا راح والـــوش انكشف خالص
وبان جمالها ظهر على الجسم وعينيها

***

نازلة على فين رايحه يا عديمـــة البخت ؟
قابلتها حرمة كهينة أصلـــــها موش غال
وقالت : على فين رايحه يا عديمة البخت ؟
قالت : على أسيـــــــــــوط وفيها رجال

***

البنت راحت وفاتت السكـــن والأهـــــــل
هدوم وقمصان فى قاع الـــدن صبغوهـــا
صاموا عن الزاد وفاتوا السكن والأهـــــل
وشربوا كاس المرار والعيشة زهدوهـــــا

***

لقد رأى الجندى متولى صورة شقيقته مع أحد أصدقائـه ، وروى له الصديق حكاية شفيقة ، فذهب إلى حيث تقيم :

ودخل على البيت كما جزار موش دارى
وطلع على فوق بسكينة طويلة الحـــــد

ودخل على اختـــه وقال : يا قليب دارى

واشهد لربى ما فيش أبداً شريك له حـــد

ومحمـــد هو شفيعنا والرســـــول دارى

ضربها فى الجنب ما بين الضلوع والحد

والقلب شاله ، وقال زال ، والــدوام لله

يا شفيقة نصيبك كده فى كتاب اللـــــــه

والدم غالى .. بس الشرف لـــه حـــــد

ويا عين هاتى دموعك ما اتخرب دارى

والدم غالى .. بس الشـــــــرف للـــه !

***

الشرف لله !..

هكذا يقول متولى وهو يطعن شقيقته فى قلبـــها ، وهـــو يشهد الله بأنه مؤمن ، ويشهد الرسول بأنه مجبر على ما فعـــل ، ويخاطب شقيقته بالقول :

يا شفيقة نصيبك كده فى كتاب الله

والـــدم غالى .. بس الشرف له حد

ثم يهيب بعينيه أن تسفحها الدموع ، بعد أن سال دم أخته . يبكى على الدم الغالى ، الذى أهرق فداء للشرف ..

الموال لا ينتهى بمقتل شفيقة ، لكنه ينتهى بتبرئة متولى اجتماعياً وأخلاقياً :

فى المحكمة جابوا اسمه ونادوا عليه

جال له بتعمل كده ليه ؟

جتلت اختك يا شاويش ليه ؟

وادى حال الجرجاويه

....

حتى الجاضى فى جوله بيفرز

جاله ولا تخاف روح يا عزيز

ست اشهر بإيقاف التنفيذ

وادى دور الجرجاوية

....

اوعى تزعل حالك ياللى

إذا حملوك تتجل قلّى

وخلص دورك يا سى متولى

لقد أصبح متولى فى نهاية الموال بطلاً ، بعد أن انتقم لشرفه ، ومزجت النهاية بين القانون الوضعى والعـــرف الاجتمـــاعى " لكى تستقيم الأمور ، ولا يتصدع البناء الاجتمـــاعى أو الثقـــافى الاجتماعى الذى يستنكر مادياً ومعنوياً سلوك أمثـــال شـــفيقة ، ويعاقب عليه " (أحمد مرسى ــ المصدر السابق ــ ص ١١٧)

قتل متولى أخته شفيقة ، لكن نهاية القصة تعلن تبرئة متولىَ اجتماعياً وأخلاقياً ، فقد انتقم لشرفه ، وهو تصرف يقرّه الضمير الجمعى ، حتى لو كانت المقتولة هى أخت القـــــاتل ، بـــل لأن المقتولة هى كذلك .

الشرف ــ فى الموروث الشـــــعبى ــ يعـــنى العـــرض ، والشرف والعرض يتصلان بـــ " العفّة " ، وصيانة العرض تؤكـــد العفة ، كما تؤكد الشرف (سيد عويس : حديث عـــــن المـــرأة المصرية المعاصرة ــ ٩٠ ، ٩١) . الشـــرف يرتبـــط بالحســـية العضوية ، بالتكوين الفسيولوجى ، ومن ثم فـــهو يرتبـــط ــ فى الدرجة الأولى ــ بالفتاة أو المرأة . وبتعبير محدد ، فـــإن شـــرف الرجل ، وشرف الأسرة بعامة ، مرتبط بنقاء المرأة جنسياً .

إن شرف المرأة هو ملك الرجل بأكثر من أن يكون ملك المرأة . المرأة — فى التعبير المتداول — شرف الرجل ، ومن حقه — وواجبه — أن يدافع عنه حتى ضد المرأة نفسها . إنها تحمل شرفه ، وعليها أن تحافظ عليه ، أو تواجه العقاب الذى يصل إلى حد قتلها .

تعاطف المتلقى مع متولى لأنه دافع عن قيمة الشرف ، ودافع عن التقاليد والأعراف الاجتماعية ..

صيانة العرض تكوين أساسى فى شخصية المصرى . إنه يقبل الفاقة والعوز ، ولا يهين عرضه ، أو يبتذله . المومس المصرية تفعل كل شئ — حتى الجريمة — لدرء خطر مهنتها عن ابنتها ، أو أختها الصغيرة . إذا كانت الظروف قد ألجأتها إلى الخطيئة ، فإن عليها أن تحمى الأقربين من تلك الطريق . المصرى يقبل الدعابة فى كل شئ ، إلاّ فيما يتصل ببيته ، بأسرته ، بعائلته، بالنساء / الحريم فيها تحديداً . هنا يبدأ العيب والحرمات ، وما لا ينبغى الخوض فيه . قد يقتل لرائحة شياط كاذبة . تظهر المفاجأة فى إعلان الطبيب الشرعى أن القتيلة بخاتم ربها ، ولم يمسسها بشر . إذا تكرر رفض الفتاة لمن يتقدمون إليها ، ثارت الوساوس فى

الصدور ، وتوالت الأسئلة والمراقبة ، وثارت ــ ببساطة ــ الرغبة فى غسل العار (راجع : محمد جبريل مصر فى قصص كتابها المعاصرين ــ ج١) .

الوجدان الشعبى تعاطف أيضاً – على نحو ما – مع شفيقة لأنها ضحية الظروف القاسية التى ذهبت بمتولى إلى الجهادية ، لأنه لم يكن يملك البدل النقدى ــ عشرين جنيها ! ــ فذهبت بها من ثم إلى حى الدعارة بأسيوط لكى تستطيع أن تحيا !. والقدر ، المكتوب ، هو الحجة التى ساقتها شفيقة لتبرير لجوئها إلى طريق الدعارة حين جاء شقيقها ليحاسبها ، فهى لم تحاول أن تفر من الوعد والمكتوب . وإذا كانت قد خافت مقتلها بيد متولى ، فلأنها كانت تخشى على شقيقها أن يدفع ثمن الخطيئة التى ارتكبتها . ومع أن متولى لم يقتنع بحجة شفيقة ، فإن الكثيرين يميلون إلى الاقتناع ــ عن تفهم حقيقى ، أو عن إشفاق تمليه الطبيعة المصرية المتسامحة ــ أن كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون .

أدهـــــم

جت الحكومـــة بتجول يادْهم عملْت كـــده ليه
جال لها يا حكومه لما انْنجتلْ عمِّى عملق إيه
وانا جتلت يا حكومـــه وانا فى سجنكم موجود
والرب موجـــود مش عـــاوز بيّنـــه وشهـــود

سيرة " أدهم الشرقاوى " تطرح ـــ بقوة ـــ قضية الثأر فى السيرة الشعبية ، وفى أدبنا الشعبى عموماً ..

التعريف العلمى للجريمة هو أنها " كل فعل يرتكبه الإنسان يكون مخالفاً للقانون " . وأدهم ـــ من وجهـــة نظـــر القـــانون الوضعى ـــ مجرم ، أقدم على القتل ، بصرف النظر إن كان ذلـــك للثأر ، فاستحق العقاب ، لأن القصاص مسئولية الدولة. أما أدهم ـــ كما يصفه الموال ـــ فهو شريف ، واضح ، غير مخادع ، ذكى ، يتحدى الحكومة . وقد تعاطف الوجدان الشعبى مع أدهم لأنـــه ثأر لعمه من قاتليه ، فهو قد دافع عن الدم. وتبدى التعـــاطف فى الموال حين دفع " أهل البلد " لأدهم " بدل الجنيه ميه " فخفـــف الحكم من الإعدام إلى السجن ست سنوات .

الحكومة هى الخصم الذى يواجهه أدهم فى معظم أحداث الحكاية ، وهى من يتجه إليها بكل حيله وأعمالـــه البطوليـــة فى تقدير الوجدان الشعبى . ويلحظ أحمد مرسى أن موال أدهـــم لا

يقرن معه أحداً ، بعكس بقية المواويل ، مثل حسن ونعيمة ، شفيقة ومتولى ، ياسين وبهية ، عزيزة ويونس ، إلخ .. ذلك لأن الموال يركز على البطولة من وجهة نظر الجماعة الشعبية (أحمد مرسى ـــ مقدمة فى الأغنية الشعبية ـــ هيئة الكتاب ١٣٣) .

***

من هو أدهم الشرقاوى ؟..

ولد أدهم عبد الحليم عبد الرحمن الشرقاوى نحو ١٨٩٨ فى قرية زبيدة مركز إيتاى البارود . والده من أعيان القرية ، ويمتلك ٥٠ فداناً . أما عمه عبد المجيد بك عبد الرحمن فهو عمدة القرية . قتل فى أكتوبر ١٩٢١ ، فحياته الأسطورية إذن لم تستغرق سوى ثلاث وعشرين سنة . وكانت مدة مناوأته للسلطة نحو ثلاث سنوات (اللطائف المصورة ١٩٢١/١٠/٣١) .

وكما تروى " اللطائف المصورة " ، فقد كان استعداد أدهم ـــ منذ نشأته ـــ ليكون مجرماً . ظل فى المدرسة الابتدائية إلى السنة الرابعة . ثم أخرجه أبوه بعد أن لمس عدم ميله إلى مواصلة الدراسة ، فضلاً عن توضّح ميوله العدوانية فى التعامل مع الآخرين ..

عندما قدم إلى المحاكمة ـــ للمرة الأولى ـــ كان فى السادسة عشرة [عام ١٩١٥] وكان طالباً فى المرحلة الثانوية . ومن رواية " اللطائف المصورة " أن أول حادثة قتل ارتكبها أدهم، حدثت وهو فى التاسعة عشرة . وأثناء وقوفه فى قفص الاتهام أثارته شهادة لغير صالحه . وحاول أدهم أن ينزع سنجة حارسه ليطعن بها الشاهد ، وصدر الحكم بسجنه سبع سنوات مع الأشغال الشاقة . وفى ليمان طرة عرف أدهم من أحد السجناء أنه القاتل الحقيقى لأحد أعمامه ، وإن كان إيداعه الليمان لقضية أخرى . وثأر أدهم لقتل عمه بقتل السجين . ضربه على رأسه بالفأس التى يكسرون بها الأحجار . وحكم على أدهم بالأشغال الشاقة المؤبدة . وكانت تلك الحادثة ، وذلك الحكم ، هما المدخل الحقيقى لموال أدهم الشرقاوى كما رواه الفنان الشعبى ، فقد تحول من مجرد مجرم إلى طالب للثأر من قاتل عمه . كان البحث عن ثأر العم القتيل أقرب إلى ضغطة الزر التى تفجرت بعدها كل نوازع الرفض والتمرد والثورة ، ليس من أجل الذات وحدها ، وإنما من أجل الجماعة . لم يكن ما فعله أدهم ـــ فى تقدير الجماعة الشعبية ـــ مجرد أخذ بالثأر ، فسيظل "

الفعل " فى إطار البطولة الفردية ، لكنه كـــان انتزاعـــاً لحقـــوق الجماعة من قوى الظلم والاستغلال والطبقية والإقطـــاع والإدارة الحكومية الفاسدة ..وكما يقول عبد الحميد يونس ، فإن المواطـــن المصرى ـــ وأدهم مواطن مصرى ـــ لا يؤمن بأن الدولة منه وله، وأنها ـــ بهذا المفهوم ـــ تنوب عنه فى القصاص . إن الســــلطة لا شأن له بها (عبد الحميد يونس : مجتمعنا ـــ هيئة الكتاب ٩١) .

وكان هروب أدهم من السجن فى أحداث ثورة ١٩١٩ ، سبباً تالياً فى تحول المجرم إلى أسطورة . اختفى بالقرب من قريته ، وضم إليه عدداً من رجال الليل والمطاريد ، وبـــدأ فى ارتكـــاب جرائمه ..

ظل أدهم يرتكب الحوادث ما بين سطو ونهب وحـــرق وتدمير وإتلاف مزروعات وقتل . وركّز جرائمه فى قرية " زبيـدة " ليشوه صورة عمه ، فيفصل من العمدية بالتالى . لكن الرجـــل ظل فى منصب العمدية ، فحول أدهم عصابته إلى القتل بـــأجر " مقابل قليل من المال ، كما تقول " اللطائف المصورة " . وتحـــول إلى العمد والسراة يحصل منهم على مبالغ طائلة مقـــابل النجـــاة بحياتهم .

الغريب أن هدف أدهم الأول كان قتل عمه عبد المجيد بك الشرقاوى عمدة قرية زبيدة ، لأنه شهد ضده فى القضية الأولى التى حكم فيها على أدهم بالحكم سبع سنوات ، بينما أقدم أدهم على قتل سجين عرف منه أنه قتل عم آخر له !. لكن العم الذى أراد ابن أخيه أن يقتله ، أفلح ـ لشدة حذره ـ فى النجاة بحياته..

وكما تقول الحكاية الرسمية ، فإن أدهم قد تخلى عنه أعوانه حين أحكمت السلطة حصاره . وظل يتنقل ـ بمفرده ـ بين مراكز إيتاى البارود وكوم حمادة والدلنجات ..

وإذا كان الموال يتحدث عن خيانة الصديق بدران التى قتلت أدهم ، فإن رواية " اللطائف المصورة " تؤكد أن قاتل أدهم جاويش بوليس اسمه محمد خليل ، ترصد لأدهم فى غيط ذرة بعزبة جلال التابعة لناحية قلشان ، مع أونباشى سودانى وأحد الخفراء . وجاءت امرأة عجوز بطعام الغداء لأدهم فى حقل قطن مجاور . وأحس أدهم بحركة داخل غيط الذرة المجاور ، وتبادل إطلاق النار مع المترصدين له ، واستطاع الجاويش محمد خليل أن يصرعه برصاصتين قبل أن يتناول شيئاً من غدائه [أنا خايف يا

بدران يكون ده آخر عشا] وكان فى حوزته نحو مائة طلقة وخنجر ..

وألقى القبض على أدهم فى ١٩٢١ ، وأعدم .

إن بدران فى موال أدهم هو الولس الذى هزم عرابى ، وهو خاير بك الذى باع نفسه للعثمانيين ، وهو الخونة الذين استلبوا جماعة المصريين انتصاراتها .. مراحل متعاقبة من التاريخ المصرى ..

كتبت " اللطائف المصورة " تصفه بأنه المجرم الأكبر والشقى الطاغية ، أدهم الشرقاوى . طارده رجال الضبط والبوليس ، واصطادوه ، فأراحوا البلاد من شره وجرائمه " . أضافت أنه " لم يكن قوى العضلات بدرجة تمكنه من ارتكاب هذه الجرائم ، ولكنه من أجرأ اللصوص والقتلة ، فلا يبالى بالحكومة ولا ببطشها " ..

لويس عوض تستوقفه شهادة عم أدهم ضد ابن أخيه " نحن لم نألف فى مجتمعنا أن عماً يشهد ضد ابن أخيه حتى ولو كان قاتلاً بالفعل . إلاّ إذا كان القتيل من لحمه ودمه . وهذا ما لا تذكره الجرائد . وعلى أكثر المألوف نجد العم يعفى من

الشهادة ، أو نراه يكذب كذباً أبيض مدّعياً الجهل بما قد حدث، فإن هو تقدم لشهادة الإثبات عرض نفسه لتهمة الرغبة فى إزاحة ابن أخيه الفتى أدهم الشرقاوى من طريقه . وظاهر الأمر يوحى بأنه كان هناك صراع ضار على السلطة ، أو منصب العمدية فى قرية زبيدة . ويلاحظ لويس عوض أن أدهم لم يفلح فى فضح عمه أمام الحكومة ، فتفصله . ظل الرجل فى منصبه ، ربما لأنه كان خادماً أميناً لسلطة الاحتلال البريطانى . كما يشير لويس عوض تساؤلات حول ظروف هرب أدهم من السجن ، وهل كان على صلة بالحزب الوطنى ، مما أكسب تصرفاته بعداً سياسياً؟ وظروف قيادته لعصابة ضمت إليها عددا كبيراً من الأشقياء وهو لم يجاوز الحادية والعشرين من عمره ؟ .. وهل كانت تلك العصابة نواة ميليشيا من الفلاحين (أوراق العمر — مكتبة مدبولى — ص ١٧٨ — ١٧٩)

***

فماذا عن رواية الموال الشعبى لحكاية أدهم ؟..

كان بداية انحراف أدهم إلى طريق الجريمة ، عندما أتاه خبر قتل عمه . قال لهم : عمى اتقتل ويا ويل من قتله .. لا حكومة

ولا شرع ولا حتى ان أحد قتله .. ما يطفى نارى غير ان خـدت تارى فيه ..

لقد اتجه أدهم بتحديه إلى الحكومة . إنها هى التى تغلضت عن قتل عمه ، وهى التى أفسدت عليه حياته ، وهى التى حرضت أحد عساكرها على قتله :

قال إن عشت يا حكومة لا لبسك طرح وشيشان

وانا واخد عليكى يا حكومة تلاتة نيشان

أول نيشان سلاح منك كتير لميت

تانى نيشان بالشمع نورت لك ضلام البيت

تالت نيشان فى طريق تانى ولفيت لك

عربى فرنساوى انجليزى ، بكل لسان كلمتك

(يسرى العزب ــ موال أدهم الشرقاوى ــ هيئة قصور الثقافة ــ ص ٣٢) .

وثمة موال آخر ، يرى فى إحساس أدهم بالظلم الذى يمارسه سادة القرى على الفلاحين ، سابقاً على قراره بالسعى للثأر من قاتل عمه :

نشأ فى عزبة أغا كان عمه ناظرها

راجل أصيل محترم عارف مقاديرها
أدهم يتيم اتوعد باليتم من بدرى
فتح عنيه ع الأسى من حيث لا تدرى
شاف ظلم هذا الأغا للفلاحين بدرى
وعمّه يا ما احتمل قسوة مناظرها

(محمد على أحمد ـــ زمن العاشقين ـــ مكتبة رجب ـــ)

لم تقتل السلطة ، الحكومة ، عم أدهم ، لكنها لم تـــأخذ بثأره . حكمت بسجن القاتل . ولأن العـــين لابـــد أن تكـــون بالعين، فقد كان يجب على السلطة ، الحكومة ـــ فى تقدير أدهم، وفى تقدير الفنان الشعبى ـــ أن تثأر للقتيل بإعدام القاتل ، وليـــس بمجرد سجنه ..

ودله الناس على ابن الخصم ، ففسخه بيديه . وحين سألته " الحكومة " : عملت كده ليه يا ادهم ؟ وعشان إيه ؟ .. قال فى دهشة وتحد : لما انقتل عمى يا حكومة عملتِ إيه ؟.. وانا جتلـت يا حكومة وانا فى سجنكم موجود .. والرب موجود مش عـــاوز بيّنه وشهود . وصدر عليه الحكم بالإعدام ، ثم خفـــف الحكـــم بتبرعات أثرياء البلدة " بدل الجنيه ميه " ، وهو ما يخالف الواقـــع

موضوعياً . وبدأت فى السجن نوادره وبطولاته وخوارقه ، التى أجاد الخيال الشعبى نسجها . لا يعنيه اقترابها من الصحة أو بعدها ، إنما المهم إبراز شخصية أدهم فى صورة البطل الذى ثأر من قاتلى أبيه ، وتحدى ـــ من بعد ـــ كل القوى المناوئة للشعب: الحكومة ، الأجانب ، سلطات الاحتلال ، إلخ ..

لقد أعلى الوجدان الشعبى من قيمة تمرد أدهم . حوله إلى بطل شعبى ، وجاوز باختلاق التصرفات المنسوبة إليه حد الأسطورة ، ليتاح له هزيمة الباشا ، والسلطة الممثلة فى قيادات الشرطة ، والأجانب . أضاف الراوى الشعبى إلى شخصية أدهم ما سبق أن أضافه ـــ تقريباً ـــ إلى شخصية أبى زيد ، وشخصية جمال الدين شيحة ، فهو يتمتع بحسن الحيلة ، وتعلم مختلف العلوم والفنون واللغات ، ويجيد التنكر فى أى زى ، واحتراف أية مهنة، والتحدث بكل لغة ، وارتدى شخصيات : الطبيب ، والراهب ، والنديم ، والمهرج ، والمرأة . كان طويل القامة ، بنى الشعر ، أبيض البشرة . وكان وسيماً بعامة ، مما أتاح له أن يتنكر فى العديد من الأزياء والسحن ، ومنها زى الأجنبى المشمول بالحماية. حتى بعد أن قُتِل أدهم ، أكدت بعض الروايات أن

الأطباء ــ عند التشريح ــ وجدوا قلبه مربّعاً وليس بيضاويــــاً ، بمعنى أنه لم يكن قلباً عادياً مثل قلوب بقية البشـــــر (الدســـتور ١٤/١١/١٩٩٦) .

***

أدهم منذ ألقت السلطة القبض عليه ، دون أن تثأر لقــاتل عمه ، صار خصماً للسلطة ، عدواً لها ، يشغلها القبض عليه حيـاً أو ميتاً ، ويشغله الفرار بحياته وحريته . ويلجأ أدهم إلى حيل تعبر عن الذكاء المصرى ، بينما تلجأ الحكومة إلى ســـلاح الخيانــة ، الذى يعتبره المزاج الشعبى أخطر الأسلحة وأخسّها إطلاقاً !..

وعلى سبيل المثال ، فقد استغل أدهم وسامته . تنكـــر فى زى فتاة جميلة ، متحدياً الحكومة ، ساخراً منها ، حتى أنه يوجــه كلامه إلى ممثلى الحكومة بالقول : أنا الأدهم !..

وفى الحال كتبت للحكومة وأعلنهم

وجال اللى عايزنى يا حكومة يجينى البيت

الولد كان جميل الصورة سبحان من صور

ولبس جميص بحملات ومحور

ومسك الشمعة ونوّر كمان للبيه

وجال يا حكومة بتدوروا على إيه ؟
جال المأمور يا بنت بندور على الأدهم
جال دنا الأدهم والأدهم أجيبه منين
دنا الأدهم يا حكومة بدّى أشوفه ولو تروح من عيونى عين

***

استطاع أدهم أن يتوصل إلى قاتل عمه داخل السجن، فضغط عليه ــ بما لم يصوره الفنان ــ حتى " طق مات " . ولم يكتف أدهم بذلك ، وإنما فسخ القاتل ، حسب التعبير الشعبى . فلما حكم عليه بالحبس الانفرادى ، انثنى وانفرد داخل الزنزانة فهد أركانها ، ولجأ إلى جماعة من الأعراب ، وبدأت المطاردة بينه وبين السلطة : بعت جوابات للحكومة ، وأعلنها وقال : يا حكومة اللى عايزنى يجينى فى الجبل بره . وتوالت المعارك التى سقط فيها العشرات من جنود الحكومة ، بينما ظل أدهم سليماً ، يواصل تأكيد قوته ، وذكائه أيضاً ، فقد تخفّى فى زى النساء ، وفى زى الخواجات ، ورطن بلغات متعددة ، وتنكر فى زى الحكمدار ، ودخل قسم البوليس متنكراً ليكشف رجال البوليس، ويسخر منهم ، وحصل ــ بحيلة ــ على أسلحة حكومية . دفع

مأمور المركز والضباط إلى تنفيذ أوامره ، فسلموا أسلحتهم ، ووقع المأمور على ذلك فى دفتر الأحوال !. ثم احتمى بالجبل ..

نحن نستطيع أن نتعرف إلى المثل الذى احتذى أدهم خطواته — حتى وإن لم يكن تعرف إليه على أى نحو — فى سيرة أشطر الشطار على الزيبق " وما أقدم عليه من حيل . فقد كانت له قدرة غريبة على التنكر ، وتقمص الكثير من الشخصيات ، وعلى الفرار من المآزق التى تواجهه مهما يكن خطورتها . موال أدهم جعله يتنكر فى أزياء متعددة لكى يفر من وجه السلطة ، (ذلك ماكان فعله أبو زيد الهلالى عندما تنكر فى أزياء متعددة) امرأة ، ومهرجاً ، وخواجة ، وساحراً ، حتى يحقق ما يريد . بل إن أدهم يذكرنا — فى لحظات موته — بالحسين فى لحظات استشهاده . نسب الشيعة إلى الحسين قصيدة مطولة من الشعر وهو يغادر الحياة . وهو ما فعله أدهم عندما فاجأته رصاصات الخيانة :

قال : ما مت يا ادهم وما بقى فى الخلا جرة
والحق عندى أنا اللى وريت ابن المرة الجرة
أمانة يا من عشت بعدى

ما تآمنش لصاحب

دنيا غرورة .. ما فيش ولا صاحب

إلاّ يجى لك الأذيه بإديه ..

كان المخَاطَب دائماً هو الحكومة ، يتجه إليها أدهم بتحذيراته وتهديداته وتحديه . ويواصل انتصاره عليها حتى يغتاله الولس ، الخيانة ، طعنة الغدر التى طالما اغتالت أحلام المصريين !. الخيانة هى النهاية التى يجعلها الوجدان الشعبى ــ فى بعض الروايات ــ باعثاً لنهاية البطل . قتل أخيل بطعنة فى عقبه المكشوف ، ومات رولاند نتيجة خيانة جانيلون له ، كما قتل الملك آرثر نتيجة خيانة مودريد له ، ونزف روبن هود حتى الموت بسبب الخيانة . وقد توقفت الرواية التاريخية عند خيانة خنفس لعرابى ، وتوقفت الرواية الشعبية عند خيانة بدران لأدهم. لم تجد الحكومة سبيلاً للقبض على أدهم ، أو قتله ، إلاّ بالخيانة ــ والخيانة ــ كما تعرف ــ شر الرذائل التى يمقتها الإنسان المصرى ــ أذكرك بالمقولة الشهيرة " الولس هزم عرابى " ــ ذهب إلى أدهم فى الجبل صديقه القديم بدران . قال له : صباح الخير يا باشا . أنا جبت لك الفطور ، ونسيت أجيب لك العشا . قال أدهم :

يا خوفى يا بدران ليكون دا آخر عشا .. أنا قلبى محدس يا بـــدران إنى مش حالحق العشا . وبذل بدران كلمات المداهنة والطمأنينة ، ليخفى اقتراب الجنود . وانطلقت الرصاصات فى جسد أدهـــم ، فقتلته ، لكنه لم يمت ، لم يقض عليه. قال : ما مـــت يـــالدهم وماتت الرجال بعديك ، وآمنت للندل ، قربته ، وكان بعديك .. غير قبل ما العين تودع ويروح لصاحبه السر .. اسمع لكلمة هـــا قولها لا هى غلط ولا سر .. لو بحت بالسر متلومشى حدا بعديك .. آدى تمام الدور صحبه وعداه غدروه .. ومنين أجيب نـــاس لمعناة الكلام يتلوه ..

بلغ تحدى أدهم للسلطة حد اغتياله الشيخ حسن السيوى ــ أحد أعيان إيتاى البارود ، وصهر وزير الأوقاف آنذاك حسن درويش باشا ــ . كان قد حدث صراع بين السيوى وبين أثرياء آخرين فى مديرية البحيرة . واستأجر هؤلاء أدهم لقتله . وقتلـــه أدهم وسط مجموعة من أصدقائه ، فى العاشرة صباحاً ، فى قلـــب مدينة إيتاى البارود . وتحركت أجهزة الدولة لإيقاف الخطر الذى وصل نقطة اللاعودة . واتسعت عمليات المطاردة التى اصطدمت برفض الأهالى أن يتعاونوا معها . كانوا يتعاطفون مع أدهم ، كما

تقول الرواية الشعبية ، ويخافون انتقامه ، كما تؤكد الرواية الرسمية . وقبل أن يعلن قادة عملية المطاردة فشلهم ، ظهر الخفير محمود أبو العلا صديق أدهم الذى ما لبث أن دل السلطة على مكانه ، واستدرجه حتى صرعه رصاص الشرطة

استطاع أدهم ـ بمفرده ـ أن يواجه عساكر الهجانة ، ويقتل منهم ستة أفراد ، لكنه لم يستطع مواجهة الخيانة عندما فاجأته من صديق ، عسكرى ، أغراه رؤساؤه بترقية ومكافأة مالية ، فخان صديقه .. .

***

فى ١٣ أكتوبر ١٩٢١ نشرت الصحف النبأ التالى : " تلقى صاحب المعالى عبد الخالق ثروت باشا وزير المالية ، برقية من مديرية البحيرة بأن قوات الشرطة قد استطاعت فى الساعة الرابعة من بعد ظهر أمس ، أن تقتل الشقى الشهير أدهم الشرقاوى الذى أثارت عصابته الفزع فى شمال الدلتا خلال الشهور الثلاثين الماضيين ، بعد أن هرب من سجن ليمان طرة أثناء ثورة ١٩١٩ . وكان حسن بك فهمى مأمور مركز شرطة إيتاى البارود قد تمكن من القبض على محمود أبو العلا خفير عزبة جلال وصديق أدهم وذراعه اليمنى ، حيث عرف منه أنه يتردد

بين مسقط رأسه فى قرية زبيدة وبين عزبة محمد جلال بك . كما عرف موعد مروره من أمام العزبة ، فأرسـل كميناً بقيـادة الجاويش محمد خليل ، كمن له فى الـذرة ، إلى أن استدرجه صديقه أبو العلا إلى مكان قريب من الكمـين ، فـأطلق عليـه الجاويش رصاصتين ، أصابتاه فى مقتل " .

***

يروى إبراهيم عبد الحليم فى كتابه الجميل " أيام الطفولة " انه سكن أثناء فترة الدراسة ، فى حجرة صغيرة فوق سطح بيـت كبير ، كان أصحاب البيت يستخدمونها للغسيل وإيواء الطيـور . أما صاحب البيت ، فكان والد أدهم الشرقاوى " الذى سمعـت الحكايات والملاحم عن بطولته ومغامراتـه وعدائـه للأغنيـاء والمستبدين ، وحبه للفقراء " (إبراهيم عبد الحليم : أيام الطفولـة ـــ دار الفكر ـــ الطبعة الثانية ـــ ص ٩٤) . وحتى الآن ، فـإن موال أدهم يحتل مكانة مهمة بين المواويل القصصية المنتشـرة فى مصر ، وفى الوجه البحرى بصفة خاصة . يؤديه الشعراء الشعبيون والهواة فى الحفلات وليالى الحصاد والدرس (يسـرى العـزب : موال أدهم الشرقاوى ـــ ص ١٣) .

واللافت أن موال أدهم يركز على البطولة كما يراها الوجدان الشعبى ، الضمير الجمعى الشعبى . لاحظ تسمية الراوى له " سبع شرقاوى " ، فالبطولة هى أهم ما يميزه . إنه موال أدهم. أدهم فقط ، دون اسم آخر يشكل معه ثنائيا ، مثل ياسين وبهية ، وشفيقة ومتولى ، وحسن ونعيمة ، الخ ..

***

ثمة رأى أن ظهور أدهم فى فترة أحداث ثورة ١٩١٩ كان فى مقدمة الأسباب التى جعلت منه ذلك البطل الذى نال إعجاب الناس وتأييدهم وحمايتهم . أعجبوا به لأنه تحدى السلطة المتعاونة مع قوات الاحتلال البريطانى (الأهرام المسائى ١٩٩٩/١٠/٢٦) . لقد ظهر أدهم فى فترة كانت مصر تخوض فيها صراعاً ثورياً ضد الوجود الاحتلالى البريطانى ، وضد السلطة المحلية العميلة . وتعاطف الوجدان الشعبى مع شخصية أدهم المتحدية للاستعمار ، وللحكومة العميلة فى آن . كانت شخصية أدهم متسقة مع المناخ العام الذى كان يحياه الشعب المصرى ، والبسطاء منه على نحو خاص ..

والحق أن عمل بدران ، صديق أدهم الذى سعى إليه بالخيانة ، كجندى بالبوليس ، لا يخلو من دلالة ، فهو ينتسب إلى

السلطة ، واحد من أفرادها ، قماشة فى نسيجها ، يخضع لسطوتها وأوامرها ، ويبذل " الخيانة " حتى تصل رصاصات السلطة إلى الأسد فى عرينه . أتذكر المثل الشعبى " إن كان دراعك عسكرى اقطعه وارميه " ، وتخويف الأمهات لأطفالهن بالعسكرى، ونظرة المصريين إلى جنود البوليس بالكثير من الحذر والتوجس والعداء..

بالإضافة إلى ذلك ، فقد كانت الخيانة التى أقدم عليها صديق أدهم ، محمود أبو العلا – أو بدران كما سماه الموال – هى الباعث الأهم لتعاطف الوجدان الشعبى مع أدهم ، مع الشاب الذى دوّخ السلطة ، فخذله صديقه .

ملاحظات

ابتداء ، فإن البعد الديني ـــ الإسلام تحديداً ـــ مهم جداً في السيرة الشعبية . إن الطابع الإسلامي يسم كل الحكايات والروايات . لقد حرصت كل السير على أن يكون أبطالها في مرحلة ما بعد ظهور الإسلام ، أو مسلمين . الراوي الإسلامي يعيد تكوين البطل عند رواية السيرة . يضيف ، ويحذف ، بما يتفق مع الرؤية الإسلامية ، وأن نصر الله دائماً مع الإسلام والمسلمين . حتى الأبطال الذين لا ينتمون إلى الإسلام ، جعلهم الرواة مسلمين ، بحيث يصبح في سيرهم نصرة الإسلام . وربما لهذا السبب جاء " وقوف البطل عند مرحلة الفتوة ، ثم المرحلة المحمية ، من دون التقدم إلى مرحلة الفتوة ، ثم المحلة الملحمية ، من دون التقدم إلى مرحلة الدراما ، كما رأينا في أدب اليونان مثلاً " (فاروق خورشيد : في الأصول الأولى للرواية العربية ـــ هيئة الكتاب ١١٩) .

كان من الممكن ـــ كما تقول نبيلة إبراهيم ـــ أن يكتفي الوجدان الشعبي بالبطولة المثالية للرسول (ص) فلا يلتفت إلى غيرها ، ولكن الوعي بأهمية استمرارية هذه البطولة المثالية كان

دافعاً لتخليد بطولات أخرى ، تقل ــ بالتأكيد ــ عن بطولة الرسول ، لكنها تدور فى إطار التمجيد للدين الإسلامى ، وتناصره (البطولات العربية والذاكرة التاريخية ــ نبيلة إبراهيم ــ المكتبة الأكاديمية ــ ١٤) . ثمة الملك الصالح أيوب الذى يمتزج ــ فى شخصيته ــ ولى الله والصوفى ، حتى هؤلاء الذين ولدوا من أبوين غير مسلمين مثل الظاهر بيبرس . وهو قد انتصر على الصليبيين فى وقائع تاريخية شهيرة ، والسيرة الظاهرية تحفل بأولياء الله الأحياء والموتى . بل إن بيبرس يشهد مجلس أولياء الله برئاسة السيد البدوى ــ المفروض أن رئاسة المجلس للسيدة زينب ــ حتى السير التى عاش أبطالها قبل ظهور الإسلام ، مثل سيرة عنترة وسيرة سيف بن ذى يزن ــ وقد جرت أحداثهما قبل الإسلام ــ تتحدث كل منهما عن هزيمة الكفار ، وعبدة النجوم الأصنام . كما يدل أولياء الله الصالحون سيف بن ذى يزن على الطريق إلى كتاب النيل ، وإذا كانت الجاهلية الأولى قد امتدت أحقابا طويلة ، فإن الجاهلية الثانية التى عاش فيها عنترة قد سبقت الإسلام بحوالى ١٥٠ عاماً . لكن سيرة عنترة انتهت فى مرحلة الامتداد لظهور الدعوة الإسلامية ، لتشترك عنيترة بنت عنترة مع

أخوهما وأبطال قبيلة عبس فى معارك المسلمين إلى جوار الرسول ، بل إن بعض الروايات جعلت سيرة عنترة متطابقة مع فتوحات الإسلام ، وخاض المعارك ضد الأحباش باسم العرب والمسلمين . وقد قضى على الأنظمة الباطشة ، ومنع أذى حكامها عن رسول الله ، وساعد ـــ بالفعل الإيجابى ـــ على نشر الإسلام . أما ذات الهمة ، فقد حاربت المتمردين على الخلافة ، وحاربت التتار والمغول ، وواجه على الزيبق أعداء الإسلام من العجم والروم . إن ملامح الأبطال تتحدد " كما يريدهم المعنى الإسلامى ، فهم مؤمنون بالله ، مسلمون لقدره ، عارفون أن لكل قضاء حكمة وسبباً ، وإن جلت عن الأفهام ، وهم سواسية ، لا فرق بين عربى وعجمى إلاّ بالتقوى ، والدفاع عن أرض المسلمين ، وهم أخوة فى الإسلام مهما تعددت جنسياتهم وألوانهم وفرقهم الدينية، فكلهم أخوة فى الإسلام " (الموروث الشعبى ص ١٥١). ويلاحظ عبد الحميد يونس أنه " على الرغم من توزّع الشعوب العربية والإسلامية ، فإنها كانت تبدو ـــ فى السيرة الظاهرية وغيرها ـــ عالماً موحداً ، تكاد ترتفع بين أجزائه الحواجز والحدود. ومعنى هذا أن الوجدان الشعبى كان أوسع مدى من الحدود الجغرافية

للوطن المصرى، وأنه كان يصل بين الوطنية والقومية والدين بسبب قوى، لا يمكن أن ينفصم" (مجتمعنا -٣٦).

***

الملاحظة الثانية ، هى أن كل الشخصيات التى تنتسب ـ تاريخياً ـ إلى القرن التاسع عشر ، وما قبله ، أى قبل أن تتبلور الكيانات الإقليمية لأقطار الخلافة الإسلامية ، منذ توحدها فى عصور الإسلام الأولى ، كل الشخصيات تنتسب إلى أكثر من قطر بالإقامة والتنقل والأثر الذى خلّفه فى حياة الجماعة ، ففيما عدا عنترة الذى ينتمى إلى عصور الجاهلية ، فإن الهلالية أقاموا وتوطنوا فى مصر وتونس ، وشخصيات على الزيبق تنقلت بين مصر والشام ، والسيد البدوى قدم إلى مصر من المغرب ، واستقر فيها ، وبيبرس قدم إلى الشام صبياً ، ثم مارس القيادة والحكم فى مصر ، ثم فى الشام ومصر معاً . حتى الروايات التى قصرت تنقل ابن عروس بين المدن المغربية والجزائرية ، فهو لم يزر الأراضى الحجازية ولا مصر ، وجدت ـ فى المقابل ـ روايات مصرية قدمت به إلى مصر ، ونسبته إليها على نحو أو آخر ..

وإذا كان الوجدان الشعبى قد تأثر بحكايات السحر والجان والمردة العفاريت وأرواح الراحلين ، فإنه ـــ فى المقابل ـــ قد تأثر بكرامات السيد البـــدوى والشـــاذلى والدســـوقى والشـــافعى ومكاشفاتهم ، وبسير الهلالى وبيبرس وعنترة ، ومواويـــل أدهـــم وياسين وشفيقة ومتولى ، وحكايات ابن عـــــروس ومربعاتـــه ، وحكايات ألف ليلة وليلة ، ونوادر جحا وغيرها من المـــــوروث الذى يشكل ـــ فى مجموعه ـــ مخزوناً معرفياً وحكميـــاً ، يمثـــل بالتالى بعض تكوين الشخصية المصرية/ العربية ..

والملاحظ أن أبطال الملاحم الإغريقية هم مـــن الآلهـــة أو أنصاف الآلهة . أما أبطال السير والملاحم العربية فهم من البشـــر . مع ذلك ، فإن السير لا تقتصر على رواية الواقع كما جرى ، إنما هى تلجأ ـــ فى معظم الأحيان ـــ إلى الخيـــال . ثمـــة إضافـــات وتحويرات واختراع شخصيات لم تكن موجودة ، وإلباس أثـــواب على أجسام تتسع أو تضيق عليها . لذلك فإن أحداث الســـيرة الشعبية تحفل بالحرب والمعارك وسفك الدماء ، من خلال إسهاب متعمد فى الوصف ، استجلاباً لمتابعة المتلقين ورضاهم . الـــراوى يخضع ـــ فى أثناء روايته ـــ لإعجاب الجمهور المتلقى ، وغضبه ،

ورفضه ، وحرصه على أن ينهى كل جزء من السيرة على نحـــو محدد [هل أذكرك بالصورة الأدبية الجنـــون فنـــون " لعبـــد الله النديم؟]. إن سير الأبطال الشعبيين ومواويلهم وحكاياهم " تحمـل الراحة النفسية والرضا الوجدانى لذلك الشعب المغلوب على أمره، مما دفعه إلى الإقبال عليها بحب وشغف، تغلغل فى أعماق النفوس، وتوارثه الأفراد جيلاً بعد جيل، حتى عصرنا الحديث" (فـــاروق خورشيد ومحمود ذهنى -فن كتابة السيرة الشعبية - ص ٩٠)..

وكما يقول محمد فهمى عبد اللطيف ، فإن النظـــرة إلى صور البطولة فى قصة عنترة ، وقصة المهلهل بن أبى ربيعة ، وقصة سيف بن ذى يزن ، وقصة الظاهر بيبرس ، وغيرها من القصـــص التاريخية التى لعبَ بحقائقها خيال الرواة ، تجعل الصورة واحـــدة ، وتجعل هؤلاء الأبطال جميعاً يرتدون رداءً متفقـــاً فى الســمات والصفات ، حتى كأنهم فرسان جيش واحد ، وليس الخـــلاف إلاّ فى سيرة الجهاد ومواقع الحروب والغارات (محمد فــــهمى عبـــد اللطيف - أبو زيد الهلالى ـــ ٩٨ ، ٩٩) . ولأن الفروسية بعـــد مهم فى شخصية " البطل " فإن سيرة ذات الهمة تؤكـــد علـــى

ارتدائها ثوب فارس ، لتبارز الرجال ، وتهزمهم ، بعد أن أقسمت أنها لن تتزوج إلاّ من رجل يصارعها ، فيصرعها ..

***

البطل فى السيرة الشعبية " سوبرمان " بلغة عصرنا الحالى ، فهو يملك قدرات خارقة ، مطلقة ، تقترب به من الآلهة ، ويقـــدم من الكرامات والمكاشفات والخوارق ما لا يقدمه إلاّ الأقطاب من أولياء الله . إنه المهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلاً بعـــــد أن ملئت جوراً . وهو الفارس الذي تصدى لخطر العدوان الخـــارجى أحياناً (عنترة ــ مثلاً ــ والزير سالم وبيـــبرس والأمـــيرة ذات الهمة) وللقهر فى الداخل [أدهم الشرقاوى ــ مثـــلاً ــ وابـــن عروس وياسين] . وقد أصبح عنترة والهلالى والأميرة ذات الهمـــة وسيف بن ذى يزن وبيبرس والسيد البـــدوى وغـــيرهم رمـــوزاً للبطولة فى الوجدان الشعبى ، نقلها من المحدود إلى اللامحـــــدود ، لتصبح رموزاً مستقرة فى اللغة (نبيلة ابراهيم : المقومات الجماليـــة للتعبير الشعبى ــ هيئة قصور الثقافة ــ ص ٤٠) .

الإنسان المصرى لا يملك مقومات حقيقية لمقاومة السـلطة القاهرة ، فهو " يخلق " بخياله ، ووجدانه ، تلك القوة من خـــلال

أشخاص محددين ، يضفى عليهم من عوامل البطولـــة ، بحيـــث يواجهون السلطة التى لا يستطيع مواجهتها . إنهم ممثلون لـــه فى المقاومة ، متنفس عما يعانيه من قهر وكتم للإرادة . فإذا كـــان الشخص / البطل يعانى نقائص ، فإن الخيال الشعبى يعوض تلـــك النقائص ، وينسب إلى الشخص / البطل ما يحقـــق التكـــامل فى تكوينه الظاهرى والنفسى ، وتصرفاته . [يهبنا بهـــاء طـــاهر فى قصته " ولكن " صورة لعملية ارتقاء البطل فى الوجدان الشعبى إلى مستوى الرمز أو الأسطورة . العجوز يتحدث عن عبد النـــاصر بأن أمريكا عرضت عليه بعد النكسة أن يـــأخذ مليـــار دولار ، وقصراً لكل واحد من أبنائه ، ويترك لها مصر . فقال عبد الناصر: لا أتركها للاستعمار ، ولا بمال قارون (بهاء طاهر ــ ولكـــن ــ ذهبت إلى شلّال ــ أصوات أدبية) . وهذه هى البدايـــة الـــتى تذكرنا بالسير الشعبية ، والقصص الشعبى] . وفى المقابل ، فـــإن المتلقى ــ خاصة فى البيئات الشعبية ــ يستقبل ما يروى على أنـــه قد حدث بالفعل ، وليس من اختراع القاص أو الراوى ..

***

إذا كان البعض يجد فى الأدب الشعبى ــ وخاصــــة أدب الملاحم والسير ــ تعبيراً عن الشوق إلى العدل ، مقابلاً للظلـــم الذى يرسف الناس فى إساره ، فإن السيرة الشعبية تركـــز ــ فى تقديرى ــ على محورين : رد الغزو الخارجى ، ومقاومة الظلـــم والقهر فى الداخل . إنها أقرب إلى الحلم الجماعى ضد الغزاة الذين يسعون لاحتلال بلادهم ، أو ضد الإرادة الحاكمـــة ، السـلطة الحاكمة ، تعبيراً عن الرغبة الجماعية فى التمرد والخلاص والتغيير. أما حلم رد الغزاة ، فالثابت ــ تاريخياً ــ أن " الشعب العـــربى عندما تحيّف غير العرب أرضه إبان الحملات الصليبية ، وعندمـــا رأى عناصر غير عربية تحكمه وتفل إرادته وتستأثر بخيرات بلاده، انتخب من حلقات الفروسية العربية ، وصاغها ملامح يتغنى بهـــا ويحفظها ، تؤكد الفضائل العربية من ناحية ، وإذكـــاء الـــروح المعنوية من ناحية أخرى " (عبد الحميد يونس ــ دفـــاع عـــن الفولكلور ــ هيئة الكتاب ١٩٧١ ــ ص ١٧٧) . لقد خضـــع المجتمع الإسلامى ــ بتأثير الحروب الصليبية ــ " لمقدور الحيـــاة ، وخنع لما تجرى به الأيام ، واستكان لما تحلبه عليـــه الحـــوادث ، وضعفت روح الإقدام والشجاعة التى كان يزكّيـــها فى النفـــوس

إعداد الجيوش واقتحام الحروب ، فكان ترديد ذلك القصص فى المجتمع مما حفظ هذه الروح سليمة قوية فى نفوس القوم ، بل زادها تزكية وإثارة (محمد فهمى عبد اللطيف : أبو زيد الهلالى ـ ص ١١٦)

كانت الحروب الصليبية دافعاً مباشراً لظهور الملاحم والسير التى تتغنى ببطولات العرب فى الجاهلية ، مثل سيرة المهلهل، والزير سالم ، وعنترة ، وسيف بن ذى يزن ، وغيرها . وكان احتضان الجماعة الشعبية لسيرتى الظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن عقب الاحتلال العثمانى لمصر ، كما كان احتضان الجماعة الشعبية للسيرة الهلالية بعد هزيمة العرابيين ، ذلك لأن إرادة الجماعة يحررها ـ فى الظروف الضاغطة والمعاكسة ـ " سياق تنمية بديلة ، تجد فيه إبداعية السيرة وعيها ، بعد أن تتخلص تدريجياً من طغيان الواقع ، ويتحقق الاتحاد بين فعل السيرة واحتماله " (محمد حافظ دياب ـ إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية ـ هيئة الكتاب ـ قصور الثقافة ـ جـ ٢ ـ ص ٢٠٤) . وكما يقول أوكونور فإن بطل الأبطال لا يظهر على مسرح الأحداث إلاّ إذا كان المجتمع قد أصيب بارتباك شامل ..

***

كانت السيرة من أهم وسائل المقاومة ، ودعوة — بوسيلة فنية — لمواجهة ظلم الحاكم ، لا بمجرد الحلول السلبية التى برع فيها المصريون مثل النكتة والشائعة واللغز الخ ، وإنما بالثورة ، وبالمقاومة المسلحة . إنها تتغنى بالبطل ، المقاوم ، الثائر ، وقد حرصت السيرة الشعبية على تحرير البطل من العبودية قبل أن يعمل لصالح الجماعة . ذلك ما حدث فى سيرة عنترة ، وسيرة ذات الهمة ، وسيف بن ذى يزن إلخ . وحين نطق الكاهن ببراءة ذات الهمة من دنس التشكك فى أبوة ابنها عبد الوهاب ، لأنه جاء أسود اللون ، وأنه ابن شرعى لزواجها من الحارث .. حين نطق الكاهن بهذه المقولة ، ما لبثت ذات الهمة أن انتزعت حريتها — بالقوة — ممن يريد أن يستعبدها . أما الموهبة الأهم فى البطل الشعبى — سواء كان رجلاً أم امرأة — فهى أنه يجيد القتال والنزال ، أو — فى الأقل — يشارك بفعالية فى الأعمال القتالية . والبطل الشعبى شجاع دائماً . ولولا الشجاعة ما خاض المعارك ، ولا واجه التحديات ، ولا انتزع الانتصارات ، ربما من ظروف مستحيلة . وهو — فى شجاعته — لا يفرق بين الحياة والموت ،

فهما يستويان فى سعيه إلى تحقيق الحريـــة والعـــدل . والذكـــاء والدهاء والشطارة والفهلوة ، وغيرها من الصفات التى يوصـــف بها ابن البلد المصرى . كانت هى وسيلة عدد من " الأبطـــال " الشعبيين لتحقيق ما يريدون ، فقد أجادوا اللغـــات واللـــهجات والتنكر والمحاكاة والتقليد والحيل ، وبرعوا فى تســـلق الأســـوار والبيوت وفتح الخزائن . أبو زيد الهلالى مثل عنترة من حيث اللون ، والزيبق مثل أبي زيد فى القدرة على التنكر والتخلص من المآزق الصعبة ، وأدهم مثل أبي زيد والزيبق فى التحدث بـــالعديد مـــن اللغات التى تعينه على إخفاء شخصيته . اختلطـــت الملامـــح ـــ أحياناً ـــ وتشابكت ، وتكررت ، لأنها من خيـــال الوجـــدان الشعبى وإبداعه . إن هذه السمة أو تلك هى ما يطلبه فى شخصية البطل كما يرسمها ، وكما يضيف بها إلى الشخصية التاريخيـــة . وكما يقول محمود ذهنى فإن " أهمية هذا النوع من التفسير الشعبى للتاريخ ، أو الرؤية الشعبية للتاريخ ، انه يأتى فى مواجهة ما يكتبه المؤرخون المحترفون ، سواء فى العصور السابقة ، أو فى عصرنـــا الحالى ، من مؤلفات تعكس آراء أولئك المؤرخين وتفسيراتهم " (من أبحاث الملتقى القومى العربى للفنون الشـــعبية ـــ ١٩٩٤ ـــ

الجزء الثالث) . وبصرف النظر عن مدى اتجاه الروايات التى تناولت سيرة ابن عروس إلى الحقيقة أو إلى الخيال ، ومدى اختلاط الروايات وتباينها ، فإن ما يهمنا فى هذه الكلمات ـــ أكرر ـــ هو التأكيد على دور الوجدان الشعبى فى خلق " البطل " . الوجدان الشعبى يهمل هوية البطل الذى يهبه تأييده . قد يكون قاتلاً مثل ياسين ، أو مجرماً مثل أدهم ، أو خائنا لقائده مثل بيبرس . بل إنه قد يهب " البطل " تعاوناً خفياً ، ويسهّل له تحقيق تصدّيه للسلطة القاهرة . إن دور البطل الشعبى ـــ أدهم مثلاً ـــ فى قهر السلطة ، فى صدّه وفضحه ، يهب الناس شعوراً بالتشفّى . وكما يقول أستاذنا فتحى رضوان ، فإن " فى البشر ميلاً شديداً إلى خلق أبطال لهم من رجال الدين والفكر والحكم والحرب ، فإن لم يفهم الواقع على هذا النحو ، خلقوه من أذهانهم وتصوراتهم ، وتركوه تراثاً للذين يأتون بعدهم يؤمنون به، ويرجونه ، فقد يأتى جيل أوسع خيالاً ، وأكمل عبارة ، فيصنعون من الوهم القديم ، وهماً أكثر منه سحراً ، وأعظم منه أثراً " (الهلال ـــ يونيو ١٩٨٥)

ولعل تناقض الروايات عن حقيقة ابن عـــروس ـــ علـــى سبيل المثال ـــ وما إذا كان قاطع طريق مصرى ، أو متصـــــوف تونسى ، أو أن ما نسب إليه من مربعات هى من تأليفه ، أو أنهـــا من تأليف شعراء آخرين ، نسبت إليه لسبب أو لآخر .. لعـــل فى تناقض تلك الروايات ما يصل بنا إلى حقيقة أن الوجدان الشـــعبى يضع " البطل " فى الإطار الذى يريده له ، يعيد خلق سيرته مـــن جديد . ربما أهمل الحقائق ولجأ إلى الخيال حتى يتجسد " البطـــل " فى صورة يأملها !.. قدم الوجدان الشعبى سير أبطاله من خــــلال الصور التى يريدها ، وليس من خلال الصور المؤكدة الأحـــداث والشخصيات . رفض تقديس الواقعة كما يشترط علم التـــاريخ " الواقعة مقدسة والرأى حر " ، وصاغ الوقائع بما يخدم المعنى الـــذى يقصده ، الدلالة التى يريد التوصل إليها . ويقول ابن كثير إن " ما يذكره العامة عن عبد الله بن أبو يحيى ، المعـــــروف بالبطـــال فى السيرة المنسوبة إلى ذات الهمة ، والأمير عبد الوهاب والقـــــاضى عقبة ، فكذب وافتراء ، ووضع بارد جاهل وتخبط فــــاحش ، لا يروج ذلك إلاّ على غبى ، أو جاهل ردى ، كما تروج عليـــــهم سيرة عنترة العبسى المكذوبة ، وكذلك سيرة البكرى والدنــــــف

وغير ذلك " (تاج الدين السبكى ــ معيد النعم ومبيد النقـــم ــ مطبعة الأمنية ــ الرباط ١٩٧١ ــ ص ١٣٧) .

***

ومع أنه كان لخالد بن الوليد وعقبة بن نـــافع وصـــلاح الدين الأيوبى أدوارهم الإيجابية المؤكدة فى التاريخ الإسلامى ، فإن البعض يؤكد على عدم إقامة الجماعة الشـــعبية العربيـــة علاقـــة مصالحة ومودة معهم ، باعتبارهم " الرموز الرسمية " (إبداعيـــــة الأداء فى السيرة الشعبية ــ ص ١) . كان السلطان بيبرس هـــو الحاكم الوحيد فى التاريخ المصرى الذى وضعه الشعب فى مكانــة الأبطال الشعبيين ، ونسب إليه من الخوارق ما يرقى إلى خـــوارق الأساطير . وقد فسر على فهمى التجاهل الذى لقيته شـــخصية صلاح الدين الأيوبى فى السيرة الشعبية ــ مقابلاً للسيرة البيبرسـية ــ بأنه تساهل مع خصومه تساهلاً يفوق الحدود ، فضلاً عن أنه عمد فى أخريات أيامه ، إلى توزيـــع إمبراطوريتـــه بـــين أولاده وأخوته، مما أضعف الدولة التى بذل عمره فى سبيلها (المـــأثورات الشعبية ــ إبريل ١٩٨٨) .. لكن حفاوة الوجـــدان الشـــعبية بشخصية تاريخية ، وإغفال شخصية تاريخية أخرى ، ينبغـــي أن يوضع فى أطر محددة ، أو وفق قواعد ثابتة ، فثمة الكثـــير مـــن النتائج التى يصعب الاستدلال عليها بالمنطق العلمى !

***

أقرأ للباحث والفنان التونسى الطاهر قيقة : " إن شعراء الربابة فى الصعيد المصرى ، أو فى الوجه البحرى من مصر ، مازالوا يحافظون إلى اليوم على تراث شفوى ضخم ، ينمّونه باستمرار ، بإسقاطات من واقعهم المعيش ، وهمومهم الضاغطة " (فنون ـــ ٦/ ١٩٨٦)

الدلالة هى ما يشغل الرواية الشعبية . لا أهمية للزمان أو المكان بمعناهما التاريخى والجغرافى ..

واللافت أن حكايات ياسين وأدهم وغيرها من الحكايات الشعبية ذات الأصل التاريخى ، لا تنتهى بنهايات السير الشعبية من حيث تخطى العقبات والمصاعب وتحقيق الانتصار ، فالموت يترصد فى نهاية الطريق الشائكة ، ربما لأن الوقائع التاريخية قريبة ، بحيث يصعب التصرف فى إطارها : العصر ، والميلاد ، والوفاة ، وإن تدخل الراوى فى أصل الصورة ، فى الملامح والقسمات والتكوينات والألوان والظلال . وإذا كان عنترة ـــ فى السيرة القديمة ـــ قد مات بالسهم المسموم ، بالخيانة ، فإن الخيانة هى النموذج الشعبى الغالب لموت البطل فى السير والمواويل التالية ..

***

السؤال الذى يطرح نفسه : لماذا حظى أدهم وياسين وابن عروس وغيرهم من الخارجين على القانون ـــ كل فى عصـــره ـــ بإعجاب الناس العاديين ؟ لماذا تعاطفوا معهم ، وتستّروا عليـهم ، ورووا عنهم الخوارق والبطولات ؟..

لقد وضعت سيرة على الزيبق السلطة الحاكمة فى موقـــف الإدانة لظلمها ، ووضعتها كذلك فى موقف السخرية والاســتهزاء بها . وقد ارتكب ابن عروس ـــ باعتبار أنه شخصية حقيقيــــة!- وياسين ومتولى وأدهم من الجرائم ما يعاقب عليه القانون . ظـــل ابن عروس قاطع طريق لأكثر من ثلاثين عاماً ، وقتل ياسين ناسـاً أبرياء ، وقتل الثانى أخته شفيقة ، وقتل الثالث قاتل عمه .. لكـــن الرواية الشعبية ، أو الموال الشعبى ، ينتصر لهـــم ، ويعلـــى مـــن مكانتهم ، لقد أقدموا على " الفعــــل " لإحساســهم بالقـــهر الاجتماعى ، وليس عن نزعة شريرة . حاولوا أن يحصلوا بـــالقوة على ما يرونه حقهم المغتصب أو المسلوب (حكايات الشـــطار والعيارين ـــ ١١١) . لذلك فقد أثرى ابن عروس وجدان الناس بما خلفه من مربعات ، وقتل متولى انتقاماً لشرفه ، لخروج أختـــه على تقاليد المجتمع وأعرافه الاجتماعية والدينية . أما ياسين فقـــد

ثأر لمقتل عمه ، وقد وضعته السيرة الشعبية ــ كمـــا وضعــت ياسين ـــ فى إطار البطولة ، لأنهما تحديا السلطة القائمة . أســقط الوجدان الشعبى كل ما ارتكباه من جرائم ، واعتـــبر تحديـــهما للسلطة بطولة ينبغى الحفاوة بها . وكما يقول الأصفهانى ، فـإن " اللص أحسن حالاً من الحاكم المرتشى ، والقاضى الذى يــــأكل أموال اليتامى " (محاضرات الأدباء للأصفـــهانى ـــ ج ٣ ـــ ص ١٩١) . ولعلى أذكرك بما فعله الناس عندما استطاع عســـــاكر السلطة قتل قاطع طريق ، وحملوا رأسه إلى بنى حمدان ، وصلبــت جثته على دار الإمامة . يقول ابن الأثير : " فثار العامة ، وقالوا: " رجل غاز ، ولا يحل فعل هذا به . وظهر منهم محبة كثيرة لــــه ، وأنزلوه ، وكفنوه ، وصلوا عليه ودفنوه " . ولم تستطع الســـلطة أن تفعل إزاء ذلك كله شيئاً !

وكان أهم الخصائص التى قربـــت أدهـــم إلى الوجـــدان الشعبى، تحديه الحكومة ، وسخريته منها ، انعكاساً لمشاعر الملايين من البسطاء نحوها :

لبس حكمدار وراح تيه البارود هزه

وقال يا مأمور لم غفرك وعساكرك

هات منهم السلاح وبكره يجيلك سلاح جديد

لم منهم السلاح حتى سلاح العمد لم خلوا

شوف من جرأة الولد على الورق علم .

إن الموال يعترف بما ارتكبه أدهم ، وما ارتكبه ابن عروس وياسين ومتولى من جرائم يعاقب عليها القانون الوضعى ، لكنه يشيد بهم ، وبما فعلوه . ابن عروس أقلع عن الجريمة ، وقدم للناس خلاصة تجربته فى مربعات ، هى من أجمل ما قدمته العامية المصرية . ومتولى انتقم لشرفه ، هو يستحق الإشادة والإعجاب . أما ياسين وأدهم ، فالإشادة والتقدير لأنهما تحديا السلطة ، بصرف النظر عن الجرائم التى ارتكباها !

واللافت أن قاتل أدهم ـــ صديقه بدران ـــ كان عسكرى بوليس :

كان عسكرى فى البوليس وادهم مآمن ليه

إن كان دراعك عسكرى اقطعه وارميه

قال : أنا هادلكم عليه لا هاخد بيه ولا باشا

عطوا له شريطين ورقوه صف أومباشى

وعطوا له مال يصرف منه طول العمر امباشى

(نقلاً عن " موال أدهم الشرقاوى"- يسرى العزب ــ ص ٣١).

وكما يقول بيتر والكوت فإننا قد نشعر بالإعجاب تجـــاه الشخص الذى يثور ضد النظام ، نحن نعجب بجرأة المجـــرم ، وإن كنا نستنكر جرائمه .

***

فإذا نظرنا إلى ذلك كله من زاوية أخرى ، فإن متولى قــد ارتكب فعل القتل فى أخته شفيقة ، وهو فعل يســـتحق العقوبــة دينياً ووضعياً ــ وارتكب أدهم فعل القتل فى العديد من النـــاس انتقاماً لمقتل عمه ، وهو فعل يستحق العقوبة كذلك دينياً ووضعياً ، لكن الوجدان الشعبى أسقط العقوبة من خـــلال المـــوال ، لأن القتل كان له دافعه ومبرراته .تجاوز الوجدان الشعبى ما يجـــب أن يناله القاتل من عقاب ، لأن العقاب هنا لا يحترم السلوكيات التى قررتها الأعراف السائدة والتقاليد المستقرة فى امتداد التاريخ (أحمد مرسى ــ مقدمة فى الأغنية الشعبية ــ ١٩٥).

***

يقول مارسللوس إبيانوس الرومانى : " إنك لا تستطيع أن تأخذ من الفلاح المصرى إلاّ ما يعطيك هو إياه " ..

وإذا كان " للسلطة " وضعها المتميز فى الحياة المصرية على المستويات المختلفة ، فثمة سلطة الحاكم على مستوى الدولة / الحكومة ، فالمعلم على مستوى المدرسة ، فعالم الدين المسلم ، أو رجل الدين المسيحى على المستوى الدينى ، والأب على مستوى الأسرة . ولكل " سلطة " نفوذها الذى يصعب تجاهله على المستوى الذى تتحرك فيه ، نتاجاً طبيعياً للمجتمع النهرى الذى عاش على الاستقرار ، وعلى العصبيات العائلية ، إذا كان ذلك كذلك ، فإن المصرى ـــ بطبيعته ـــ يخشى السلطة الحكومية ، لا يطمئن إلى نياتها ، ويكرهها ، وإن تظاهر باحترامها ، يمالئها ـــ فى الأدق : ممثليها ـــ إذا كان فى الموقف الأضعف ، يقاومها إن استطاع إلى ذلك وسيلة . ومن هنا ، جاء القول إن الفلاح حين يستبدل السلاح بالفأس ، فإنه ما يلبث أن يوجهه إلى صدور ظالميه ، وإن هذا هو السبب فى رفض حكام مصر من المماليك والأجانب ضم المصريين إلى الجيش . وفى ضوء ذلك أيضاً ، يجدر بنا أن نفسر هروب الشبان المصريين من الانضمام إلى صفوف الجيش فى عهد محمد على . وكان الفلاح ـــ والمواطن المصرى بعامة ـــ يساعد من يقدم على التمرد ، ولو بالتعاطف الوجدانى ،

ولو بالإشفاق . وحتى الآن فإن الظـــاهرة المألوفـــة فى الطـــرق السريعة، أن السيارات القادمة من الاتجاه المقابل تهبـــك تحذيـــراً بأنوارها أن الرادار على مقربة من طريقك . السائق لا ينبه واحداً بالذات ، لكنه يهب الجميع فرصة الإفلات من عقاب الســلطة ، مع أنه لم يعد فى حياتنا مماليك ولا عثمانية ولا ســلطة حاكمـــة أجنبية . إنه مجرد تحدّ للسلطة لمجرد أنها كذلك . ميراث يمتد منـــذ آلاف السنين، وربما منذ صارت مياه النيل فى يد الفرعون ، يمنـــح ويعطى، ويفرض إرادته التى لا تتوخى العدل دوماً ..

وما من شك أن الرشوة ، والحرص على إخفاء المجـــرم — بصرف النظر عن طبيعة جرمه ، ومدى حظه من التبرئة أو الإدانة — وتوجس الوجدان الشعبى من أى مشروع للدولـــة .. ذلـــك كله، تعبير مباشر عن نظرة الوجدان الشعبى إلى السلطة القائمـــة . فالرشوة هى السبيل الأقرب إلى قلب الحاكم ، أو المنوبين عنــــه ، مثل مهندس الرى ، أو العمدة ، أو شيخ الخفراء ، والحرص علــى إخفاء المجرم مبعثه إدراك فطرى أن السلطة تصدر عن الظلم ، وأن ظلمها يكتسب صفة العموم ، ومن ثم ، فإن واجب المواطنـين أن يعينوا بعضهم بعضاً ، والتوجس الدائم من مشروعات الدولـــة ،

تصور شبه يقينى ــ موروث ! ــ أن الدولة لا تحاول لهم الخير أبداً ..

فى مجال العلاقة بين الشعب المصرى وحكامه ، نجد مثلاً يقول : السلطان اللى ما يعرفش السلطان . والمثل الذى يحضرنى ، توضيحاً له : ابعد عن الشر وغنّى له . ويقول المثل : اللى ما يا خدوش الحاكم ياخده الموت ، فهو يضع الحاكم موازياً للموت سواء بسواء . ولأن الحاكم قوة باطشة لا ترحم ، فإن المثل يحذر: إتكلم بإحسان أحسن الحيطة لها وادان . وأصبح الإنسان يخشى حتى أقرب الناس إليه : حاكمك غريمك وان ما طعته يضيعك .. لكن المصرى يعرف جيداً تلك العوامل التى دفعت الحاكم إلى الاستعلاء والافتراء والظلم : يا فرعون ايش فرعنك ، قال مش لاقى حد يردّنى .·. حاميها حراميها ..

والحاكم عادة ، لا يصل إلى تلك السطوة إلاّ بفضل الإدارة . ولعله من هنا يأتى حرص البعض على الوظيفة الميرى " المنصب روح ولو فى المسكة " أو : إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه" . وإذا لم تكن الوظيفة الميرى فرصة مناسبة لذلك ، فإن التعاون والطاعة ، وربما المداهنة ، هى البديل المطروح : إن كان

لك عند الكلب حاجة قول له يا سيدى .. ارشـــوا تشـــفوا .. البرطيل شيخ كبير .. الحيا سنه ومسح الجوخ فرض .. اســـجد لقرد السوء فى زمانه ، وداريه مادام فى سلطانه .. إذا دخلت بلـد تعبد عجل ، حش وارمى له .. إذا دخلت بلد إحلف بإلاهـه .. أنا أول المنطاعين وآخر العاصين .. ولكن تلك وجهة نظر متسلقة ، ووصولية ، تقابلها وجهات نظر أخرى ، رافضة ومضيئة ، مثل : إذا أردت أن تطاع ، فاأمر بما يستطاع .. إصلاح الرعية أنفـع من كثرة الجنود ، وغيرها ..

المصرى يحترم الســلطة . الأدق : يخافـها ، يداهنـها ويتملقها، فهى تملك عليه حياته ارتكازاً إلى المركزية منذ عـهود الفراعنة . الحكومة فى الضمير الجمعى شئ آخر ، يتحدثون عنـه بخوف ، وأحياناً بكراهية . وقد نسب إلى المصريين الكثير مـن الصفات السلبية : ومصر لمن غلب " .. " نامت نواطير مصر عن ثعالبها " .. " فكم ذا بمصر من المضحكـات " .. " .. وقـال الخصب : أنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك " الخ ..

***

لقد تحدى الوجدان الشعبى السلطة الحاكمة بالعديد من الأسلحة ، التى أجاد استخدامها عبر تاريخه الطويل ، ومنها : الصبر ، الشائعة ، المثل ، النكتة ، اللامبالاة .. ومنها السيرة والحكاية والموال وغيرها مما يجد فيه الإنسان المصرى عظة وعبرة ودلالات يصعب إغفالها . المثل يصف المواطن المصرى بأنه يخلف ولا يختشيش . وعلى الرغم من القسوة الظاهرية للصفة ، فإنها تعنى المواقف المؤيدة للمجرمين الذين تحدوا الدولة ، مع أنهم مجرمون ..

الثابت ـ تاريخياً ـ أن رفع الشطار والعيارين إلى مرتبة الأبطال القوميين ، كان رد فعل للقهر الذى يمارسه الحاكم دون أن يمتلك الشعب إمكانية المقاومة . إن حكايات اللصوص التائبين، الذين يرتفعون من حضيض الإجرام إلى أسمى درجات الولاية ، من أكثر السير الشعبية جاذبية ، وأشدها تأثيراً (إبراهيم محمد الفحام ـ الفنون الشعبية ـ ديسمبر ١٩٧٠) . وقد تعاطف الوجدان الشعبى مع العشرات من القتلة واللصوص وقاطعى الطريق ، لا لأنهم كذلك ، فليس من المعقول أن يجمع شعب ما ، أو معظم ناسه ، على تقدير " البعض " من محترفى

الإجرام ، وإنما لأن هؤلاء " المجرمين " اتجهوا بجرائمهم ضد السلطة ، وأعلنوا معاداتها ، فضلاً عن نصرتهم للفقراء والغلابة والمنكسرين . لذلك وصف ماسينيون أمثال ابن عروس وأدهم الشرقاوى وابن شفيقة ـــ بطل روايتى " بوح الأسرار " ـــ بأنهم أبطال خارج القانون ، وأنهم فرسان متمردون ، اتخذوا من الجريمة وسيلة رفض وتمرد ضد الواقع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى (حكايات الشطار والعيارين ـــ ٩٣) . والملاحظ أن فعل القتل موجود فى الكثير من السير / المواويل الشعبية : قتل أدهم لمن اتهمهم بقتل عمه ، قتل متولى لشفيقة ، قتل ياسين للكثيرين فى طريق الجريمة . وثمة الكثير من الاجتهادات التى تذهب إلى أن حركات العيارين والشطار كانت مرفوضة من الناحية القانونية والسلطوية ، لكنها كانت مقبولة من الناحية الاجتماعية ، من الوجدان الجمعى للجماهير . وكان ذلك النوع من الإجرام يحمل فكرة محببة إلى الناس هى أقرب إلى الاشتراكية ، مقابلاً لمحاولة القضاء على التوزيع غير العادل للثروة ، ولو بطرق غير مشروعة (حكايات الشطار والعيارين ـــ ٨٥) . بل إن تعاطف المتلقى مع حركة الشطار والعيارين ـــ هؤلاء الذين عاشوا فى أزمنة

مضت ، وضموا فى صفوفهم الكثيرين من صغار الحرفيين والتجار — لأن هدف الحركة الأساسى كان موجهاً إلى التجار والسراة ورجال السلطة ، وكانوا يتجنبون إلحاق الأذى بالفقراء من التجار ، إلى جانب احترام المرأة ، فهى لا تفتش ولا تسلب ولا تهان (حكايات الشطار والعيارين — ٩٠) . ويلاحظ محمد حافظ دياب أن تسميات الشطار والعيارين والدعار والزعار والطرار والحرافيش إلخ .. كانت جميعها تسميات سياسية أطلقتها السلطة القائمة لتشويه غاياتهم النبيلة ، وشايعهم فى ذلك المؤرخون الرسميون (حكايات الشطار والعيارين — ٩٢) . وأتذكر انتفاضة الشعب فى ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧ التى اعتبرها الحاكم انتفاضة حرامية ، وشايعه فى ذلك مؤرخوه !.

وإذا كانت الخيانة قد هزمت أدهم ، فإن الولس هزم عرابى ، وعانت مصر — فى مراحل تاريخها — من مؤامرات الخونة .

***

قد يثور السؤال : فلماذا لم يصنع الخيال الشعبى حكاية أو سيرة ، عن الخطّ " مجرم الصعيد الشهير ، مثلما وضع الحكايات

والسير والمواويل عن الظاهر بيبرس وعلى الزيبق وابـــن عـــروس وياسين وأدهم وغيرهم ؟..

إن صورهم الحقيقية تختلف تماماً عن الصورة التى رسمـــها لهم الفنان الشعبى ، والمناقشة العلمية لتراجمــــهم ترجــح كفــة السلبيات ، لكنهم تحدوا السلطة إطلاقاً ، سواء تمثلـــت تلــك السلطة فى الغزو الصليبى ، أو فى الحكومة القائمة . أما الخطّ فقــد كان شراً خالصاً . كانت الجريمة حياته وهدفــه ، لا يفــرق فى اعتداءاته بين ممثلى السلطة والمواطن العادى . وكان إطلاق النساء للزغاريد ، عقب إعلان مصرعه ، ثم إسقاط " سيرة " الخــط ، فهى لا تذكر إلاّ إذا أتت سيرة جرائمه . كما وقعـــت ــ دون تدخل من الخيال الشعبى بإضافة أوحذف .. كان ذلك كله تعبيراً عن رفض الوجدان الشعبى لسيرة الخط ، وما تضمنته من نشـــوز عن الضمير الجمعى ، وانحراف إلى طريق الجريمة ..

ولعله يجدر بى أن أشير إلى أن ما همّنى فى هذه الكلمـــات هو جزئية صناعة البطل فى الوجدان الشعبى . قد يكون البطـــل كذلك بالفعل، وقد يجد فيه الوجدان الشعبى بطولة تغيب فى أقلام المؤرخين والدارسين ، وربما ألبسه الوجدان الشعبى ثوب البطولــة

لاعتبارات غير موضوعية ، لكنها تتصل بحياة الشعب : تاريخه ، وظروفه السياسية والاجتماعية والثقافية وطموحاته . أنا إذن لا أسرد تاريخاً ، ولا أحلل السير والحكايات الشعبية ، أو أتناول معطيات الفنون الشفاهية ، لكن القضية الواحدة المحددة — أشرت إليها — هى محور اجتهاد هذه الكلمات ..

***

السيرة الشعبية — فيما قدمنا من أمثلة — عامل تهدئة لقلق الجماعة ، وتوجسها وخوفها . انها تغذّى الوجدان الجمعى ، وتدعو إلى وحدة الجماعة وتحرير الفرد والعدل الاجتماعى فى آن، وتحض على قيم الفروسية والتكافل . أما البطل فهو " الأب الحامى والمنقذ والمخلّص والرحيم والحميم والودود والمكلف والقادر والمعين والمرشد والمعلم والإمام إلخ . انه — بإيجاز — الإنسان الربانى كما يتصوره الشعب " (د . محمد رجب النجار: بردة البوصيرى — حوليات كلية الآداب — جامعة الكويت — الحولية السابعة — ص ٧٠). البطل هنا ينتصر بقوته وذكائه من ناحية ، وبتعاطف الجماهير ومسندتها من ناحية ثانية ، والأبطال بعامة قد تتعدد وظائفهم ومهنهم بين حاكم وقاتل وقاطع طريق

ولص الخ .. تلتقى صورهم فى الوجدان الشعبى ، فى صورة المقاوم . يقاوم الغزاة ، أو يقاوم السلطة . يقاوم الغزو من الخـــارج، أو القهر فى الداخل ..

إن لسير هؤلاء الأبطال وجودها التاريخى ، واقعها الـــذى نتعرف عليه فى كتب التاريخ ، لكن الراوى الشعبى ، الوجـــدان الشعبى ، أضاف إليها ، وحذف منها ، وحوّر ، وبدّل . أصبحت عملاً فنياً ينبض بالإثارة والتشويق والدلالة الأخلاقية ..

السيرة الشعبية ــ والموال الشعبى بالتالى ــ ليست مجـــرد وسيلة للترفيه ، ليست حكياً يســـتمتع المتلقـــون بســـماعه ، ثم ينصرف كل إلى حال سبيله . إنها " وسيلة دفاعية ضـــد وقـــائع التاريخ المعادية لوجدان الأمة وتطلعاتها " (مجلـــــة " المـــأثورات الشعبية ــ إبريل ١٩٨٨) السيرة ، الموال ، إعادة ترتيب لوقـــائع التاريخ ، بما يعبر عن رفض الوجدان الشعبى وأحلامه وتطلعاتـــه ومقاومته . إنها " تختار شخصاً تاريخياً ، وتعيد صياغته فى إطـــار شعبى يلبّى حاجات الجماعة ، ويفسّر التاريخ لصـــالح النـــاس ، صنّاع التاريخ الحقيقيين " (قاسم عبده قاسم : بـــين التـــاريخ والفولكلور ــ هيئة قصور الثقافة ــ ٤١) . لذلك فإن نمـــوذج

البطل يعد بلورة لقيم الجماعة ورصيدها الحضارى ، كما يعد تجسيداً لموقفها من التاريخ ، أى من الماضى والحاضر والمستقبل (البطولات العربية والذاكرة التاريخية ـــ ١٤٣) . وحين ينشد الراوى مواويله وحكاياته للمتلقين ، فهو يدرك أهم من عامة الشعب ، ويحاول من ثم أن يلبّى احتياجاتهم النفسية والوجدانية ، ويغذى آمالهم مقابلاً للإحباطات السياسية والنفسية والاجتماعية التى يعانونها . انه يشبع احتياجاتهم ويرضيها ، يستخلص البطل من وجدان الشعب ، ويعيد صياغته بحيث يحمل كل الملامح والقسمات والإيجابيات التى تحب الجماهير أن تجدها فى زعمائها. بل إن الراوى يبدل فى الشخصية التاريخية ، يحذف منها ، ويضيف اليها ، بما يوافق نظرة الشعب إلى تلك الشخصية ، أو النظرة التى نأمل أن تكون عليها . وكما يقول عبد الحميد يونس، فثمة ملاحم صدرت عن الشعب المصرى ، وعاشت قروناً وقروناً ، ولكن بعضها فقد وظيفته الأصلية فى التعبير عن الوجدان القومى ، لذلك طرحها جانباً ، ونحّاها عن تراثه ، وما لبث أن نسيها جملة وتفصيلاً ، ولم يبق منها فى خلده إلاّ عناوينها " (عبد الحميد يونس : مجتمعنا ـــ ٣٢)

البطل فى السيرة الشعبية ، يتجاوز الحكـــــى ، الســـرد ، استخلاص العبرة ، إلى التعبير عن الأمـــل المرتجـــى ، وامكانيـــة الخلاص ..

***

فى أوائل السبعينيات ، زرت قرية " السمارة " الواقعة بـين الشرقية والدقهلية . التقيت بمحمد أبو عبدة ، أو ابن بمبة . ألــف الناس التسمية ، وإن لم يجسر أحد حتى من رجال الإدارة ، علــى أن يواجهه بها . وتعرفت إلى اختلاط الماضى الملتحم بالجريمـــة ، بالواقع الذى يحيا استكانة الشيخوخة ، باستشرافات المســـتقبل ، التى تبين ملامحها فى إعجاب أهل السمارة ومحبتهم ورواياهم عــن الأفعال التى تصل إلى حد المعجزات ، عن كرامـــات فى أعـــوام الغروب ، ومكاشفات تهبها ميتافيزيقا الموت !

أثمرت رحلتى رواية " بوح الأسرار " . تعــرض ـــ مـــن خلال تعدد الأصوات ـــ لسيرة فرج خليل زهران ، أو ابن شفيقة . كيف دفعته الظروف إلى احتراف الجريمـــة ، ثم تحولـــه ـــ فى أخريات أيامه ـــ إلى شيخ يحمل خبرة وحكمة ، فظهور الولايـــة فى أقوال وتصرفات ، بداية لمكاشفات تتواصل بعد الموت. " ثيمة

" تكررت . أبطالها العديد من المعروفين والمجهولين الذين عاشـــوا فى قرانا المصرية ، أو قدموا ــ طارئين ــ إليها ..

إن فرج خليل زهران يطالعنا بملامح من " عنترة " فى طلبة للحرية ، ومن أبى زيد والزيبق فى الذكاء الفطرى والحيل ، ومن " ابن عروس " فى انتسابه لقاطعى الطريق ، ومن أدهم فى سـعيه إلى الثأر ، ثم فى التحديات التى واجهها هؤلاء ــ وغيرهم ــ والعــبر التى خرجوا بها . كل تلك الملامح تهبها لنا روايـــات متعـــددة ، تحرص على الصدق ، أو تميل إلى الكذب ، وإن استكملت بهـــا اللوحة ملامحها فى النهاية ..

البداية التى قد لا يذكرها أحد ، والشخصية الغارقـــة فى الظلال ، والأحداث المتشظية ، وتداخل الحقيقة والكذب .. ذلك كله يسهم فى ظهور شخصية البطل ، بكل ما تحمله من اختـــلاط عوامل الواقع والأسطورة ..

ولأن الولى " هو البطل الوسيط بين الله والناس ، وبـــين العدل والظلم ، بل وبين الفقر والغنى " (نبيلة إبراهيم ــ البطولــة فى القصص الشعبى ــ ص٣١) فإن الوجـــدان الشـــعبى يرفـــع الشخصية الواقعية إلى مصاف الولاية ، يجعله ولياً له كراماتــــه ،

ويجسّد تلك الولاية فى شكل ضريح ليتذكّر الناس وليّهم على الدوام ، وليلجأوا إليه فى الشدائد ، وطلب النصفة والمدد ، وتقديم النذور ، وممارسة الطقوس الصوفية التى ترتبط بأضرحة الأولياء ..

السيرة الشعبية ــ كما أشرنا ــ لا يشغلها الحدث التاريخى ، الواقعة التاريخية ، الحقيقة المؤكدة ، بقدر ما يعنيها الصورة التى تريدها ، المعنى الذى تطلبه ..

***

فهل انتهى مسلسل الأبطال الشعبيين بأدهم الشرقاوى ، أو أن أبطالاً جدد سيطالعوننا فى المستقبل القريب ، أو البعيد ؟..

لعلى أتصور أن شخصية مثل جمال عبد الناصر قد يحيطها الخيال الشعبى بالقصص والحكايات والمعجزات والخوارق ، بما يجعله بطلاً على مستوى الوجدان الشعبى العام . وقد يكون ذلك البطل الشعبى القادم ، سليمان خاطر ، أو سعد حلاوة ، أو محمود نور الدين ، وغيرهم من الأبطال الذى ثأروا لكرامة ناسهم ، أو سواهم من الأبطال العسكريين ، أو علماء الدين ..

والعادة أن البطل الشعبى لا يكتسب بطولته المطلقة فى حياته ، ولا بعد رحيله بسنوات ، وإنما يحتاج إلى أعوام غربلة ، تسقط الجوانب السلبية من سيرة حياته ، فلا يبقى إلاّ الإيجابيات ــ أذكرك بسيرة الظاهر بيبرس ! ــ اللوحة من بعيد ــ زمانياً أو مكانياً ــ تغيب عنها الخدوش والعيوب ــ لا يبقى إلاّ الملامح الرئيسة التى أرادها الفنان !

الإسكندرية ــ محمد جبريل ١٠ /١٩٩٨/٧

للمؤلف

١ - تلك اللحظة (مجموعة قصصية) ١٩٧٠ ـــ نفد

٢ - الأسوار (رواية) ١٩٧٢ هيئة الكتاب ـــ نفد

٣ - مصر فى قصص كتابها المعاصرين (دراسة) الكتاب الحـــائز على جائزة الدولة ـــ ١٩٧٣ هيئة الكتاب

٤ - انعكاسات الأيام العصيبة (مجموعة قصصية) ١٩٨١ مكتبة مصر ـــ ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية

٥ - إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٤ مكتبة مصر ـــ الطبعة الثانية ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٦ - مصر .. من يريدها بسوء (مقالات) ١٩٨٦ دار الحرية

٧ - هل (مجموعة قصصية) ١٩٨٧ هيئة الكتاب ـــ ترجمـــت بعض قصصها إلى الإنجليزية والماليزية

٨ - من أوراق أبى الطيب المتنبى (رواية) الطبعـة الأولى ١٩٨٨ هيئة الكتاب ـــ الطبعة الثانية ١٩٩٥ مكتبة مصر

٩ - قاضى البهار ينزل البحر (رواية) ١٩٨٩ هيئة الكتاب

١٠ - الصهبة (رواية) ١٩٩٠ هيئة الكتاب

١١ – قلعة الجبل (رواية) ١٩٩١ روايات الهلال

١٢ – النظر إلى أسفل (رواية) ١٩٩٢ ـــ هيئة الكتاب

١٣ – الخليج (رواية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب

١٤ – نجيب محفوظ .. صداقة جيلين (دراسة) ١٩٩٣ هيئـــة قصور الثقافة

١٥ – اعترافات سيد القرية (رواية) ١٩٩٤ روايات الهلال

١٦ – السحار .. رحلة إلى السيرة النبويـــة (دراســـة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

١٧ – آباء الستينيات .. جيل لجنة النشر للجامعيين (دراســـة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

١٨ – قراءة فى شخصيات مصرية (مقـــالات) ١٩٩٥ هيئـــة قصور الثقافة

١٩ – زهرة الصباح (رواية) ١٩٩٥ هيئة الكتاب

٢٠ – الشاطئ الآخر (رواية) ١٩٩٦ مكتبة مصر ـــ ترجمـــت إلى الإنجليزية .

٢١ – حكايات وهوامش من حياة المبتلى (مجموعة قصصيـــة) ١٩٩٦ هيئة قصور الثقافة

٢٢ - سوق العيد (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب

٢٣ - انفراجة الباب (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب — ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية

٢٤ - أبو العباس — رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر

٢٥ - ياقوت العرش — رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر

٢٦ - البوصيرى — رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر

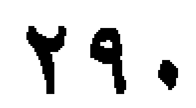
٢٧ - على تمراز — رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر

٢٨ - مصر المكان (دراسة فى القصة والرواية) الطبعة الأولى ١٩٩٨ هيئة قصور الثقافة — الطبعة الثانية ٢٠٠٠ المجلس الأعلى للثقافة

٢٩ - حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٣٠ - الحياة ثانية (رواية تسجيلية) ١٩٩٩ — دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٣١ - حارة اليهود (مختارات قصصية) ١٩٩٩ — هيئة قصور الثقافة



الهوامش

مقدمة ٧
البطل .. لماذا ؟................................. ١١
عنترة ٢٧
السيرة الهلالية ٦١
الظاهر بيبرس ٨٥
السيد أحمد البدوى.............................. ١٢٩
على الزيبق ١٥٩
ابن عروس ١٨٧
ياسين ٢١٣
متولى ٢٢١
أدهم ٢٣١
ملاحظات ٢٥٢
للمؤلف ٢٨٧

إصدارات مكتبة الدراسات الشعبية

من يناير ١٩٩٦ إلى ديسمبر ٢٠٠٠

١ – قصصنا الشعبى .... د. فؤاد حسنين على
٢ – يا ليل يا عين .... يحيى حقى
٣ – سيد درويش .... محمد دواره
٤ – المجذوب............................... فاروق خورشيد
٥ – فن الحزن .... كرم الأبنودى
٦ – المقومات الجمالية فى التعبير الشعبى...... د. نبيلة ابراهيم
٧ – ابداعية الأداء جـ ١ .... د. محمد حافظ دياب
٨ – ابداعية الأداء جـ ٢ .... د. محمد حافظ دياب
٩ – أدبيات الفولكلور فى مولد السيد البدوى ... ابراهيم حلمى
١٠ – موال ادهم الشرقاوى .... د. يسرى العزب
١١ – الرقص الشعبى فى مصر .... سعد الخادم
١٢ – المغازى .... د. صلاح فضل
١٣ – بين التاريخ والفولكلور .... د. قاسم عبده قاسم
١٤ – مملكة الأقطاب والدراويش .... عرفه عبده على
١٥ – فلسفة المثل الشعبى .... محمد ابراهيم أبو سنة
١٦ – الظاهر بيبرس ....د. عبد الحميد يونس

١٧ – الحكاية الشعبية .... د. عبد الحميد يونس
١٨ – خيال الظل .... د. عبد الحميد يونس
١٩ – الأزياء الشعبية والفنون فى النوبة .... سعد الخادم
٢٠ – الفن الإلهى .... محمد فهمى عبد اللطيف
٢١ – النيل فى الأدب الشعبى .... د. نعمات أحمد فؤاد
٢٢ – الفولكلور فى العهد القديم جـ١ .... تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
٢٣ – الفولكلور فى العهد القديم جـ٢ ...... تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
٢٤ – الفولكلور فى العهد القديم جـ٣ ...... تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
٢٥ – حكاية اليهود .... تأليف : زكريا الحجاوى
٢٦ – عجائب الهند .... تقديم يوسف الشارونى
٢٧ – حكاية اليهود ط ٢ .... زكريا الحجاوى
٢٨ – الطُلى .... د. عبد الرحمن زكى
٢٩ – أبو زيد الهلالى .... محمد فهمى عبد اللطيف
٣٠ – السيد البدوى ودولة الدراويش..... محمد فهمى عبد اللطيف
٣١ – التاريخ والسير .... د. حسين فوزى النجار
٣٢ – خيال الظل .... د. ابراهيم حمادة
٣٣ – فرق الرقص الشعبى فى مصر .... عبير السيد
٣٤ – مباحث فى الفولكلور .... محمد لطفى جمعة
٣٥ – نجيب الريحانى .... عثمان العنتبلى
٣٦ – عالم الحكايات الشعبية .... فوزى العنتيل
٣٧ – الزخارف الشعبية على مقابر الهو .... محمود السطوحى
٣٨ – الفولكلور ما هو ؟ .... فوزى العنتيل
٣٩ – سيرة الملك سيف بن ذى يزن .... المجلد الأول
٤٠ – سيرة الملك سيف بن ذى يزن .... المجلد الثانى
٤١ – سيرة الملك سيف بن ذى يزن .... المجلد الثالث

٤٢ - سيرة الملك سيف بن ذى يزن .... المجلد الرابع
٤٣- سيم العشق والعشاق .... أحمد حسين الطماوى
٤٤- كتابات فى الفن الشعبى.................. حسن سليمان
٤٥- المأثورات الشفاهية .... تأليف : يان فانسينا
ترجمة : د. أحمد مرسى
٤٦- بين الفولكلور والثقافة الشعبية .... فوزى العنتيل
٤٧- الشعر البدوى فى مصر- ج١ - .... صلاح الراوى
٤٨- الشعر البدوى فى مصر- ج٢ - .... صلاح الراوى
٤٩- الطفل فى التراث الشعبى. .... د. لطفى حسين سليم
٥٠- تغريبة الخفاجى عامر العراقى.................. باسم حمّودى
٥١- الفولكلور.. قضاياه وتاريخه.................. تأليف : يورى سوكولوف
ترجمة : حلمى شعراوى - عبد الحميد حواس
٥٢- الأسطورة والإسرائيليات .... د. لطفى سليم
٥٣- البطل فى الوجدان الشعبى .... محمد جبريل



- الاحتفالات الدينية فى الواحات
- الاحتفالات الأسرية فى الواحات
- الشعر الصوفى فى محافظة القليوبية (جـــزءان)
- الشعر الشعبى الساخر

رقم الإيداع : ١٨٦٨٤ / ٢٠٠٠

البطل فى الوجدان الشعبى

إن هذه الدراسة التى كتبها الأستاذ محمد جبريل استطاعت أن تغوص فى واقع الكثير من الشخصيات التى رفعها الشعب المصرى إلى مرتبة الأبطال ليس من قبيل البقشيشة الشعبية وإنما لأن هناك - فى حياة هؤلاء الأبطال كما فى حياة الشعب المصرى - قيمٌ معينة حرص الشعب المصرى على تشخيصها وتجسيدها من خلال هذه الشخصيات فكيف كان ذلك، اقرأ هذا الكتاب ...